

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شَخَصِيَّاتٌ إِسْلَامِيَّةٌ

مِنَ الشُّعْبَةِ

حَيَاةِ سِتَّةِ عَشْرٍ مِنْ

«صَحَابَةِ النَّبِيِّ وَ الْوَصِيِّ»

فِي دِرَاسَةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ شَامِلَةٍ

مَحَاضِرَاتِ الْأَسْتَاذِ الْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ جَعْفَرِ السَّبْحَانِي

بِقَلَمِ: جَعْفَرِ الْهَادِي

١٣٩٦ هـ.ق. – ١٣٥٥ هـ.ش.

الفهرس

- ٦ التشييع و الأصالة التاريخية
- ١٤ كتابات حول صحابة الرسول
- ٢١ مع كتابين حول الصحابة
- ٢٢ ١. رجال حول الرسول
- ٣٠ ٢. حياة الصحابة
- ٣٣ الهدف من هذا الكتاب
- ٣٧ مع الهدف الآخر لهذا الكتاب
- ٥١ التشييع و مظالم التاريخ
- ٥٢ التشييع من صنع اليهودي ابن سبأ؟!
- ٧٧ أين استعملت لفظة «الشيعة»؟
- ٨٣ ١. كاتب الوحي؛ أبان بن سعيد
- ٩٠ أخوا أبان على درب الإيمان
- ٩٤ اللقاء البناء
- ١٠٠ الاستقبال الساخن
- ١٠٢ رسالة إلى أبان
- ١٠٣ رجل السيف و القلم
- ١٠٥ أبان؛ أميراً على البحرين
- ١٠٩ أبان لا يُقرّ خلافة أبي بكر
- ١١٢ أبان في مسند القضاء
- ١١٤ ٢. المعلم الكبير للقرآن، أبي بن كعب

١٢٦	أبيّ و دفاع عن القرآن أبداً
١٢٨	نموذجاً مُبرّزاً
١٣٦	أبيّ؛ موسوعة قرآنيّة
١٤٠	تأمل و نظر
١٤٢	أبيّ؛ فهم للقرآن لا يجور
١٤٦	و أما نظرتة الأخلاقيّة
١٤٨	أبيّ و أحداث سقيفة
١٥٢	استيضاح الخليفة
١٦٩	٣. مؤسس الفقه و الحديث في الشيعة؛ أوراغ
١٧٨	آثار الهزيمة في مكّة
١٧٩	تأمل و نظر
١٨٨	نبوءة النبيّ حول الإمام عليّ عليهما السلام
٢٠٥	رجل السيف و القلم
٢١٤	عذر صبيانيّ
٢١٨	هذا المنع كان بدافع سياسي
٢٢٠	كيف دُوّنت الأحاديث بعد ذلك
٢٢٨	الشيعة أسبق في تدوين الحديث
٢٣٢	٤. فارس الجهاد و عملاق الشعر؛ أبوسفیان بن الحارث
٢٤٠	في محضر الرسول
٢٤٤	الإمام عليّ عليه السلام يهدي
٢٥١	و يحلّ العام الثامن من الهجرة
٢٥٧	صمود عليّ طريق الله

- ٢٦١ في مرثية الرسول
- ٢٦٤ ٥. الزاهد الكبير؛ أويس القرني
- ٢٧٣ نبوة الرسول
- ٢٨٢ أويس و دعايات معاوية المُضَلَّة
- ٢٩٠ ميثاق الشهادة
- ٣٠٠ ٦. رجل الحرب و الحماسة؛ أنس بن الحارث الكاهلي
- ٣٠٨ التنبؤ بمصرع الإمام الحسين عليه السلام
- ٣٢٠ ٧. مَنْ يَكُونُ مُلْجَأَ الْأُمَّةِ فِي الْفِتَنِ؟ أَبُو لَيْلَى الْغَفَارِي
- ٣٢٨ ٨. الجنديّ المجاهد؛ أبو ليلَى الأنصاري
- ٣٣٢ ٩. موقف صامدٌ و نصرَةٌ صادقةٌ؛ بريدة بن الخصيب الأسلمي
- ٣٤٣ دسيسة خالد
- ٣٤٩ تأمل و نظر
- ٣٥٩ استيضاح الخليفة
- ٣٦٤ الحوار المثير
- ٣٧٧ ١٠. نصيرٌ عليّ الفدائيّ؛ بُرَيْدُ الْأَسْلَمِيِّ
- ٣٨٤ ١١. فاتح الحصون؛ براء بن مالك بن أنس الأنصاري
- ٣٩٠ لا للموت على فراش المرض
- ٣٩٤ بطولة تاريخية
- ٣٩٨ فتح ششتر
- ٤٠١ تأمل و نظر
- ٤٠٦ ١٢. حدود الولاء لعليّ عليه السلام؛ براء بن العازب
- ٤١٠ على جبهات القتال

- ٤١٢ تأمل و نظر
- ٤١٤ في ركاب عليّ عليه السلام
- ٤٢٤ الزلّة الكبيرة
- ٤٣٣ ١٣. مؤذن الرسول؛ بلال بن رباح الحبشي
- ٤٤١ بلال يتحرّر
- ٤٤٤ بلال يقتل أمية
- ٤٤٩ بلال يمدح الرسول
- ٤٥١ رحمتها يا بلال، رحمك الله
- ٤٥٢ الرسول يعلم بلالاً الأذان
- ٤٤٣ بلال و الخلافة
- ٤٤٨ و إليك مفصل القصة
- ٤٧٥ كم مرة أذن بلال بعد وفاة رسول الله؟
- ٤٨١ و أخيراً بلال
- ٥٠٣ ١٤. وليد الأمجاد؛ تمام بن العباس بن عبدالمطلب
- ٥٠٤ أميراً للمدينة
- ٥١٢ العناية بالأسنان في نظر الإسلام برواية هامة لتمام بن العباس
- ٥١٥ ١٥. شهيد صقّين؛ ثابت بن عبيد الأنصاري
- ٥٢٠ و مجمل القصة هو
- ٥٢٥ ١٦. قائد لائق؛ ثابت بن قيس بن خثيم
- ٥٢٧ المشاركة في حرب بدر
- ٥٢٨ والياً على المدائن
- ٥٣١ المصادر

التشيع و الأصالة التاريخية

حياة صحابة الرسول الأعظم أغنى كنز
مُتاح لنا نحن المسلمين، لأنه أكبر كنز
علمي و اجتماعي وأخلاقي عرفه تاريخ
الإنسان.

فعندما حملت شجرة الرسالة و انطلق
النبي الكريم صلى الله عليه وآله بمهمة
التبليغ و تربية الأفراد و توجيههم، كان
أولى ثمار تلك الشجرة المباركة، هم
تلك الثلة الجليّة من الرجال المخلصين
الأوفياء الذين جاهدوا طوال حياة النبي
العظيم و بعده - كذلك - في سبيل نشر
الإسلام و إرساء قواعده في الأرض و

ظَلُّوا يَبْذُلُونَ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ مَالٍ وَ
نَفْسٍ وَ جَاهٍ حَتَّى تَتَحَقَّقَ أَمَانِي الرَّسُولِ وَ
تَتَحَقَّقَ أَهْدَافُهُ، مُسْتَطِيبِينَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ
كُلَّ مَرَارَةٍ وَ مُسْتَصْغِرِينَ كُلَّ تَضْحِيَةٍ.

هُؤُلَاءِ الصَّنَائِعُ الْأُولَى لِلرَّسَالَةِ، هُمُ الَّذِينَ
قَالَ عَنْهُمْ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ
اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ».^١

أَوْ يَقُولُ عَنْهُمْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ:

«رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ».^٢

١ . سورة الفتح: ٢٩ .

٢ . سورة الأحزاب: ٢٣ .

فهم أولئك الذين كلما دعاهم رسول الله
لأمر أهمّ، سارعوا إليه في شوقٍ هائلٍ
و عظيمٍ و هم يقولون: «رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا
مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ
فَأْمَنَّا»^١.

ولا عجب...

فصحابة الرسول هم أول من غرست
في أعماقهم فسائلُ الإيمان.
فاذا هي تثمرُ بعد حينٍ، و تؤتي أكلها
ألواناً من الثمار تسرُّ الناظرين.

^١ . سورة آل عمران: ١٩٣.

و هُم، هُم الذين بُنَّت في قلوبهم بُذُورُ
الأخلاق المجيدة و السجايا الإنسانيَّة،
فأنبَتت -هناك- و نَمَت و كَبُرَتْ و راحت
تظلّ من حياتهم كلّ جانب.

فاذا الدنيا تشهد منهم بعد قليلٍ من الزمان
من أصبحوا أصدق مظاهر التقوى و
التطهّر و العاطفة الجياشة و الفداء العظيم
و التضحية الشامخة، و الشعور النبيل و
علوّ الهمة و بُعد النظر و الحُبّ العميق لله
و الحقّ و الشوق الطاغي إلى دار الآخرة
و الشجاعة المدهشة و البطولة الباهرة و
الزهد في الدنيا و الترفع على سفاسفها.

و اذا بهم يضيئون الحياة و مشاعل
النور على مفرق الزمن.

ليس هذا الذي قلناه يعني بالضرورة أنّ
كلّ مَنْ كان حول الرسول كان كذلك و
إنّ حياتهم جميعاً كانت مثلاً أعلى
للخلال الكريمة و المواقف الرشيدة،
لأنّنا لا نستطيع أن ننكر ما حدّثنا به
القرآن الكريم عن وجود المنافقين بين
صحب الرسول و وجود أولئك الذين
كانوا يميلون في دخائلهم إلى معسكرات
الشرك و الكفر، لضعفٍ في إيمانهم و
هزالٍ في عقيدتهم، فاذا هم يميلون مع
كلّ ريح كنيّبة حائرة في قلب العواصف
و ما أكثرهم...

و مِنْ ثَمَّ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الصَّحْبَةَ
هِيَ الشَّارَةَ الدَّائِمَةَ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى
اسْتِقَامَةِ الرِّجَالِ أَوْلَائِكَ وَ عَلَى عَدْلِهِمْ وَ
ثَبَاتِهِمْ فِي الْقَوْلِ وَ الْعَمَلِ.

أَمَّا الْآيَاتُ الَّتِي مَرَّتْ فِيهَا لَيْسَتْ سِوَى
كَشْفٍ عَنِ حَقِيقَةِ تَقْتَضِيهَا الصَّحْبَةَ مَعَ
الرَّسُولِ الْعَظِيمِ، كَمَا لَوْ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ
تَقُولَ: إِنَّ مَنْ يَصْحَبُ رَسُولَ اللَّهِ، يَنْبَغِي
أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ. عَلَى أَنْ مِنَ الطَّبِيعِيِّ
أَنْ تَفْعَلَ تَرْبِيَةَ الرَّسُولِ لِلْأَفْرَادِ، فِعْلَتَهَا
فِي النُّفُوسِ الْمَهْيَأَةِ لِلتَّحَوُّلِ الْارْتِفَاعِ،
فَتَرْفَعُهَا إِلَى أَسْمَى الرَّتَبِ وَ أَعْلَاهَا
لِتَصْنَعَ مِنْهُمْ رِجَالًا وَ نِسَاءً عَلَى أَعْلَى
الْمَسْتَوِيَّاتِ مِنَ الْمَجْدِ وَ السَّمُوقِ وَ مِنْ

العظمة و الشموخ إلا أننا في الوقت ذاته لا يمكننا أن نتجاهل تأثير عوامل الهدم، سواء تلك التي تتبع من داخل النفس أو تلك التي تهجم عليها من الخارج.

هذه العوامل التي ليس بالإمكان مطلقاً إنكار تأثيرها السلبي على النفوس و على قواعد الأخلاق فيها فاذن هي تغلبت على النفس و حطمت قواعد الأخلاق فيها أعادت بالإنسان إلى عصور الجاهلية، كما صنعت ذلك -بالفعل- مع رجال ضعفوا أمام طغيانها فتغلبت عليهم و أوقفت فيهم حركة التقدم باتجاه الكمال بل و أرجعت بهم إلى الجاهلية الأولى و إلى وراء الوراء.

مِنَ أَجْلِ كُلِّ هَذَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْكَمَ
عَلَى كُلِّ الصَّحَابَةِ بِشَيْءٍ مَا لَمْ نَدْرُسْهُمْ
وَاحِدًا وَاحِدًا وَبصُورَةٍ شَامِلَةٍ مُسْتَوْعِبَةٍ
لِيَتَسَنَّى لَنَا إِطْلَاقَ الْحُكْمِ دُونَ مَا جَفَاءَ .

إِنَّ مَطَالَعَةَ وَاحِدَةٍ شَامِلَةٍ لِحَيَاةٍ وَشَخْصِيَّةٍ
أَوْلَىكَ الصَّحَابَةِ الْأَجَلَّةِ، كَفَيْلَةٌ بَأَنَّ تَلْهَمَنَا
أَكْبَرَ الدَّرُوسِ وَتَكشِفُ لَنَا كَيْفَ أَنَّ
إِيمَانَهُمْ وَإِخْلَاصَهُمْ؛ وَفَائَهُمْ وَاسْتِقَامَتَهُمْ
فِي الْقَوْلِ وَ الْعَمَلِ، يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ لَنَا
أَفْضَلَ الْعِبَرِ وَ لِلْأَجْيَالِ، أَوْضَحَ الْمَعَالِمِ
إِلَى التَّسَامِيِّ وَ الْارْتِفَاعِ .

كتاباتٌ حول صحابة الرسول

و على الرغم من أنّ ثمة كتباً كثيرة حول صحابة الرسول قد كتبها علماء من السنة و الشيعة، فإنّ هناك نقصاً مهمّاً تعاني منه هذه الكتب.

ذلك لأنّ كلّ واحد من هؤلاء الذين كتبوا حول الصحابة كان غاية ما صنعوه -في هذا المجال- هو لملمة أكبر قدر من شتات الأحداث و الوقائع، حول الصحابي الذي تصدّوا لترجمته، ثمّ تسجيل ذلك الشتات في حدود ما أُتيح لهم، و أسعفهم التتبع في حياة ذلك الصحابي.

فاذا هم بعد ذكر اسم الصحابي و اسم
قبيلته، عمدوا إلى سرد ما سمعوه عن
الصحابي من أحاديث الرسول أو ما قيل
حولهم من أحاديث و ربما ذكروا
الأحداث التي شارك فيها الصحابي
المعین ثم نركوه إلى آخر، دون أدنى
تحليل لشخصيته أو الأحداث التي ترتبط
به و دون أيما استنتاج، أو إيضاح لكل
ما هو مفيد فيها أو انتقاد لما يستحق
النقد، توصلًا إلى الحقيقة و استجلاء
لما في ذلك من عظة و ذكرى.

ولهذا كان أكثر علماء الرجال مجرد نقل
لا محللين ذلك، لأن عملهم اقتصر على
مجرد تسجيل الأحداث و الأشخاص

دون أن يتخطاه إلى تحليل ما وراء هذه الأحداث و تِلْكُمْ الأشخاص و استنتاجها. فكل ما فعلوه هو أنهم دونوا كلما تلقفوه من أساتذتهم من وقائع و أحداثٍ و أقوالٍ دون أيّة زيادةٍ أو نقصانٍ و في منتهى التحفظ و من دون ممارسة لأيّ نقدٍ أو تحليل و في تورّع كامل من إبداء أيّة وجهة نظرٍ شخصيّة و كأنّ أمانة النقد قد منعتهم بالكامل عن التحليل و التحقيق، و النقد و النظر، بيد أنّ ما هو مفيدٌ - في الحقيقة - للجماهير و الشباب - خاصّة - هو تحليل الأحداث و استجلاء خلفياتها و تقييم ردود الفعل لها لا مجرد الضبط و مجرد التدوين.

لكن هذا الأمر لم يتحقق - مع الأسف -
في الكتب الرجالية التي تعرّضت لحياة
صحابه الرسول و سيرهم و في الكتب
التاريخية الأخرى كذلك. لذلك فإنّ جيلنا
الحاضر الذي كان - و ظلّ - متعطّشاً
إلى قراءة ما يكون دراسةً تحليليةً
للأحداث و الأشخاص في الإسلام.

و ظلّ كذلك متعطّشاً - بصدقٍ و حرارةٍ -
إلى معرفة الانجازات الكبرى و المهمة
التطوّرات الفكرية و الاجتماعية التي
تمّت على أيدي صحابة الرسول الأعظم
صلّى الله عليه وآله و تركت من بعدهم
آثاراً امتدّت عدّة قرون من الزمان.

هذا الجيل لم يجد ضالته في كُتُب
التاريخ و لا في كُتُب الرجال الذي كُتبت
قديمًا، إذ أنّ ما قدمته إليه هذه الكُتُب
لم يتعدّ - في نظره - كونه مروراً خاطفاً
و عابراً على الأشخاص و الأحداث،
مروراً لا يُسمن من جوع و لا يروي
من عطش. هذا العطش إلى ما وراء
الأشخاص و إلى ما وراء الأحداث.

إنّه ليس من شكّ في أنّ للعظام من
الرجال مواقفَ أعظمَ في صفحات
حياتهم و أسطراً سامقةً مشرقةً يمكنُ أن
تكونَ للأجيال القادمة أفضل المناهج
للعيش النبيل و الحياة الكريمة.

فلماذا - ترى - يظلُّ هذا الكنز النافع
الغني بالرؤى و العبر، غائباً عن العيون
و لماذا لا نستلهم من تلك الصفوة
الطاهرة، القدوة الصالحة و المثل
الأعلى؟ إنَّ ضاربي الجاز و موسيقيين
أو مُخرّجي السينما و رجال الفن
لن يكونوا- بكلّ تأكيد - بالقدوة الصالحة
التي تُمكن لأحد الحصول على الصيغة
الأفضل للحياة، إذ ليس ثمة من قيم
يمثلونها تستحقُّ الاعتبار و الاقتداء.

و إنّما القدوةُ الحسنةُ و المرآةُ الصادقة
التي تعكس القيمَ الإسلاميّة الهادية بل و
كلّ القيم الإنسانيّة الفاضلة على الإطلاق
نجدّها عند صحب الرسول العظيم، الذين

يُتِيحُ لَنَا التَّعَرَّفُ عَلَى سَيْرِهِمْ وَ حَيَاتِهِمْ
الرَّائِعَةَ وَ مَوَاقِفَهُمِ الْأَرْوَاعَ فَرَصَةَ
الْحَصُولِ عَلَى أَفْضَلِ الصِّيَغِ لِلْحَيَاةِ
الطَّهَوْرَةِ الْمِعْطَاءِ.

أَجَلٌ عِنْدَ ذَلِكَ الرَّعِيلِ نُلْقِي الْقِدْوَةَ الْحَسَنَةَ
ذَلِكَ الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ، الَّذِينَ كَانُوا الدَّفْعَةَ
الْأُولَى الَّتِي خَرَّجَتْهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ- مَدْرَسَةَ
الْوَحْيِ وَ قَدَّمَتْهُمْ إِلَى الْعَالَمِ، مَدْرَسَةَ
التَّرْبِيَةِ النَّبَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ، كَأَفْضَلِ نَمَازِجِ
لِصَنَائِعِ الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةِ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا أَقْرَبَ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَى
مَصْدَرِ النُّورِ وَ مَهْبِطِ الْوَحْيِ، فَأَوْجَدَ هَذَا
الْقُرْبَ فِيهِمْ مِنَ الشَّفَافِيَّةِ فِي الذَّاتِ وَ
الْصِّفَاتِ مَا لَا نَجِدُ مِثْلَهَا فِي سِوَاهُمْ.

مع كتابين حول الصحابة

اللهمَّ أجل، فربما سُدَّ هذا الفراغ ببعض
الشيء بما صدر - مؤخراً - من كتابات
تفي بجانب من الغرض.

و لا نعني - بالطبع - إلا الكتابين الذين
صدرا - في الأونة الأخيرة - و الذين
استطاع مؤلفاهما بما أوتيا من سعة
اطّلاع بحياة رجال الرعيل الأوّل وإمام
التاريخ الإسلامي أن يتناولوا حياة ذلك
الفريق بشيء من التحليل و التفصيل،
فيقدموا بذلك للقارى جديداً في مجال
التعريف بالصحابة جديداً في منهجه.

و بالتالى شيئاً يغذى الحاجة، غير أنّهما
- رغم ذلك- لم يخلوا من بعض إشكالات
كان ينبغي أن يخلوا منها.

و الكتابان هما:

١. رجالٌ حولَ الرسول

تأليف «خالد محمد خالد» و هو من
منشورات دار الكتاب العربي ببيروت
و قد صدر هذا الكتاب - فيما سبق- في
خمسة أجزاء صغيرة الحجم، و لكنّها
نشرت- في ما بعد- في شكل مجلّد واحد
ضخم.

و هو يضم ترجمة شيقة لِسِتِّين رجلاً من
الذين كانوا حول الرسول صلّى الله عليه

وآله فيها الكثير من التحليل، مضافاً إلى الكثير من الأناقة في الأسلوب و الجمال في التعبير.

ولكن حيث كان منطق المؤلف و هدفه الأساسي هو تقديس كلِّ مَنْ حول الرسول و الإشادة بهم - على الاطلاق - فإننا نجده قد تناول بالإشادة مَنْ لم يكونوا يستحقونها - قليلاً أو كثيراً - أمثال سعد بن أبي وقاص و عبدالرحمن بن عوف و أبو موسى الأشعري و عمرو بن العاص و خالد بن الوليد و عبدالله بن الزبير و أسيد بن حضير و غيرهم كما لو كانوا - حقاً - مظاهر للصدق و الوفاء و العدل و الايمان!

هذا، و لَطالما يُواجهُ القارئُ العادي
- فضلاً عن الواعي - تناقضاً فضيعةً و
فاضحاً، في مواضعه و تضارباً في
الصُّور.

فحينما يتناول المؤلف ترجمة عمّار مثلاً
نلفيه يفي الكيل، و يعطي عمّاراً حقّه
بالكامل. فيقدّمه على أنّه الرجل المجاهد
الممتلئ إيماناً من قرنه إلى أخمص
قَدَمَيْهِ.

ثمّ يدرجُ شعر عمّار في هجاء عساكر
الشام و في طليعتهم معاوية و عمرو بن
العاص.

فيقولُ خالدُ محمّدٌ حولَ عمّارٍ:

«ثمّ يندفعُ عمّارٌ كقذيفةٍ عاتيةٍ صوبَ
مكانٍ معاويةٍ و مَنْ حولِه، مِنْ الأمويّين
و يرسلُ عليهم صياحاً عاليّاً مُدمِماً:

لَقَدْ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

و الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

ثم يقولُ خالدٌ: هو (أي عمّار) يعني بهذا
الشعر أنّ أصحاب الرسول السابقين
- و عمّار منهم - قاتلوا الأمويّين بالأمس
وَ عَلَى رَأْسِهِم أَبُو سَفْيَانَ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُ
لِوَاءَ الشَّرْكِ، وَ يَقُودُ جِيُوشَ الْمُشْرِكِينَ
قَاتَلُوهُمْ بِالْأَمْسِ وَ كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ
يَأْمُرُهُمْ صِرَاحَةً بِقِتَالِهِمْ لِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ.

أَمَّا الْيَوْمَ وَ إِنْ كَانَ الْأُمُويِّينَ هُوَ لَاءَ، قَدْ
أَسْلَمُوا فَإِنَّهُ يِقَاتُلُهُمْ لِأَنحِرَافِهِمْ بِالْدينِ، وَ
زَيْغِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَ إِسَاءَاتِهِمْ
فَهَمَّهُ وَ تَفْسِيرَهُ»^١.

وَ هَكَذَا يَعْتَبِرُ الْمَوْئِفُ - هُنَا - عَمْرَوُ بْنُ
الْعَاصِ، مَمَّنْ زَاغَ عَنِ الْقُرْآنِ وَ انْحَرَفَ
عَنِ الدِّينِ فَوَجِبَ قِتَالُهُ.

بَيْنَمَا يَذْهَبُ فِي مَوْقِفٍ آخَرَ، هُنَاكَ حَيْثُ
يَتَنَاوَلُ تَرْجَمَةَ عَمْرَوِ الْعَاصِ السِّيَاسِيِّ
الْمَاكِرِ الْخَبِيثِ الَّذِي كَانَ عَمَّارٌ يَعْتَبِرُهُ
كَافِرًا بِحُكْمِ التَّأْوِيلِ.

^١ . رجال حول الرسول، ص ٢٧٦.

يذهبُ خالد لإضفاء رداء القداسة عليه^١
كما لو لم يكن مُؤجَّج نيران حرب
صفين التي ابتلعت من الضحايا مائتي
ألف!

أو كأنه ليس ذلك الناقض للعهد و الخائن
للأمانة في حادثة التحكيم، يوم اتفق هو
و أبو موسى الأشعري -مندوب معسكر
الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام -
على أن يخلعا كلا الأُميرين أي عليّاً
عليه السلام و معاويةً - ليختار المسلمون
بأنفسهم - مكانهما - أميراً آخر قطعاً لدابر
الاقْتتال.

^١ . نفس المصدر، ص ٧٦٩-٧٧٨.

و لكن ابن العاص الماكر المحتال يبدل
في القول، فينصب معاوية للخلافة بدل
أن ينزعه منها و ينزع علياً عليه السلام
منها و هو بها أجدر و ينعل ابن العاص
ذاك - بوقاحة فخرجة - خلافاً لصريح
الاتفاق، و يضرب بعمله الوبيء هذا
أخسّ مَثَلٍ للغدر و الخيانة في تاريخ
الخنث السياسي!

بيد أن المؤلف - تجنباً لأيّ نقد قد يوجّه
اليه لهذا - يعمدُ إلى التلميح إلى بعض
قبائح الرجل (عمر و العاص) في كلمات
عابرة و مسافرة في مطلع ترجمة

لعمرو^١ لا تستطيع أن تزيل التناقض
الفاضح في الكتاب.

كلّ هذا إلى جانب إشكالٍ آخر لا يمكنُ
تجاهله في كتاب خالد محمّد ذلك، هو
غياب المراجع لكلّ ما دَوَّنَه و أدْرَجَه
في تراجمه من قصصٍ و معلوماتٍ و
أقوالٍ بالتفصيل.

و معلوم أنّ غياب المصدر - خاصّة في
مثل هذا الكتاب الضخم الذي يضمّ ٨٠٠
صفحة - يجعل الدراسة غير موضوعيّة
إذا ما عرفنا بأنّ المنهج المقبول - اليوم -
هو ما يعتمدُ على ذكر المراجع و
المصادر في كلّ خطوة و قولة و نسبة.

١ . نفس المصدر، ص ٧٦٨.

اللهم إلا ما أشار إليه خالد - باقتضاب -
من أسماء المراجع - التي رجع إليها - في
مطلع كتابه فقط.

٢. حياة الصحابة

تأليف محمد يوسف كاندهلوي المتوفى
عام ١٣٦٢ هجرية الذي طبع في دمشق
في أربع مجلدات، بضميمة مقدمة لأبي
الحسن الندوي و تصحيح محمد علي دولة
و اسم هذا الكتاب و إن كان يوحى بأنه
دراسة عن الصحابة - مطلقاً - بل هو
كتاب رتبته مؤلفه على نسق كُتب
الأخلاق تماماً و على نسق الكتب التي
وُضعت في المجالس المنبرية.

لأنّ المؤلّف يتناول عدّة موضوعات أخلاقيّة ثمّ يدرج عند كلّ بحثٍ ما يناسبه من قصص الصحابة ممّا سمعه أو قرأه على صورة شواهد.

فهو مثلاً يعقدُ في الكتاب أبواباً مثل «باب الصبر في سبيل الله» و «باب البيعة على الإسلام» و «باب الهجرة» و أمثالها، ثمّ يورد فيها ما حصل عليه من معلومات تاريخيّة، و قصص من حياة الصحابة ممّا يتناسبُ و الأبواب المذكورة و لطالما تناول حياة صحابي واحد في عدّة مواضع من الكتاب.

و الكتاب بما ينطوي عليه من أبحاث
أخلاقية و ما يضمُّ من شواهد حيّة من
حياة الصحابة يصلحُ لأن يكونَ مرجعاً
ممتازاً للمبلّغين و الخطباء و الكُتّاب،
يساعدُهم على الكتابة و الإلقاء في
موضوع أخلاقيّ معيّن، مضافاً إلى أنّه
بما يمتازُ به من ذكرٍ دقيقٍ و مفصّلٍ
للمراجع يصلحُ لأن يكونَ مرشداً لهؤلاء
إلى ينباع إلا أنّه - رغم هذه المزيّة أو
المزايا- لا يحتوي على التحليل المطلوب
الذي يتعطّشُ إليه الشباب المعاصر و
يبحثُ عنه في كلّ مكان و زمان.

على أنه لو كان يتحلّى بما تحلّى به كتاب
خالد محمّد خالد من تحليلٍ للشخصيّات
- على انفراد - و دراسةٍ للأحداث لكان
كتاباً ذات قيمةٍ كبيرةٍ من هذه الناحية
بكلّ تأكيد.

الهدف من هذا الكتاب

على ضوء ما تقدّم لأبّد أن يكون القارئُ
الكريمُ قد اكتشف بعضَ الهدف وراءَ هذا
التأليف.

فقد سعينا في هذا الكتاب - في الحقيقة -
إلى أن نقدّم إلى القُرّاء دراسةً وافيةً عن
ذلكم الفريق من صحابة رسول الله صلّى
الله عليه وآله، الذين كانوا يوالون عليّاً

أمير المؤمنين عليه السلام و ظلّوا على
ولائهم ذاك و تشييعهم له في منتهى
الإخلاص و الوفاء.

ففي هذه الدراسة نسعى لأن نفتح الأعين
والبصائر معاً على تلك الأوجه الوضيئة
و الأشخاص الطاهرة المشبّعة أبداً
إخلاصاً و طهراً و فداءً و تضحيةً و شهامةً
و زهداً و شعوراً صادقاً بالمسؤولية.

و إنّما فعلنا ذلك - في هذا الكتاب - لنقدّم
- بهذه الدراسة - غذاءً فكرياً سليماً لكلّ
أولئك الباحثين عن الحقيقة و نخصّ
منهم ذلك الفريق من الشباب المتعطّش
إلى التاريخ الإسلامي و تحليل أحداثه و
دراسة تطوّراته و تحوّلاته.

وأخيراً لكلّ العاملين على خطوط التبليغ والتأليف والخطابة، على أنّنا بالنظر إلى النواقص التي أشرنا اليه في المؤلفات السابقة سعينا هنا أن تكون محتويات هذا الكتاب و معلوماته مسندةً إلى مراجعها و لم نكن نعتمد - بالطبع - إلا على المراجع الأصيلة و ذات المرتبة الأولى بين المراجع.

كما حاولنا أن يكون العرض و التحليل -فيه- للأحداث و الأشخاص متمشياً مع أحدث الأصول المتبعة في هذا العصر متحاشين كلّ ما لم نثق به و ما لم نتأكد من صحّته و استقامته.

إِنَّ الصُّورَ الَّتِي أُعْطِينَاهَا عَنِ الْوَجْهِ
الْوَضِئَةِ الَّتِي سَوْفَ تَقْرَأُ عَنْهَا فِي هَذَا
الْكِتَابِ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ وَتِلْكَ
مَدْرَسَةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ لِتَغَايِرِ تِلْكَ
الصُّورِ الَّتِي أَلْفَهَا النَّاسُ عَنْ هَذِهِ الْوَجْهِ
عَادَةً.

وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّا نَعْتَبِرُ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ وَوَلَادَةً
جَدِيدَةً لِهَذِهِ الْوَجْهِ بِفَضْلِ مَا أُعْطِيَ مِنْ
التَّحْلِيلِ الشَّامِلِ الدَّقِيقِ. الْأَمْرَ الَّذِي يَعْنِي
أَنَّ هَذِهِ الصُّورَ قَدْ تَطَابَقَ - بِالْمَرَّةِ - مَا هُوَ
مَوْجُودٌ فِي طَيِّبَاتِ الْكُتُبِ الْآخَرَى، بَلْ
تَطَابَقَ الْحَقِيقَةُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

مع الهدف الآخر لهذا الكتاب

لقد عانى التشيع - بكلّ مؤسساته - من ظلم فادح و جفوة فضيعة منذ بدأ رحلة الحياة و طوال تاريخه الممتدّ على جسم القرون العديدة المتطاولة حتى أنّك لن تجد مذهباً - في تاريخ المذاهب - عانى من البلاء و المحنة و الحرمان ما عناه هذا المذهبُ.

وربما بلغ ظلم التشيع حدّاً لم يقتصر فيه معارضوه على اللامبالاة و التسيّب في نقل عقائده و أصوله بل و اقتراف جريمة التحريف و نسبة ما ليس منه اليه أحياناً.

بل وقعوا في التخبُّط الذريع بشأن تحديد
وقت ظهوره وتاريخ نشأته حدًّا دفع بهم
إلى الانزلاق في متاهات التخرّصات و
الثُّم افتعال الأكاذيب المُدهِشات.

حقيقةً أنّنا لا نستطيع أن نطلق هذا الحكم
على كلّ علماء السُّنة و مصنِّفيهم و
كُتّابهم و أن نُلقِي باللوم على جميعهم
دونَ استثناء و أن نعتبرهم على الاطلاق
شركاء في هذا التجنّي على التشييع عقيدةً
و تاريخاً.

فربّ كثيرٍ من علماء السُّنة المحقّقين و
محدّثيهم الأفاضل من لم يتجاهل الحقّ و
لم يتنكّر له ولم يسكت عنه متى عرفه و
وقع عليه.

ولعلّ من أفضل الأمثلة على هذا الطراز
المنصّف - في القرن الأخير - هو:
فقيه مصر الكبير، وعلّمتها الراحل
الشيخ «محمود شلتوت» شيخ الجامع
الأزهر - الأسبق - الذي تحدّى في شجاعة
عظيمة رغبة كلّ مُخالفٍ الشيعة داخل
مصرَ و خارجها و أفتى بصراحة تامّة
بجواز التعبد بالمذهب الجعفري الشيعي
و صحّة الأخذ بفقّهِه و كونه مُجزياً
تماماً مثل سائر المذاهب الإسلاميّة
الأربعة من السنّة. يقولُ الشيخ شلتوت
في فتواه الشهيرة:

«إنّ مذهب الجعفريّة المعروف بمذهب
الشيعة الإماميّة الإثنا عشرية مذهبٌ

يجوزُ التعبُّدُ به شرعاً كسائر مذاهب
أهل السنّة فينبغي للمسلمين أن يعرفوا
ذلك و أن يتخلَّصُوا مِنَ العصبية لغير
الحقِّ لمذاهب معيّنة»^١.

بيدَ أنّنا نجد - رغم ذلك كلّه - بين علماء
السنّة و كُتّابها من لا يزالُ ينظرُ إلى
الشيعة بعين غير رضية، و ينظر إلى
مذهبهم و إلى تاريخهم - كذلك - نظرةً
تؤسّفُ كلّ دارسٍ محايدٍ.

في الوقت الذي لم يكن التشييع شيئاً
سوى الإسلام عينه و سوى دثاره و
ردائه و سوى وجهه الحقيقي و الأصل
و لم ينشأ إلا في زمن الرسول صلّى

١ . راجع العدد الثالث من نشرية «رسالة الإسلام» من السنّة ١١ .

الله عليه وآله نفسه واستمرّ بعده و في
حين لم يكن الشيعة سوى ذلك الفريق
-من المهاجرين و الأنصار- الذين والوا
عليّاً و أهل بيته المطهّرين منذ أمرهم
رسول الله صلّى الله عليه وآله بذلك.

ذلك الفريق من الأنصار و المهاجرين
الذين استمرّوا على ولائهم للامام عليّ
عليه السلام و تشيّعهم له و الوقوف إلى
جانبه بعد وفاة الرسول الاكرم صلّى الله
عليه وآله و لم يعترفوا بخلافة غيره و
إمامته من الخلفاء و الأمراء، لأنّهم لم
يعرفوا أحداً أحقّ بالإمامة و أجدر بها و
أقدر على قيادة الأمة و خلافة الرسول
في بيان أحكام الإسلام من حاله إلى

حرامه إلى فرائضه إلى سننه ولا أصلح
ولا أليق من عليّ بن أبي طالب و أبناءه
البررة عليهم السلام.

فصار يُطلقُ على هؤلاء وصف الشيعة،
لأنّهم تشيّعوا لعليّ وشايعوه وتمسّكوا به
بعد الرسول صلى الله عليه وآله بعد أن
كانوا قد أحبّوه و وآلوه في حياة الرسول
العظيم. و ظلّ هذا الوصفُ يُطلقُ على
كلّ من تبع عليّاً إلى الآن.

فتلك خلاصة القضية؛ قضية التشييع
تاريخاً و نشأة، مذهباً و أتباعاً.

و منها يتبيّن أنّ التشييع لم يكن سوى
الإسلام بعينه، و أنّ لفظة التشييع ليست
سوى تعبير عن ذلك الإسلام الأصيل

الذي من أهم أركانه القول بإمامة عليّ
و خلافته للرسول بنصّ منه و إيعاز، و
بخلافة أبنائه الهداة المعصومين كذلك.
و من ثمّ فإنّ أيّة دراسة لتاريخ نشأة
التشيّع معزولاً عن نشأة الإسلام أمرٌ
يبين الحقيقة و لا يجوز مطلقاً و مثله ما
إذا أردنا أن نبحث عن الشيعة في غير
المجتمع الإسلامي.

أليس التشيّع قد وُلِدَ و تَرَغَرَغَ مع
الإسلام و في أحضانه منذُ أيّامه الأولى؟

و أليس التشيّع هو الإسلام ليس إلاّ؟

اذ ليس التشيّع سوى الوقوف إلى جانب
عليّ و إتباعه و ليس الشيعة إلا ذلك
الفريق من الأنصار و المهاجرين الذين

أخذوا أحكام الإسلام من النبي الكريم
في حياته، حتى إذا توفاه الله رجعوا إلى
عليّ و أبناءه بوصفهم أعراف الناس بعد
الرسول - عليّ الاطلاق - بدين الله و
شرائعه و أحكامه و هم لم يفعلوا هذا إلا
إتباعاً لوصية الرسول و أخذاً بأقواله يوم
الدار و غزوة تبوك و واقعة غدير خمّ.
أليس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم
قد نصّ في كلّ المواقف على خلافة
الإمام عليّ بعده، كما هو مثبت في كتب
السيرة و التاريخ و المراجع المعتبرة
عند كلّ الفرق؟

فقد صُرِّحَ - في كلِّ هذه المواقف - بأنَّ
عليّاً خليفته من بعد الرسول و وصيّه
على دينه و إمام المسلمين و مرجعهم
بعد أن يتوفّى الله الرسول و عليٌّ مولا هم
كما الرسول هو مولا هم.

و لذلك فإنّ الشيعة لا تُقيمُ وزناً لأيّ
اجتهادٍ أو رأيٍ إزاء النصّ الالهي، و
الحديث النبوي البالغ في التواتر حدّاً
لا يتحمّل جدلاً، على أساس أنّه «اجتهاد
في مقابل النصّ» و هو مردودٌ على
صاحبه لأنّه مرفوضٌ في منطق الشريعة
لقد أمرَ رسول الله صلى الله عليه وآله في
السنة الثالثة من رسالته، أن يجهر بدعوته
بادئاً بها بعشيرته الأقربين و لذلك دعى

قومه من بني هاشم و قال في جمع منهم
حول عليّ عليه السلام بعد شيء من
الكلام:

«إِنَّ هَذَا أَخِي وَ وَصِيِّي وَ خَلِيفَتِي فِيكُمْ
فَأَسْمِعُوا لَهُ وَ أَطِيعُوهُ».

و قد اصطلح المؤرّخون على تسمية هذا
الحادث بحادث يوم الدار.

ثمّ إنّ الرسول يوم تحرّك إلى غزوة
تبوك، التفت إلى عليّ و قال له: «أَمَا
تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ
مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي».^١

^١ . راجع المصادر التالية: مسند الامام احمد بن حنبل و تاريخ الطبري،
ج ٢، ص ٦٢ و ٣٨٦ و الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤١ و ١٠٩٠.

أما حادثة «غدير خمّ» فهو من الشهرة و الثبوت ما لا نحتاجُ معهما إلى بيان أو استدلال. كيف؟ وهو اليوم الذي قال فيه الرسول صلّى الله عليه وآله و سلّم قولته المشهورة: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ».

هذه الأحاديث و النصوص النبويّة هي التي حَدَّثَتْ بِتلكِ الثَّلةِ مِنْ أَجَلَّةِ صحابة الرسول مِنْ الأنصار و المهاجرين إلى أن يخطبوا طريقاً غير طريق الناس الذين لم يَكْتَرِثُوا بكلِّ هذه النصوص الصريحة القاطعة، و لم يلقوا لها بالاً و كأنّها لم تكن.

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ وَالنُّصُوصَ هِيَ
الَّتِي تُوَكَّدُ وَتُوَيَّدُ مَا قَلَنَاهُ مِنْ أَنَّ التَّشْيِعَ
وَ الشَّيْعَةَ إِنَّهُمَا إِلَّا حَقِيقَتَانِ نَشَأَتَا مَعَ
الْإِسْلَامِ وَ تَرَعَرَعَا فِي حِجْرِهِ وَ ارْتَضَعَا
مِنْ لِبَانِهِ فَلَمْ يَكُونَا شَيْئاً سِوَاهُ وَ لَمْ تَكُنْ
نَشَأَتُهُمَا غَيْرَ نَشَأَتِهِ سِوَاءً بِسِوَاءٍ .

ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ إِيدِيُولُوجِيَّةٌ كَامِلَةٌ، وَ
عَقِيدَةٌ مِتْكَامِلَةٌ اِنْبَثَقَتْ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ
الْكَرِيمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ ظَلَّتْ
تَتَكَامَلُ حَلَقَاتُهَا وَ هُوَ يَبْلُغُهَا إِلَى النَّاسِ
كَمَا يَتَلَقَّاهَا عَنِ الْوَحْيِ تَدْرِيجاً وَ خِلَالَ
ثَلَاثِ وَعِشْرِينَ مِنْ الْأَعْوَامِ، فِي أَمَانَةٍ وَ
حِرْصٍ بِالْغَيْنِ .

و لَمَّا كَانَ الْإِسْلَامَ دِينًا - كَهَذَا - كَامِلًا وَ
عَقِيدَةً - كَهَذِهِ - كَامِلَةً، فَإِنَّ مِنَ الطَّبِيعِيِّ
جَدًّا أَنْ لَا يَكُونَ مَعْتَنُفُهُ مُسْلِمًا حَقِيقِيًّا إِلَّا
إِذَا أَخَذَ بِكَامِلِ هَذَا الدِّينِ دُونَ تَبَعِيضٍ أَوْ
تَجْزِئَةٍ وَدُونَ تَرْقِيعٍ أَوْ تَقْطِيعٍ فِي أَحْكَامِهِ
وَ عَقَائِدِهِ.

وَ حَيْثُ كَانَ الْإِعْتِقَادُ بِإِمَامَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَ
عَلَى رَأْسِهِمُ الْإِمَامُ عَلِيٌّ، وَ خِلَافَتِهِمْ بَعْدَ
الرَّسُولِ، مِمَّا قَالَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ نَصَّ عَلَيْهِ وَ أَكَّدَ فِي الْمَوَاقِفِ
- الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا وَ غَيْرِهَا - حَتَّى عَادَ
مِنْ أَهَمِّ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَ أَصْلَابِ مَهَمِّهِ مِنْ
أَصُولِهِ الَّتِي بَيْنَهَا النَّبِيُّ لِلنَّاسِ أَثْنَاءَ حَيَاتِهِ
الرِّسَالِيَّةِ، فَإِنَّ الشَّيْعَةَ هُمْ كَانُوا أَوَّلَ مَنْ

تمسّكوا بهذا الأصل إلى جانب تمسّكهم
بسائر أصول الإسلام و أوّل من أخذ
بالإسلام كُلاًّ دون تبعضٍ أو تجزئةٍ أو
تقطيع في أركانه و أصوله و أجزاءه في
حين استثنى غيرهم هذا الأصل المهمّ
من أصول الإسلام و نفوه بشدّة و أوّلوه
في غير ما سبب وجيه ترضاه الأنفس
المؤمنة و الضمائر الحرّة.

التشيع و مظالم التاريخ

رغم كلّ الوضوح في مبدأ نشأة التشيع و ظهوره، و أصلاته التاريخية و تجذّره في أعماق التاريخ الإسلامي-كما عرفت- فإنّ ثمة مَنْ وقع في تفسيرات مغلوطه و تخطط عريض في هذا الصدد (نعني مبدأ التشيع و جذوره و تحديد تاريخ ظهوره) فانطلقوا تحت وَطأة أفكارٍ باطلّةٍ و نظرياتٍ لأساسٍ لها يفسّرون ويحدّدون في سلسلةٍ من الأقوال هي أشبهُ بالأقاويل. وفيما يلي نُشيرُ إلى بعض هذه الأقاويل:

التشيّع من صنع اليهودي ابن سبأ؟!!

ولقد كان مُطْلَقوا هذه التهمة -في البداية- فريق من الكُتّاب السُّنِّيِّين المُعْرِضِينَ إِلَّا أَنَّ المُسْتَشْرِقِينَ المُعْرِضِينَ أَيْضاً ورفاقهم اليهود و الزرادشت و غيرهم من خصوم الشيعة، استفادوا منها أكثر من أيِّ فريقٍ آخر.

كما أنّ الاستعمار هو الآخر قد استفاد منها - بشكلٍ فعّالٍ - في تنفيذ خُطّطه و مآربه.

يقول مطلقوا هذه التهمة:

إنّ رجلاً يهوديّاً يُدعى عبدالله بن سبأ - يُعرفُ بابن السوداء - عزّ عليه ما رآه من تقدّم المسلمين و ظهور الإسلام على

الأديان فعزم أن يُسلمَ ظاهراً ليتسنى له أن يكيد بالإسلام من الداخل، فكان له ذلك، حيث استطاع أن ينشأ في صفوف المسلمين فريقاً باسم «السبائية» الذي لم يكن سوى تلفيقٍ من الإسلام و اليهودية و إلا هيكلأ يهودياً إرتدى لباساً إسلامياً. و استطاع بما أحدث من هذا المزيج من عقائد الإسلام و اليهودية و المسيحية أن يؤسس عقيدةً كان من أصولها، القول بإمامة عليّ بعد الرسول بلا فصلٍ و الاعتقاد برجعة الرسول و الأئمة إلى الحياة و القول ببقاء عليّ على قيد الحياة بين السحاب و القول بأنه هو الذي قاد حركة الانقلاب الدموية على عثمان و

أنّه هو الذي كان وراء تحريك أبوذّر
ضدّ عثمان و حكمه!

فكان هذا هو التشييع في منطق هؤلاء و
هذا هو مؤسسهُ الأوّل!

و لا بدّ من القول بأنّ نسبة التشييع إلى
ابن سبأ هي من أكبر وأشنع جنائيات
التاريخ التي ارتكبتها بعض المؤلفين
المغرضين، أولئك الذين أطلقوا هذه
الفرية دونما تحقيق.

و للأسف أن ظلّت هذه الفرية متداولةً
طوال عشرة قرون و مخيّمه بظلالها
على الأذهان.

في حين يرى كلّ من يتتبع كتب الشيعة
و عقائدها و أصولها، إنّ الشيعة كانت
أولّ من تبرّأ من ذلك اليهوديّ الخطر
على فرض أن يكون لذلك اليهوديّ
المتآمر من وجود.

ناهيك عن أنّ المحقّقين الإسلاميين
اعتبروا هذه الشخصية (أي عبد الله بن
سبأ) شخصية خرافية لا وجود لها أساساً
و إنّما ابتدّعها أعداء الشيعة ابتداءً
بهدف نسبة التشييع إليه و ليس إلى
الإسلام.

و قد كان أوّل مَنْ تناولَ هذه القضيةَ
بروح علميّة و موضوعيّة و قال بهذا
الرأي عن برهان و دليل هو الكاتب
المصري الكبير الدكتور طه حسين الذي
قال في كتابه بعد أن أقامَ بعضَ الأدلّة:

«و ما أرى ابن السوداء إلا قصّة
أسطورة حاكتها ضدّ الشيعة خصومها
و ما أكثر ما شنع خصوم الشيعة على
الشيعة»^١.

ألا إنّ أفضل مَنْ أتى بتحقيقٍ دقيقٍ في
هذه القضية، هو صاحب التحقيقات القيّمة
في التاريخ و الحديث العلامة الكبير
الشيخ نجم الدين العسكري.

١ . الفتنة الكبرى، الفصل ١٣، ص ١٣١-١٣٧.

فقد أثبت العلامة العسكري بعد سلسلة طويلة من التحقيقات الواسعة في أعماق التاريخ الإسلامي و الحديث «خرافية ابن سبأ»، كما أثبت كذلك أن تلك الشخصية الأسطورية لم تكن إلا من نسج الكذاب المعروف، الوضاع الكبير سيف بن عمر الذي كان يعيش في القرون الإسلامية الأولى.

و بهذا يتضح أن ابن سبأ الذي اعتبره قائد حركة الانقلاب الدموي على عثمان و مؤسس التشيع، لم يكن سوى شخصية أسطورية مُخترعة لا أساس لها كما قال طه حسين.

كما يتّضح أنّها شخصيّة ابتُدعت عمداً
على أيدي أصحاب المصالح و المنافع
الذين كان انقلاب المدينة على عثمان
مُوجَّهاً ضدّهم بعد أن نعرف أنّ اطلاق
أمثال هذه الأكاذيب هي من عادة
أصحاب المصالح ضدّ أيّ انقلابٍ في
التاريخ.

على أنّ جهود العلماء و المحقّقين في
فضح أسطورة ابن سبأ لم تتوقّف في
الحقيقة، بل تتالت لتؤكد أنّ مخترعها
لم يكن سوى سيف بن عمر التميمي
الكوفي الذي تُوفّي سنة ١٧٠ هجرية.

و لقد كان الطبري المؤرّخ الوحيد الذي
أورد القصة في تاريخه و حصر أسنادها
إلى سيف بن عمر في وقائع سنة ٣٠ إلى
٣٦.

في حين تتفقُ المراجع الرجالية التي
نراجعها على تضييف هذا الرجل و عدم
الوثوق بمرويّاته و أقواله.
فهناك يقالُ عنه:

«سيف بن عمر التميمي ضعيف الحديث
و ضاع، ليس بشيء، عامّة أحاديثه منكر
أُتهم بالزندقة»^١.

^١ . تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ج ٤، ص ٢٩٦.

و الواقع سواء كان عبدُالله بن سبأ
شخصيةً واقعيةً في التاريخ أم شخصيةً
أسطوريةً مُصطنعة لا أساس لها و لا
وجود، فإنّ ما هو مسلمٌ أنّ نسبة التشييع
اليه لا شكّ أكبر تجنّ على المذهب
الشييعي و الشيعةُ لا تتسّع لها مغفرة.

إنّ التشييع الذي كان له منذ عهد الرسول
و حياته الشريفة، اتّباعٌ من الأئمة الهداة
و الصحابة الأبرار و العلماء الأعلام
و الكُتّاب من ذوي التحقيق و كان
لأتباعه قدّم سبقٍ في تأسيس علوم
الإسلام و تشييد المعاهد الكبرى و إقامة
الحكومات الإسلامية على امتداد عهود
التاريخ الإسلامي و أعوامه و ما كان

لهذه الحكومات للإسلام من خدماتٍ
لا تُحدِّد.

إنّ هذا التشييع لا يمكن أن يكون وليدَ
مؤامرة يرتئي بها رجلٌ موهومُ الشخصية
كابن سبأ الكيّد بالإسلام فاذا هو يؤسّسها
و اذا هو ينميها و اذا هو يُلهم افكارها!
كما تقول هذه الفرية المضحكة.

أجل، ابن سبأ هذا الرجل المجهول الذي
لم يكن له شأنٌ و لا ذكرٌ إلا في حوادث
عام ٣٠ - ٣٦ أيّام انقلاب المدينة على
عثمان فيما لا نجدُ له أيّ ذكرٍ بعد ذلك
في حروب صفّين والنهروان و الوقائع
الأخرى التالية.

يبقى أن نعرف أنّ سيل التُّهَم الرخيصة
ضدّ الشيعة - هذا - لم يتوقّف إلى هذا
الحدّ و لِلأسف بل ذهب المُعرضون-في
عصرنا الحاضر- يَخْتَلِقون أنغاماً جديدةً
و كأنّ التهمة السابقة لم تستطع أن تحقّق
كلّ أغراضها، فراحوا هؤولاء يَخْتَلِقون
تُهَمّاً جديدةً و أساطير أخرى حول نشأة
التشيّع مبدأً و تاريخاً. و سنذكر بعضها
فيما يلي باختصار.

تقول هذه التُّهَم الجديدة:

١. التشيّع مذهبٌ ابتدَعَهُ الفُرس انتقاماً
مِن العُرب.

• و هذه تهمةٌ أُطلقها ضدّ الشيعة بعضُ

الكُتّاب المتأخّرين أمثال «غوبينو»

المسيحي و «الأمير شكيب أرسلان» و
الدكتور «روخيم» الأستاذ اليهودي
بجامعة طهران و بعضُ القوميين.

٢. التشيع ظاهرة عاطفية نتجت من
مُصاهرة الإمام حسين بن عليّ سلام
الله عليه لأهل إيران.

. هذه التهمة أطلقها و رَوَّجَهَا الكُتَّابُ
الفرنسيون أكثر من غيرهم و أكدوا عليها
و استثمروها و لا أساس لها.

٣. التشيع من صنع حكومة البويهيين.

٤. التشيع من سياسة حكومة الصفويين.

و غيرها من الأساطير.^١

١. شهسوار اسلام - بالفارسيّة - ص ١٨٩.

و قد كان من الطبيعي أن لا يسكت علماء الشيعة و أعلامهم في كل زمان و مكان على هذه الجنايات الفضيعة على تاريخهم و معتقداتهم.

فقد كانوا بالمرصاد -دائماً- للذين سوّلت لهم أنفسهم التطاول على الشيعة مذهباً و تاريخاً.

فمضوا يدافعون بسلاح العلم و المنطق و التاريخ عن أصالة المذهب الشيعي و أصالة تاريخه.

هذا العرق العريق و المتجذّر في أعماق التاريخ الإسلامي و ذلك المذهب المولود مع الإسلام في أحضانه و المرتضع من لبانه و نخصّ بالذكر من هؤلاء الذين

هبّوا للدفاع عن صرح التشيع - في
العصر الحاضر - الشخصيات الشيعية
الكبرى التالية:

المرحوم السيد محسن الأمين العاملي
المرحوم السيد عبدالحسين شرف الدين
المرحوم الشيخ محمدحسين كاشف الغطاء
و أيضاً أمثال:

المرحوم الشيخ عبدالحسين الأميني
[المرحوم] الشيخ محمدجواد مغنيرة
[المرحوم] الشيخ عبد الله السبيتي

هؤلاء الذين دافعوا - ببسالة و صمود -
عن أصول التشيع و معتقداته و دحضوا
كلّ الشبهات التي لم يفتأ أعداء الشيعة و
خصومهم يكيلونها ضدّهم بكلّ وقاحة.
أجل...

ضدّ الشيعة أقدم طائفة إسلامية عرفها
التاريخ.

كما أنّ هناك من لا يزال في مناطق
مختلفة من العلماء و المفكرين من يُرابط
في خنادق الدفاع عن الشيعة فلا يدعون
فرية إلاّ دحضوها و لا كتاباً يصدر من
بعض كتّاب أهل السنة أو المُستشرقين
من ذوي الأغراض إلاّ وراحوا يُناقشونه
و يُحاكمونه بموضوعية رصينة تبدد كلّ

شُبْهَةٌ وَ تَفْضِيحٌ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الْكُتُبِ
وَ الْأَرَاجِيفِ نَوَايَاهُمْ عَلَى رُئُوسِ الْأَشْهَادِ
إِنَّ هَدَفْنَا الْآخِرَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ هُوَ إِثْبَاتُ
الْأَصَالَةِ التَّارِيخِيَّةِ لِلتَّشْيِيعِ وَالرَّدُّ عَلَى كُلِّ
الشُّبُهَاتِ وَ التُّهَمِ مِنْ غَيْرِ الشِّيْعَةِ الْمَوْجَّهَةِ
ضَدَّ الشِّيْعَةِ وَ مَذْهَبِهِمْ.

وَ قَدْ كُنَّا رَأَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ أَقْوَى الرَّدُودِ
عَلَى هَذِهِ التُّهَمِ، هُوَ أَنْ نُورِدَ أَسْمَاءَ ذَلِكَ
الْفَرِيقِ الْجَلِيلِ مِنَ الصَّحَابَةِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ
صَحَبُوا الرَّسُولَ فَكَانُوا لَهُ خَيْرُ أَنْصَارٍ وَ
أَصْحَابٍ وَ الَّذِينَ وَالَّوَا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ
أَقْرَبُوا لَهُ بِالْإِمَامَةِ الْكُبْرَى وَ الْخِلَافَةِ
الْعَظْمَى بَعْدَ الرَّسُولِ مَبَاشَرَةً فَكَانَتْ
الشَّهَادَةُ لَهُ بِكُلِّ هَذِهِ الْأُمُورِ وَ التَّمَسُّكِ بِهَا

عن وعي و اتّباع للرسول، رمز حياتهم
حتى آخر اللحظات من الحياة.

و إنّما نفعلُ هذا لنُثبت من خلال ذلك أنّ
ظهور الشيعة لعليّ لم يكن - كما ادّعى
المتخرّصون - أمراً متأخراً عن وفاة
الرسول بل كان مع ظهور الإسلام جنباً
إلى جنب و أنّ التشيع بدأ -في الحقيقة -
منذ أيّام الرسالة الأولى تماماً كما أسلفنا
و عرفت، لا كما يذهب المتقولون، لأنّ
بهذا الطريق تُصبح كلّ التّهم و الشبهات
فقاعات تذب و تتبخّر، بعد أن ثبت أنّ
شجرة التشيع غرس فسيلها منذ أن غرس
فسيل الإسلام و شجرته.

بل هما- في الحقيقة - شجرة واحدة تتبع
من جذور واحدة و تُسقى بماءٍ واحدٍ إلا
أنّ لها فروعاً و سيقاناً شتى.

على أنّه لا جواب على الشبهات و التّهم
أقوى من إثبات أصالة الشيعة في التاريخ
الإسلامي و إثبات أنّ الرسول هو أوّل
من غرس فسيلها في القلوب و الأذهان
ثمّ راح يسقيها و يرعاها في عناية و
حرصٍ شديدين.

أقول: لا جواب أقوى و لا ردّ أمّتن من
إثبات هذه الأصالة إثباتاً قائماً على الدليل
الواضح، و مرتكزاً إلى البرهان القاطع
و هو موجودٌ عند الشيعة و الحمد لله.

و لقد كان المرحوم آية الله الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء هو ممّن استخّدم هذا الطريق في كتابه «أصل الشيعة و أصولها» حيث أوردَ هناك -في مَعْرَضِ الرّدِّ على هذا النوع من الشبهات - جملةً من أسماء الصحابة الكرام الذين كانوا شيعةً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامِ.

و قد سبق الشيخ كاشف الغطاء، المرحومُ السَيِّدُ عَلِي خَانِ المَدَنِيِّ؛ مؤلّف الكتاب القِيمِ «الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإماميّة» سبق إلى هذا الأسلوب فألّف كتابه المذكور الذي يضمُّ حياة طائفةٍ من أنصار الرسول الشيعة و لكنّه -وللأسف- لم يوفّق لِإِتْمَامِ مشروعِهِ هذا.

في عام ١٣٦٤ ق خلال مطالعاتي في كتاب «أصل الشيعة» و كُتِبَ أحمد أمين المصري و كتاب «فَجْر الإسلام» خاصّةً و غيرها من مؤلّفات المصريين المعاصرين، وقعتُ على هذه التُّهم و التّقوّلات غير الشريفة فصرتُ في صدد إعطاء إجابة شافية عليها و إثبات أصالة التشييع و وحدته مع الإسلام في الجذور و الأصول و النشأة، بشكلٍ محسوسٍ مقنعٍ.

و ظلّت الفكرةُ تساورُني و تحتلُّ مكاناً في تفكيري ردحاً طويلاً من الزمن دون أحسُّ في نفسي الدافعَ الجدّي إلى تحقيق الفكرة و تحويلها إلى دنيا الواقع حتى إذا

كان عام ١٣٨٥ ق و افتتحت دار التبليغ الإسلامي في مدينة قم و تقرّر إعطاء دروس منتظمة و متنوّعة في العلوم الإسلاميّة منها.

كان من جملة ما بعض العلوم التي تضاءل الاهتمام بها في الحوزات العلميّة الشيعيّة مؤخّراً.

أنيّطت إليّ القاء سلسلة دروس في «علم الرجال» الذي يعني بمعرفة الشخصيات الشيعيّة الكبرى في التاريخ -أشخاصاً و سيراً - إلى جانب مادة العقائد الإسلاميّة و تفسير القرآن.

فكان هذا الأمر فرصة مناسبة - بعد أن صار داعياً ملحاً - لتحقيق ما طالما كنت أتمني تحقيقه و أمّلُ تنفيذه، فتناولت بالدراسة و البحث عن ذلكم الفريق من صحابة النبي العظيم الذي كانوا شيعةً لوصيّه «عليّ» كذلك.

لعلّه يكون من الوفاء الجميل أن أقول: إنَّ أوّل مَنْ عرّفني على علم الرجال و هداني إلى مراجعته المختلفة كان أستاذ العلم و الأدب، العالم الراحل محمّد علي المدرّس مؤلّف كتاب «ريحانة الأدب» الذي كان لي شرف التلمذة على يديه مدّة طويلة و في علوم متعدّدة. رحمه الله و أجزل له الثواب.

فاستطعتُ - بما وُقِّفْتُ له - مِنْ مطالعاتٍ
سابقةٍ واسعةٍ في أحوالِ رجالِ الإسلامِ
الكِبَارِ شِيعَةً أو سُنَّةً، صحابياً أو غيرَ
صحابي و بعد مُراجَعَةِ طائفةٍ كبيرةٍ و
متنوّعةٍ مِنَ المصادرِ أمثالِ الاستيعابِ و
أسدِ الغابةِ و تاريخِ بغدادِ و الإصابةِ و
حليةِ الأولياءِ و رجالِ الكشيِ و فهرستِ
النجاشيِ و رجالِ الطوسيِ و فهرستهِ
و معالمِ العلماءِ و تنقيحِ المقالِ و قاموسِ
الرجالِ و فهرستِ منتجبِ الدينِ و غيرها
مِنْ كتبِ الرجالِ.

استطعتُ أن أهَيِّئَ جدولاً موسَّعاً بأسماءِ
الصحابةِ الشِيعَةِ ثمَّ أعمِدَ إلى ترجمةِ
حياةِ كلِّ واحدٍ مِنْهم و شخصيَّتهِ و

دراستها دارسةً وافيةً شاملةً غير متأخرٍ
عن مراجعة أيِّ كتابٍ كنتُ أحتملُ أن
ينطويَ على معلوماتٍ ما حول الشخصية
التي كنتُ أترجمُها، مهما كانت جزئيةً
و طفيفةً.

و لا أكنتم أنني بعد تدريسي لتراجم
مجموعة من هؤلاء الرجال و بينما كنتُ
أطالعُ ذاتَ يوم كتابَ الفصول المهمة
للعلامة الفقيه المرحوم السيّد شرف الدين
لَفَتَ نظري جدولٌ مطوّلٌ ضمَّ القسمَ
الأكبرَ من صحابة الرسول المتشيعين
لِعَلِّي أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد كان هذا الجدول الموسَّع من حصيلة جهود العلامة السيّد شرف الدين الذي تمنّى - ضمن كتابه ذاك - لو أنّه استطاع أن يكتب في ترجمة هؤلاء الرجال كتاباً مستقلاً.

كما أضاف لو أنّ من أهل العلم من يقوم بهذا الأمر، فيحوزُ قصب السبق دونه و يكتب ما ظلّ يتمناه.

فيكونُ بإعداده هذا الجدول قد أسدى خدمةً إليه و مهّد الطريق ليرفع فيها خطاه.^١

^١ . الفصول المهمّة، الطبعة الخامسة، ص ١٧٩.

أين استُعملت لفظة «الشيعة»؟

لقد وَرَدَت كلمة «الشيعة» في مَوَاضِعٍ عديدةٍ مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ وَ الحَدِيثِ وَ الرِّجَالِ.

و مقصودنا مِنْ لفظة «الشيعة» في هذا الكتاب، إِنَّمَا هو الوصفُ الَّذِي يُطْلَقُ عَلَى الفَرِيقِ الَّذِي كان - وَ ظَلَّ - يَعتَقِدُ بِإِمَامَةِ أميرِ المُؤْمِنينِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ خِلافَتِهِ لِلرَّسُولِ دُونَما فَصَلَّ وَ يَشايِعُهُ وَ يَتابعُهُ.

و لكن قد يُطْلَقُ وَصفُ «الشيعة» عَلَى أولئك الَّذِينَ اشترَكوا في فِتْنَةِ الانقِلابِ عَلَى عِثْمَانَ وَ جَانَبوا عَلِيًّا ضِدَّ معاوية

في مقابل شيعة عثمان و شيعة معاوية
الذين نهضوا لِصالحهما و اتّخذوا
جانبيهما.

و قد يُطلق أيضاً على البعض الذي كان
يودُّ عليّاً و عترته و يحبُّهم و إن لم يكن
يعتقدُ بخلافتهم للرسول بلا فصلٍ.

هذا الفريق الذي كان في مقابل الخوارج
الذين كانوا يعادون عليّاً و يُغضونه
و يُسيئون اليه دائماً.

ولذلك فإننا لانستطيعُ أن نطمئنَّ إلى هذه
اللفظة أينما وردت في حقِّ صحابة
الرسول و أن نعتبرَ هؤلاء من الشيعة
الواقعيين الذين نَعْنِيهم في هذه الدراسة.

اذ ليس مجرد حضور الصحابي في
حروب صفين و الجمل يمكن أن يكون
دليلاً على التشيع بمعناه الخاص.

وقد غفل العلامة السيّد شرف الدين
العاملي رحمه الله في استخراج أسماء
الشيعة من الصحابة عن هذه الناحية
فادرج في جدولته المذكور - آنفاً - رجالاً
لا دليل لنا على تشيعهم الحقيقي و
بالمعنى الذي نقصد.

و كان سبب ذلك هو أنّ العلامة الراحل
اعتبر كلّ من حضر حروب الجمل و
صفين أو أطلق عليه وصف «الشيعي»
شيعيّاً حقيقيّاً بالمعنى الخاصّ و
المُصطلح.

استطعتُ-عبر خمس سنوات- من البحث
المكثّف والتنقيب المتواصل في المراجع
المتعدّدة، أن أُلقي هذه السلسلة من
التراجم الوافية على طلاب الدورة الأولى
و الثانية في دار التبليغ الإسلامي في
سلسلة محاضرات منتظمة.

و قد بقيت هذه الدروس قيد الأوراق
تنتظر يوماً تصدر فيه إلى الناس و تُعمّم
على عامّة القُرّاء في الوقت الذي كان
ثمّة من الراغبين في هذه الدراسات و
التراجم من ظلّوا يُصرّون على
إصدارها في كتابٍ.

و لكن الشواغل كانت تحولُ دون تلبية
هذه الرغبة الملحة.

حتى بدر إلى ذهني أن أضع مسودة هذه
الدراسات تحت تصرف الزميل النبيل
الشيخ مهدي البيشوائي.^١

ليستطيع هو تنسيقها و إعدادها للطبع و
الإخراج.

و لبيّ الزميلُ الكريمُ الطلبَ و بعدُ جهدٍ
مشكورٍ خرج هذا الكتاب إلى النور.

و أنا إذن أشكرُ للشيخ هذه المعونة
الأدبيّة الطيّبة و الجهود الكبيرة التي
بذلها في هذا السبيل.

^١ . و هو كان من أفاضل الحوزة العلميّة و كتّابها الموهوبين المتوفّي
عام ١٤٠٠ ش.

وَأَتَقَدَّمُ إِلَى الْقُرَّاءِ الْأَعزَّاءِ بِالْإِعْتِذَارِ
عَمَّا قَدْ يَجِدُونَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ نَقْصٍ
إِنْ وُجِدَ.

وَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْطَأُ وَلَا يَسْهُوُ وَتَعَالَى

مَدِينَةُ قَمِّ - إِيرَانَ

جَعْفَرُ السَّبْحَانِيِّ

١. كَاتِبُ الْوَحْيِ؛ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ

ليس من المقبول -أبداً- أن نعتقد أن كل ما جاء به العلماء حول قانون الجينات^١ و تأثير البيئة العائليّة على سلوك الفرد و شخصيّته هي أقوالٌ لا أساس لها من الصحّة و لا حظّ لها من الحقيقة، إذ أن من الصحيح -جداً- أن كثيراً من صفات الآباء تنتقل إلى أبنائهم عن طريق الجينات دون مراعاة.

فَعِلْمُ الْجِينَاتِ قَدْ أَثْبَتَ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ بِالشَّوَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ الْقَطْعِيَّةِ، بَيَدِ أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِالصَّحِيحِ مِائَةً بِالمِائَةِ.

١ . «ژن» بالفارسيّة.

فإنّ تأثير عوامل الوراثة و التربية و المحيط العائلي على الفرد هي أمورٌ لا سبيلَ إلى إنكارها.

لكنّ ثمة عاملاً يأتي فوق كلّ ذلك و هو إرادة الفرد نفسه بأن يُصبح صالحاً أو طالحاً و أن يرتفع أو ينخفض.

فكم أنجبت أسرٌ هاويةٌ في قاع السُّقوط - تحت تأثير هذا العامل - رجالاً عظماء

طاوَلوا السحاب بل و عانقوا النجوم؟

وقد كان أبان بطلٌ حديثنا - الآن - واحداً من هؤلاء.

هل سمعتَ بشجرة حنظل تثمر فاكهةً
حلوةً لذيذةً ؟

أو هل سمعتَ بخميلة وردٍ حافلة بالعطر
و اللون تثبت في قلب صحراء الرمل و
الجفاف؟

أو هل يمكن أن يُولدُ النور من رَجْم
الظلام؟

ستقولُ معي: لا، هذا غيرُ ممكن، إنَّه
لَمُستحيل.

و لكنَّكَ ساعةً تقفُ على شاطئ حياة
أبان بن سعيد ستصدِّقُ بأنَّ كلَّ هذا
المستحيل يمكنُ أن يصبح ممكناً في
بعض الأحيان وإنَّ ذلك القانون الطبيعي

لا يَحْكُمُ في كلِّ مكانٍ و على كلِّ شيءٍ
فلكلِّ قاعدةٍ استثناءٌ كما يقولُ المَثَلُ.

أجل، إنّ أبانٍ قد هزءَ بالمستحيل، حينما
حوّلَ هذا المستحيل - في ضوءِ إيمانه
الجَيّاشِ و بحياته العجيبة - أمراً ممكناً.

و إذا أردت أن تعرف كيف أثمرت
شجرة حنظل - عند أبان - فاكهَةٌ حلوةٌ
و كيف أنبتت صحراءُ الجفافِ خميلةً
غنّاء و كيف تولّدَ النورُ من بين أضلاعِ
الظلام؟

إذا أردت كلَّ هذا تعال معي لنتصفّح
سجلاً حياة أبان العظيم نقرأه من الألف
إلى الياء، من الغلاف إلى الغلاف.

مِنَ بَنِي أُمَيَّةَ كَانَ وَالِدَ أَبَانَ، نَعْنِي سَعِيدَ
بَنِ الْعَاصِ.

نَعَمْ، مِّنَ بَنِي أُمَيَّةَ، تِلْكَ الْقَبِيلَةُ الْمَعْرُوفَةُ
بِعَدَائِهَا وَبِحَقْدِهَا الْعَرِيقَ لِبَنِي هَاشِمٍ،
الْعَدَاءُ وَالْحَقْدُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لِيَخْبُؤَ
سَعَارَهُمَا مَعَ الزَّمَنِ.

وَلِهَذَا كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ أَوَّلَ مَنْ نَاهَضُوا
الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَارَضُوا
دَعْوَتَهُ وَانْطَلَقُوا يَزْرَعُونَ الْأَشْوَاكَ وَ
الْعِرَاقِيلَ عَلَى طَرِيقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَحَمَّلَ بَنُو أُمَيَّةَ أَنْ يَرَوْا
النَّبِيَّ تَسْطَعُ مِنْ بَيْوتِ هَاشِمٍ الَّتِي طَالَمَا
حَقَدَتْ عَلَيْهَا بَنُو أُمَيَّةَ وَعَادَتِهَا وَنَازَعَتْهَا
الْمَنَاصِبَ وَالْأَمْجَادَ.

كما لم تكن لتتحمل أن ترى نفسها تطيع
رجلاً من هذا البيت و لو كان نبياً صادقاً
و مُرسلاً مُؤيِّداً بالمعجزات.

و يا لشقاء القلوب تلك و يا للبلادة...

ذات يوم سُئل أبو جهل عن رأيه في ما
سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ،
فقال: تَنازَعْنَا نَحْنُ وَ بنو عبدمناف
الشَّرَفَ، أَطَعْمُوا فَأَطَعَمْنَا وَ حَمَلُوا
فَحَمَلْنَا وَ أَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حتّى اذا
تجادينا على الرِّكَبِ وَ كُنَّا كَفَرَسِي رِهَانٍ
قالوا: مَنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ
فمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذَا؟! وَ اللَّهُ لَا نُؤْمِنُ بِهِ
أَبَدًا وَ لَا نَصَدِّقُهُ^١.

١ . السيرة النبوية، ج ١، ص ٣١٦.

أجل، لم تتحمل بنو أمية أن ترى محمداً
الهاشمي يرفع لواء دين يتهافت عليه
الناس بشوقٍ وإقبالٍ صادقين و
يسترخصون من أجله.

كلّ ذلك الفداء المدهش و التضحية
الغريبة دون أن تمنع الصعوبات من
ازدياد الأتباع الجدد.

من هنا لم يتأخر بنو أمية من إلقاء كل
أثقالهم في ميدان العمل لمنع انتشار
الإسلام و توسع نفوذه في النفوس حتى
أنهم يبلغون في شدة العداة و الأذى حدّاً
يدفع الوحي إلى أن يصفهم بالشجرة
الخبیثة^١.

١ . سورة ابراهيم: ٢٦.

أخو أبان على درب الإيمان

مِنَ الْبَيْتِ الْأُمَوِيِّ هَذَا، كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ؛ وَالِدُ أَبَانَ كَمَا عَرَفْتَ ثُمَّ كَانَ مِنْ أَلَدِّ خُصُومِ الرَّسُولِ وَالْحَاقِدِينَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ كَانَ لَهُ مَنَ الْبَنِينَ ثَلَاثٌ؛ أَبَانُ وَعَمْرٌ وَخَالِدٌ وَكَانَ سَعِيدٌ يَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنَ أَبْنَاءَهُ هَوْلَاءَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَيَلْتَحِقُوا بِرُكْبِهِ، فَذَلِكَ هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَمْ يَكْ يَخْطُرْ لِسَعِيدِ بِيَالٍ.

وَلِذَلِكَ نَجَدُهُ يَصْعَقُ عِنْدَمَا يَبْلُغُهُ إِيْمَانٌ وَوَأَدْيِيهِ خَالِدٌ وَعَمْرٌ بِمُحَمَّدِ الرَّسُولِ الْأَمِينِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَقُومُ قِيَامَتُهُ، حَتَّى لِيَكَادَ أَنْ يُجَنَّ.

و يَمْضِي - في فورة الانزعاج - يُخَطِّطُ
الْخُطَّطَ لِصَرْفِ وَاذْيِهِ الَّذِينَ اسْلَمَا، مِنْ
الدين الذي صبيا اليه - في نظره - و لَمَّا
كان يعلم مسبقاً أَنَّ وَاذْيَهُ لَنْ يُفَارِقَا مَا
أَمَّنَّا بِهِ لِذَلِكَ أَخَذَ يَفَكِّرُ فِي الْإِنْتِقَامِ.

و قرّر طردهما مِنْ منزله، لِأَنَّ أَيَّامَ مِنْ
خُطَّطَهُ لَنْ تُجْدِيَهُ فِي رَدِّ وَاذْيِهِ عَنِ الدِّينِ
الذي اعتنقاه كما أنّها ليست بممكنة
التنفيذ أساساً.

فالأفضل إذن هو الطردُ لِيَذْهَبَا حَيْثُ
يُرِيدَانِ وَ فَعَلَ هَذَا بِالذَّاتِ. فبادر إلى
طرد وَاذْيِهِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَنْزِلِهِ وَ هُوَ
يَحَاوِلُ بِذَلِكَ أَنْ يُطْفِئَ مَرْجِلَ الْحَقْدِ الَّذِي
ظَلَّ يَغْلِي فِي صَدْرِهِ.

و لم يك هذان الولدان بالوحيدين اللذين
يواجهان بسبب إسلامهما ذلك الحرمان
و الجفاء من أقرب الأقرباء بل كان ذلك
شأن أغلب المسلمين الأوائل الذين
واجهوا على أيدي أقربائهم المشركين
شيئاً هائلاً من الضغوط و الأذى
و أنواعاً تقشعراً لها الأبدان من التنكيل
و العذاب.

و من أجل ذلك أمر الرسول المسلمين
بأن يهاجروا إلى أرض الحبشة حيث
الخلاص - بعض الوقت - من أذى
المُشركين و تنكيلهم و تعذيبهم و فعلاً
هاجر ما يزيد عن سبعين رجلاً و امرأة
من المسلمين إلى الحبشة.

و كان وَاذا سعيد هذان الطريدان مع تلك
الثلة المهاجرة بأجسامها و إسلامها من
فتنة المشركين أولياء الشيطان في مكة.
و هناك في الحبشة مكث خالد و عمر
مع من مكثوا، ردها من الزمن، بعيداً
عن تهديد أبيهم و ضغطه و زجره.^١

^١ . الدرجات الرفيعة، ص ٣٩٢؛ الإصابة، ج ١، ص ٢٤.

اللقاء البنّاء

أمّا أبان، الذي كان لعلّه قد تَأَثَّرَ بكلمات أبيه ضدّ الرسول و مَوْقِفِهِ المعادي من رسالته أكثر من أخويه أو لعلّه كان يهابُ أبيه أكثر من شَقِيْقِيْهِ...

أمّا أبان هذا، فإنّه لَمَنْ يَجْرُوُ تحت هذه العوامل على التفتيش حول الدين الجديد و التحقيق في أمره.

إلّا أنّ حادثاً صغيراً حَدَثَ في حياته غير منه مَجْرَى تفكيره و بدّل منطلقاته...

وَ كَأَنَّهُ كانَ معه على موعدٍ لِيَفْتَحَ لَهُ صفحةً جديدةً في حياته.

فماذا هذا الحادث؟

في إحدى أسفاره التجارية إلى الشام
التقى أبان براهبٍ مسيحيٍّ كان قد قرأ
كتب الأديان و الأولين و خَبَرَ بما فيها
من تنبؤات حول أحداث المستقبل.

فدار بين أبان و الراهب هذا الحوار:

أبان: إني رجلٌ من قريش و إنَّ رجلاً
منا خرج فينا يزعمُ أنه رسول الله مثلما
أرسل موسى و عيسى.

الراهب: ما اسمُ صاحبكم؟

أبان: محمد.

الراهب: فاني أصفه لك.

فذكر صفة النبي صلى الله عليه وآله و سنَّه
و نسبَه.

أبان: هو كذلك.

الراهب: وَاللَّهِ لَيُظْهِرَنَّ عَلَى الْعَرَبِ ثُمَّ
لَيُظْهِرَنَّ عَلَى الْأَرْضِ.

ثمّ أضاف الراهب قائلاً:

إِقْرَأْ عَلَى الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنِّي السَّلَامَ.^١
و كانت الحادثةُ حادثةً صغيرةً عابرةً
و لكن رُبَّ حادثةٍ صغيرةٍ سرعانَ ما
تُصبحُ مصدرَ تحوّلٍ عظيمٍ في حياة
المرءِ و مبعثَ طوفانٍ في كيانه.

١ . أسد الغابة، ج ١، ص ٣٦.

ذلك أنّ مَثَل هذه الحوادث الصغار، مَثَل الشرارات الصغيرة، ما أن تَشْتَعَلَ بقرب خزان بارودٍ ضخمٍ إلا و تُصْبِح له مبعث انفجارٍ هائلٍ و كبيرٍ.

ثمّ أنّ الأنفُسَ المُهيَّأة للتغيير سرعانَ ما تنطلقُ إلى آفاق التغيير مع أوّل دغدغةٍ حقٍّ أو ومضة نورٍ و هكذا فَعَلَتْ حادثةُ اللقاء بالراهب الحكيم فعلتها مع أبان فقد مَدَّت تلك الحادثةُ الصغيرةُ في الظاهر شريطاً من النور إلى داخل نفسِ أبان المُهيَّأة للتحرك و الانقلاب و الطوفان هنالك تململُ الشوق - إلى الإسلام - في قلب أبان، و أخذَ يُحسُّ بدافعٍ يدفعُه إلى الرسول و إلى دعوته المباركة.

فأبانُ الآن ليس أبانَ أمس، إنّه ليس فقط
لم يشعر بعدُ بحقدِ على الرسول بل هو
يُحسُّ بميلٍ متعاضم نحوّه و شوقٍ إليه.

إنَّ أبانَ الذي كان حتى الأمس القريب
يعاتب أخويه على إسلامهما و ربما
هجاهما بشعره، هو الآن يُحسُّ أنّ لومه
و عتابه ذلك، كان خطأً في خطأ.

بل إنَّ الخطأ الأكبر كان في تخلفه عن
اللاحق بشقيقه في الانضمام إلى موكب
النور.

إنّه ليس مستعدّاً -الآن- أن يهجو الرسول
كما كان بالأمس يهجوّه بالشعر، بل هو
يتحسّن الفرض لينظم إلى صفّه و ينخرطُ
في أتباعه الطيبين.

ثمّ هو الآن يَسْتَطِيعُ أن يتحقّق في أمر
الرسول و أمر دعوته، بِحُرِّيَّةٍ و دون
وَجَلِّ.

فأبؤه لم يَعُدْ على قيد الحياة الآن لِيَمْنَعَهُ
مِن هذا الأمر أو ليخشاه.

فقد مات أبوه في مكانٍ يُدعى بالظريية
و هي ناحية من نواحي الطائف فأتاح
بِموته لأبّان حُرِّيَّةً أَكْثَرَ.

الاستقبال الساخن

قد حَلَّتِ السَّنَةُ الثَّامِنَةُ للهجرة... .

و خَرَجَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ، بِصَحْبَةِ جَمْعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَاجًّا بَيْتَ اللَّهِ بِمَكَّةَ حَتَّى إِذَا وَصَلُوا إِلَى أَرْضِ حُدَيْبِيَّةٍ وَعَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِمَقْدَمِ الرَّسُولِ، سَارَعَتْ إِلَى مَنْعِهِ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ لِلْحَجِّ، حَفَاطًا عَلَى كِبْرِيَاءِهَا.

أَرْسَلَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ مَنْدُوبًا مِنْ قَبْلِ النَّبِيِّ لِيُفَاوِضَ قُرَيْشًا هُنَاكَ فِي مَكَّةَ.

و لَكِنْ حُرَّاسٌ مَدَخَلَ مَكَّةَ مَنَعُوا مِنْ دُخُولِ عَثْمَانَ إِلَى مَكَّةَ وَهُنَا، كَانَتْ أُولَى خَطْوَةٍ عَلَى طَرِيقِ الْهُدَى مِنْ أَبَانَ، أَبَانَ

الذي ظلّ - منذُ أن التقي بالراهب و سمع
منه ما سمع - يعيشُ تشوّقاً إلى الرسول
و دينه و أتباعه.

فقد كانَ أبان هذا (الذي كان لم يزل حتى
إذ بينَ أهل مكّة) حاضراً ساعة أرادَ
عثمان دخول مكّة فمُنِعَ، فاذا به يسمحُ
لعثمان بالدخول و هو ينشد هذا البيت:

أَسْبِلْ وَأَقْبِلْ و لَا تَخَفْ أَحَدًا

بَنُو سَعِيدٍ أَعِزَّةُ الْحَرَمِ^١

ثمَّ يحملُ عثماناً على فرسه و يدخله إلى
مكّة و هو يقولُ له:

«أَسْلُكُ مِنْ مَكَّةَ حَيْثُ شِئْتَ آمِنًا»^٢.

١ . الإصابة، ج ١، ص ١٦٩.

٢ . المصدر السابق، ص ٢٤؛ أسد الغابة، ج ١، ص ٣٦.

رسالة إلى أبان

و عاد الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَ كَانَ مَهَاجِرًا
الْحَبِشَةَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ بَلَّغَهُمْ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ
أَقَامَ دَوْلَتَهُ وَ أَنَّ عَهْدَ الْأَضْطِّهَادِ قَدْ وُلِيَ
إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ وَلِذَلِكَ تَوَجَّهُوا إِلَى الْمَدِينَةِ.
وَ لَقَدْ كَانَ خَالِدٌ وَ عَمْرُو شَقِيقًا أَبَانَ مِنْ
هَذَا الْفَرِيقِ الْمَهَاجِرِ - كَمَا قُلْنَا - وَ الَّذِي
عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَ فِي الْمَدِينَةِ سَمِعَ شَقِيقًا
أَبَانَ بِمَوْقِفِهِ الْجَدِيدِ نَحْوَ الْإِسْلَامِ فَكَاتَبَاهُ
يَدْعُوَانَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَ أَجَابَ أَبَانَ مِنْ فُورِهِ وَ التَّحَقَّقَ بِالْمُسْلِمِينَ
- قُبَيْلَ حَرْبِ خَيْبَرَ - بِقَلِيلٍ.

رجل السيف و القلم

و سرعانَ ما أظهر أبان من نفسه أنه
يَنطوي على استعدادٍ عظيمٍ و قابليّة
كبيرة.

و سرعانَ ما أظهر أنه يَسطيعُ أن
يتحمّل - تحت لواء الإسلام -المسئوليات
الجسيمة و الخطيرة و أن يؤدّيها على
أفضل الوجوه.

و لقد كان النبي العظيم يعرفُ من أبان
ذلك و لذلك كلفه بقيادة إحدى السرايا
التي ابتعثها لإخماد تمرّد في نجد، إلا أن
أبان لم يكن رجلاً نظامياً عارفاً بالحرب

فقط بل كان يمتلك ذكاءً متوقّداً و درايةً خاصةً في الأمور.

كما أنّه كان وراء كلّ ذلك يمتازُ بميزة أخرى كان يفقدها كثيرٌ من أصحاب الرسول.

ألا وهي معرفته القراءة و الكتابة.
و لعلّك تعجب أن نُعدّ مثل هذا الأمر
ميزةً لأبّان يُحسبُ لها حساب.

ولكن عجبك هذا سرعان ما يزول اذا
عرفت بأنّه لم يكن عدد الذين كانوا
يعرفون الكتابة والقراءة يوم كان رسول
الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بمكّة يتجاوزُ

سبعة عشر شخصاً، كان أبان أحدهم
حسب ما اتفق عليه أهل التاريخ.^١

أبان؛ أميراً على البحرين

بعد هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ
المسلمين إلى المدينة، أخذ نفوذ الإسلام
في التوسّع و راحت مناطق جديدة تنضمُّ
إلى رقعة الدولة الإسلاميّة.

و لقد كان الرسول القائد حازماً جداً
و دقيقاً-كذلك-في اختيار وُلاته و مندوبيه
لأنّ مندوبيه و ولاته كانوا يمثلون - في
الحقيقة - نماذج حيّة من صنائع التربية
الإسلاميّة.

^١ . فتوح البلدان للبلاذري، ص ٤٥٩.

إضافةً إلى أنّهم كانوا يُجسّدون الإسلام
لِأولئك المسلمين الجُدُد الذين كان يبعثُ
اليهم الرسول الكريم بمندوبيه و وُلّاته.

مِن هنا كان أيّ انحرافٍ في سلوكهم
أمراً ما كان لتتسع له مغفرةٌ أو يُغضَّ
عنه طرفٌ.

و كان البحرين من بين المناطق التي
قبلت الدعوة الإسلامية، فأرسلَ النبيّ
لإمارتها علاءَ بنَ الحضرمي.

ولكنّ علاءَ -هذا- عزل بعد حينٍ لِأمرٍ ما
فمَن ترى يصلحُ لِإمرة البحرين بعد علاء
غير أبان؟ و فعلاً نصب الرسول أباناً
أميراً على البحرين.

و بقي أبان في الإمارة في تلك المنطقة حتى يوم جاء خبر وفاة الرسول الكريم. ثم دون أن يُستدعى من قِبَل الحُكُومَة المركزيَّة، غادرَ البحرين إلى المدينة تاركاً وراءه الإمارة بلا أمير و لم ينفع معه إلحاح الخليفة آنذاك في محاولة إعادته إلى حيث كان، مواصلاً إمارته. فقد قال أبان في جوابه: «لا أعمل لأحدٍ بعد رسول الله»

أجل، كان أبان أرفع من أن يتقبَّل إمارةً كذلك، تحت بريق المال و المطامع. و اذا نراه يرضى بإمارةٍ نَصَبَه الرسولُ فيها فإنَّما يقبلُها خدمةً للمجتمع و أداءً لدين الأخلاق و الدين.

أَمَّا عِنْدَمَا يَرَىٰ أَنَّ الَّذِينَ يَمْلَأُونَ مَسْنَدَ
الْحَكْمِ لَا يَصْلِحُونَ لَهُ فَانَّهُ يَرْفُضُ - بِكُلِّ
صِرَاحَةٍ - أَيَّ عَرَضٍ بِتَحْمُلِ الْإِمَارَةِ
يُعْرَضُ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أبان لا يُقرّ خلافة أبي بكر

لقد كان أبان يعتقد أنّ الرجل الوحيد الذي يصلح لقيادة الأمة و إدارة شؤونها على أفضل السُّبُل إنّما هو امير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام لا سواه.

فهو الرجل الوحيد الذي يعرف - بشكل أفضل - ما أتى به الرسول كما هو الأقدَر من سواه على تطبيق منهج الرسول و شريعته.

من هنا رفض أن يمدّ البيعة إلى أبي بكر و ظلت عيونه معلقة بالبيت الهاشمي

ليتبعهم أينما ذهبوا فها هو و أخوه يأتیان
إلى بني هاشم و يقولان:

إنكم لطوال الشجر طيِّبوا الثمر و نحن
تَبَعُ لكم.^١

أمّا عندما يبايغ بنو هاشم أبابكر - انطلاقاً
من بعض الاعتبارات - يبايغ الأخوان؛
خالد و أبان.^٢

و أبان في الوقت الذي لم يك فيه راضياً
عن تصدّي أبي بكر للخلافة، لأنّه كان
يرأها لغيره.

و لذلك يرفض عرض البقاء في إمارة
البحرين من طرفه - إلا أنّه نجده رغم

١ . معالم المدرستين، ج ١، ص ١٣٣؛ أسد الغابة، ج ٢، ص ٨٤.

٢ . أسد الغابة، ج ٣، ص ٤٧٤.

ذلك - لا يتخلف عن التعاون معه ساعة
كان يرى أنّ حاجة المجتمع الإسلامي
تقتضي ذلك.

لأنّ عليّاً عليه السلام وغيره من شيعته
ما كانوا - كذلك - يتخلفون عن تقديم
بعض العون و المشورة إلى خلفاء
عصرهم.

و لهذا فإنّ أباناً يذهب إلى اليمن، حينما
يقترح عليه أبو بكر ذلك للنظر في حادث
قتلٍ وقع هناك.

أبان في مسند القضاء

و عندما قابل أبانُ، القاتلَ هناك في اليمن
سأله: أ قتلتَ رجلاً مسلماً؟

فقال القاتل: انما قتلته ثأراً لأبي و عمي
الذين قتلهما قبل الإسلام.

فقال أبان: إن رسول الله صلى الله عليه وآله
قد وضع كل دم كان في الجاهلية، فمن
أحدث في الإسلام حدثاً أخذناه به.^١

ثم قال أبان للقاتل: ألحق بالخليفة - في
المدينة- و أنا أكتبُ له إنني قضيت بينكما

١ . الإصابة، ج ١، ص ٣٧٠؛ تاريخ دمشق، ج ٦، ص ١٢٧.

فلَمَّا بلغ الخليفة ما قَضَى به، أمضاه و
أَيِّده.^١

و لقد ظلَّ أبان - بعد الرسول - يشتركُ
في المعارك و يُكافحُ في جَبَهِات القتال
كأيِّ جُنديٍّ مجاهدٍ حتى استُشهد أخيراً
في شهر رجب من العام ١٥ للهجرة
في رقعةٍ باليرموك من أرض الشام.
هو قد ضرب بحياته مثلاً لا يُنسى من
الثبات على الحقِّ و النضال من أجله
حتى الشهادة.

فسلامٌ عليه و سلامٌ على الذين هَدَاهم الله
فاستقاموا على الطريق.

١ . الإصابة، ج ١، ص ٢٥.

٢ . المعلم الكبير للقرآن، أبي بن كعب

هَلَاكَ أَصْحَابُ الْعُقَدَةِ وَ رَبِّ الْكَعْبَةِ...

وَاللَّهِ مَا عَلَيْهِمْ آسِي...

وَلَكِنْ آسِي عَلَى مَنْ أَهْلَكُوا...

وَاللَّهِ لِنَنْ أَبْقَانِي اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ...

لَأَقُومَنَّ مَقَاماً أَتَكَلَّمُ فِيهِ بِمَا أَعْلَمُ...

فُقُتِلْتُ أَوْ اسْتُخِيبْتُ...

وَجَاءَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْمَوْعُودِ...

الْأَسْمَاعُ تَنْتَظِرُ...

تَنْتَظِرُ أَنْ تَسْمَعَ الْحَقَائِقَ الَّتِي وُعِدَتْ بِهَا
و لکن هیہات... ہیہات...

فقد مات يومَ الخميس و انتظرت الأسماع
في صحابة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
يُوجَهُ المرءُ وَجوهًا مَخْتَلِفَةً الهُويَّةَ؛
الأسود و الأبيض، الشريف و العبد،
الشابّ و الشيخ.

رجالٌ كانوا يعبدون الأوثان، و بعض
كان يدين بدين المسيحيَّة و آخرون كانوا
يدينون بدين اليهود.

هكذا وجوهٌ متنوّعةٌ و ملامحٌ مختلفةٌ بيْدَ
أَنَّا قَلِيلًا مَا نجدُ بين هؤلاء مَنْ سبق، أن

كانوا قبلَ الإسلام علماء أديان أو رُهبان
صوامع.

و أبيّ بن كعب من هذا القبيل القليل...
أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد
بن معاوية بن عمرو بن مالك النجار.
عدّه الطوسي في رجاله بهذا العنوان من
أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله
و قال: يكنى أبا المنذر.

شهد العقبة مع السبعين و بايع لرسول الله
و أخى الرسول صلّى الله عليه و آله بينه
و بين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.
شهد بدرأ...

فقد كان أبي بن كعب - قبل أن يعتنق الإسلام - واحداً من علماء اليهود و أبحارها، أحاط بالتوراة والإنجيل و كل كتب يهود علماء - أي علم - و عرف من بشارات هذه الكتب حول نبي الإسلام، الكثير الكثير...

لذلك ما أن سطعت أنوار الإسلام على ربوع يثرب (المدينة) و دخل دين محمد في بعض أحياءها على يد مندوب النبي مصعب الذي حلّ بالمدينة ليبلغ عن الإسلام و يعلم الناس الدين و يدعوهم إلى شريعة سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله.

أقول: ما أن دخل مصعبُ المدينةَ إلا و
سارع اليه أبيّ بن كعب واعتنق الإسلام
على بصيرةٍ كاملةٍ و وعيٍ كاملٍ و دون
أن يكون قد شهد النبيّ أو قابله وجهاً
لوجهٍ... حتى ذلك الحين!

وفي البيعة الثانية التي بايعَ فيها أكثرُ من
سبعين من ناس المدينة مع الرسول كان
أبيّ هذا أحدَ المبايعين.

و اذا كان أبيّ يُعدُّ من كبار علماء اليهود
قبل الإسلام فسرعانَ ما أصبح كذلك بعد
الإسلام أيضاً، حيثُ حازَ في ظلِّ الدين
الحنيف و تعاليمه الرفيعة على مكانة
سامقة في العلم و المعرفة بحيث لَمَّا دَخَلَ
رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ الْمَدِينَةَ

كان أبيّ أوّل مَنْ اتَّخَذَ مَكَاناً بَيْنَ كُتَّابِ
الوحي مِنَ الأنصار.^١

أجل...

لقد كان طبيعياً لأبيّ الذي كان يتمنّع
بقابليّة فكريّة عظيمةٍ و إمام بكتب
السماء و مسائل الدين و البشائر التي
جاءت بها تلكم الكتب بما فيها البشارات
بظهور الإسلام.

لقد كان طبيعياً أن يصيب تلك المنزلة
في ظلّ الإسلام و يصيب تلك النجاحات

١ . الإصابة، ج ١، ص ١٣١؛ الدرجات الرفيعة، ص ٣٢٤.

الكبيرة في مجال التملّي من معالم الدين
و التشبّع بعلومه و معارفه و أن تكون
له في كلّ خطوات جديدة على طريق
الكمال و الترقّي...

على أن الله قد أتاح له من ساعدٍ على
تفجير طاقاته و تصعيد قدراته و قابليّاته
و منحة من المقام ما استطاع به أن
يحرز على شخصيّته عالميّة تبقى ما بقي
القرآن و تخلد ما خلدت آياته الباهرات.

أليس كان أبيّ بن كعب معلّم القرآن و
من خيرة القراء دون منازع؟

لقد استطاع أبيّ في ظلّ العناية الربانيّة
و في ظلّ مواهبه و ذكاء المتوقّد التي

أثبتها في تعلّمه لكتاب الله و الفصاحة
التي أبدأها من نفسها، لقد استطاع بكلّ
هذا أن يحتلّ مثل هذه المكانة الشاهقة
والمحلّ الرفيع.

و الطريف أنّ كلّ هذا لم يبدأ بسببٍ من
عند نفسه أوّل الأمر و إنّما الرسول هو
الذي اقترح في البدء.

فقد تلقى الرسول الكريم أمراً سماوياً
خاصّاً بأن يقرأ على أبيّ، القرآن و لم
يكذ أبيّ ليصدق بادي ذي بدءٍ أنّه بهذه
المنزلة عند الله؛ مولاه الحقّ.

و لذلك راح يقول مستغرباً عندما أخبره
الرسول بالأمر قائلاً: «أمرتُ أن أقرأ
عَلَيْكَ الْقُرْآنَ»، فقال أبيّ: أ اللهُ سَمَّاني؟

فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «نعم» .
فما كان من أبيِّ إلا أن بكى لِفِرطِ شوقه
و سروره و انتابته رعدة تأثر و لِكَي
يهدأ و يسكنَ قرأ عليه النبيُّ هذه الآية:
قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا
هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ^١

و لم يكن أبيِّ لِيَجْهَلَ حَقَّ معلّمه الأكبر؛
رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .
فقد اقتضى الأدبُ الإسلامي منه أن لا
يغفلَ عن فضل النبيِّ في هدايته و
إرشاده و تزكياته و تعليمه .

^١ . سورة يونس: ٥٨ .

و لهذا نجدُ عندما يبلغُه النبيُّ بالأمر
الإلهي السماوي، ذلك يقول أبيّ في أدبٍ
رفيعٍ و عرفانٍ للحقّ:

«بالله آمنْتُ و على يدك أسلمتُ و منك
تعلمتُ»^١.

أجل...

لقد بلغ أبيّ في قراءة القرآن و استيعابه،
بفضل تعليم الرسول الكريم له حدًّا حدى
بعمر بن الخطّاب - برغم ما كان بينه و
بين أبيّ من توترٍ و فتور - أن يقول في
حقّ أبيّ: أقضانا عليّ و أقرؤنا أبيّ و إنّنا
لنتركُ أشياء من قراءة أبيّ.^٢

١ . حلية الأولياء، ج ١، ص ٢٥١؛ الدرجات الرفيعة، ص ٣٢٤.

٢ . الاستيعاب، في هامش الإصابة، ج ١، ص ٢٩.

و بالطبع يمكن هنا أن نحدس متى كان
عمر لا يأخذ بقراءة أبيّ.

أمّا الإمام الصادق عليه السلام فيقولُ
حول قراءة أبيّ: «أمّا نحن فنقرأ على
قراءة أبيّ»^١

قلنا: إنّ أبيّاً تلقى القراءة الكاملة و
الصحيحة من النبيّ الكريم و ها هنا
ينطرح سؤال:

إنّنا نجد في كتب التفسير، أحاديث كثيرة
نُقلت عن أبيّ حول فضائل السُّور
تحدّث عن مثوبات هائلة قد لا تنطبق
على المقاييس العقلية.

١ . الدرجات الرفيعة ، ص ٣٢٤ .

فهل هذه الأحاديث من الصحّة بحيث
يمكن الاعتماد عليها؟

وهل نقلها أبيّ عن لسان الرسول العظيم
أو سمعها منه - حقاً - أم أنّها لا أساس
لها من الصحّة؟

لا شكّ في أنّ الإجابة على هذا السؤال
في غاية الصعوبة.

بيد أنّنا يجب أن لا نغفل عن أمرٍ واحدٍ
وهو:

أنّه ليس في مقدورنا أن نُنكر أنّ عهداً
قد مرّت بالإسلام أراد بعض الجهلاء
من محبّيه، أن يدفعوا الناس فيها إلى
مداولة القرآن و قراءته و مُدارسته،
فانطلقوا هم ينسجون أحاديث تتحدّث عن

المثوبات الهائلة لكلّ من يقرأ سُوراً
معينة و هم يظنّون بأنّهم يُسدون بذلك
إلى القرآن يداً مشكورة و هم يظنّون بأنّ
أحاديثهم هذه سوف تدفع الناس إلى
قراءة القرآن و الإقبال عليه.^١

أبيّ و دفاع عن القرآن أبداً

ليس من شكّ في أنّ القرآن «المتداول»
اليوم بين المسلمين هو نفسه الذي تنزل
من الله تعالى على رسوله محمّد صلى
الله عليه وآله بحذافيره و هو الذي خلفه
الرسول الكريم في أمّته، عند يوم قال

١ . اللؤلؤ و المرجان للنوري، ص ١٣٣ .

قُبَيْلَ وفاته: «إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ
كِتَابَ اللَّهِ وَ عَثْرَتِي»

ولا شكَّ -كذلك- في أنّ أيّ قولٍ بتحريف
الكتاب العزيز، هو كلامٌ لا أساسَ له و
ليس بحكم العقل و النقل سوى أسطورة
من نسيج الخيال.

فأبى بحكم أنّه قد وعى القراءة الكاملة و
الصحيحة للقرآن و تلقّاها من شفّتي
الرسول صلّى الله عليه وآله، كان أبداً
يُراقِبُ و يُتَابِعُ بحرصٍ، كيلا يقع في
الكتاب العزيز أيّ تحريف فيما يعودُ إلى
النصّ - و إن كان فيما يعودُ إلى التفسير
وقع بعضُ التحريف - كيلا تمتدّ إليه أيّة

يَدِ أَثِيمَةٍ تَطْمَحُ إِلَى تَحْقِيقِ أَغْرَاضِهَا مِنْ
خِلَالِ الْقُرْآنِ فَتُغَيَّرُ أَوْ تُبَدَّلُ.

فِي كُلِّ حَيَاتِهِ بَعْدَ الرَّسُولِ ظَلَّ أَبِي هَكَذَا
يِرَاقِبُ بِعِنَايَةٍ كُلَّ ذَلِكَ لِيَبْقَى النِّصُّ
الْقُرْآنِي الْمَنْزَلُ مَصُونًا مِنْ عِبَثِ الْعَابِثِينَ
وَ تَحْرِيفِ الْمُحَرِّفِينَ، وَ مِنْ الزِّيَادَةِ وَ
النَّقْصَانِ.

نَمُودَجًا مُبَرَّرًا

فِي عَهْدِ خِلَافَةِ عَثْمَانَ يَوْمَ كَانَتْ أَمْوَالُ
بَيْتِ الْمَالِ لِلْمُسْلِمِينَ تُنْفَقُ - بِلا حِسَابٍ -
فِي مَصَالِحِ الْخَلِيفَةِ وَ مَصَالِحِ حَاشِيَتِهِ وَ
أَنْصَارِهِ وَ يَوْمَ كَانَ الْخَلِيفَةُ وَ أَنْصَارُهُ
يَكْتَنِزُونَ الْمَالِيَيْنِ مِنَ الدَّرَاهِمِ وَ الدَّنَانِيرِ

مِنَ أَمْوَالِ الْأُمَّةِ فِي خَزَائِنِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ
بِطَرِيقَةٍ لَا تَنْطَبِقُ وَرُوحَ الْإِسْلَامِ فِي
سِيَاسَةِ الْمَالِ وَ لَا تَتَرَكِزُ عَلَى أَيِّ دَلِيلٍ
فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَهَضَ فَرِيقٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
الْمُجَاهِدِينَ - وَ فِي مَقَدِّمَتِهِمْ أَبُو ذَرٍّ النَّصِيرِ
الْكَبِيرِ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ - فِي وَجْهِ عَثْمَانَ
وَ اعْتَرَضُوا عَلَيْهِ بِشِدَّةٍ، أَعْمَالَهُ الْمَخَالَفَةَ
لِلْإِسْلَامِ وَ أَعْمَالَ أَنْصَارِهِ الَّذِينَ رَفَعَهُمْ
عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَ
ضُحَاهَا وَ فِي الْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ مِنْ صَفْوَةِ
الصَّحَابَةِ وَ خِيَارِ الْأُمَّةِ مَا لَا يَعْدُونَ...
اعْتَرَضُوا عَلَيْهِ مَذْهَبَهُ فِي اِكْتِنَازِ أَمْوَالِ
الْمُسْلِمِينَ دُونَ مَا حَقِّ، رَافِعِينَ فِي وَجْهِهِ
الْآيَةَ الَّتِي تَقُولُ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ
بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ
هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْنُزُونَ.^١

و كان طبيعياً أن تشمل هذه الآية عثمان
و حاشيته، فهل غير عثمان و حاشيته
اكتنز أموال الأمة و حجزها و منع أن

١ . سورة التوبة: ٣٤ و ٣٥ .

تُصْرَفُ تِلْكَ الْأَمْوَالُ الطَّائِلَةُ فِي حَوَائِجِهَا
وَأَنْ يَصِلَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ؟

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ طَبِيعِيًّا - كَذَلِكَ - أَنْ
يَنْتَظِرَ عَثْمَانُ وَزُمْرَتُهُ «الْعَذَابَ الْأَلِيمَ».

وَلِذَلِكَ ارْتَبَكَ عَثْمَانُ وَعَشِيرَتَهُ تَجَاهَ
هَذَا الْمَنْطِقِ الصَّاعِقِ الْحَقِّ وَالْإِعْتِرَاضِ
الْمَفْجَمِ وَرَاحُوا يُفْتِشُونَ عَمَّا يَبْرَأُونَ بِهِ
سَاحَتِهِمْ وَ لَمْ يَجِدُوا وَسِيلَةً لَذَلِكَ إِلَّا أَنْ
يَبَدِّلُوا فِي الْقُرْآنِ (وَيَا لِلْهَوْلِ!).

فَادَّعُوا أَنَّ ذِيلَ الْآيَةِ لَا يَرْتَبُطُ إِلَّا بِأَهْلِ
الْكِتَابِ وَ أَحْبَارِهِمْ وَ رَهْبَانِهِمْ وَ لِإِعْلَاقَةٍ
لَهُ بِالْمُسْلِمِينَ!

وَلَكِنْ كَانَ مِنْ أَوْضَحِ الْوَاضِحَاتِ أَنَّ
الْآيَةَ لَا تَقْبَلُ تَأْوِيلًا وَ تَفْسِيرًا كَهَذَا، لِأَنَّ

ذيل الآية و هو «الذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ
وَ الفِضَّةَ» قد عُطِفَ عَلَى مَقْدَمَةِ الآية و
هو «كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَ الرَّهْبَانِ» بواو
العطف، و لذلك فإنّ احتمال أن يكون
الذيل مرتبباً بأهل الكتاب دون سواهم،
لم يكن وارداً قطعاً.

جعفر الهادي:

على أساس أنّ دخول الواو العاطفة على
شيء يكشف عن أنّ الوارد بعد الواو
هو شيءٌ جديدٌ يختلف عن ما قبلها يعني
المعطوف عليه و إلاّ لما كان للواو أيّ
محلّ.

لأنّ الشيء لا يُعطفُ على نفسه و عطفه
على نفسه، لَحْنٌ أو قبيحٌ أو غلطٌ
موهومٌ أو محالٌ مستحيلٌ.

و أيضاً لمعلومية أنّ الصفة لا تلحق
بالموصوف بالواو العاطفة، لأنّ الواو
يشير إلى موضوع منفصلٍ و جديدٍ و
لذلك ادّعوا ما ادّعوه. انتهى

فالأية إذن لا تُشيرُ إلى حكمٍ اختصاصيٍّ
بل هي تُشيرُ - بوضوحٍ تامٍّ - إلى حكمٍ
شاملٍ يعمّ كلّ الناس، كلّ أولئك الذين
يكنزون الذهب و الفضة و لا يُنفقونها
في سبيل الله، سواء هم كانوا المسلميين
أو غير المسلمين من أهل الكتاب و لكن

الخليفة و رفاقه -لكي يربطوا هذا الجزء
من الآية بأهل الكتاب - اعتبروا الجزء
وصفاً لأهل الكتاب.

فادّعوا أنّ الآية نزلت - أوّل ما نزلت -
و لا واو عاطفة فيها! و بهذا تكون جزء
«الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ» وَ صفاً
لأهل الكتاب و الأحرار و الرهبان الذين
سَبَقَ عنهم الحديث في مطلع الآية فقط
و ليست جملةً منفصلةً و كلاماً مستقلاً
ليعمّ المسلمين كذلك!

• و لقد كان واضحاً أنّ هذا الحمل، كان
نوعاً من التحريف في كتاب الله و نوعاً
من العبث بقانون الإسلام و قدس أقداسه

إن لم يُردَع في أوانه، لأنذر بعبثٍ في القرآن أكبر حجماً و أشدّ خطراً.

و لأصبح مصدر تلاعب كلّ من تسوّل له نفسه أن يحقق أغراضه تحت قناع الدين و الشرعيّة و مظلة التحريف.

من هنا نجدُ ألياً يتحرّك للدفاع عن حرم القرآن و ينزعجُ من هذه الظاهرة الخطرة بشدّة و يصرخ في وجه الخليفة.

كقذيفة غاضباً قائلاً في تهديده:

لَتَلْحَقَنَّهَا أَوْ لِأَضَعَنَّ سَيْفِي عَلَى عَاتِقِي^١

و هو يريدُ بأنّه لا بدّ أن تعودَ الواو العاطفة إلى مكانها أو ليتوسّل إلى ذلك

١ . الدرّ المنثور للسيوطي، ج ٣، ص ٢٣٢.

بسلح القوة و يضطرّ عثمان إلى إعادة
الواو إلى محلّها و تهدأ العاصفة.

أبيّ بن كعب؛ موسوعة قرآنيّة

لم يكن أبيّ بن كعب أستاذاً بارعاً في
قراءة القرآن فحسب، بل كان عالماً في
فهمه للقرآن و درك معانيه و لطائفه و
دقائقه كذلك.

فقد كان أبي مزوداً بفهمٍ مُضاءٍ و إدراكٍ
نيرٍ و ذائقةٍ علميّةٍ رائعةٍ إلى درجةٍ
جَعَلَتْهُ يَفْهَمُ حَقَائِقَ الْقُرْآنِ، و يستوعبُها
كاملاً و يَتَذَوِّقُ فصاحةَ آياته و بلاغةَ
بيانه و هي حاجات لا تتأتّى إلا مع ذوقٍ
رفيعٍ و حاسّةٍ نَفّاذةٍ و بصيرةٍ واسعةٍ
بفنون البلاغة و الأدب.

حقيقةً أنّه قد يكونُ في مقدور مَنْ لَهُ
بعض الإمام بقواعد العربية و أفانينها
أن يفهم ما تعنيه ظواهرُ الكلمات و
الآيات في كتاب الله الخالد.

و لكن هذا القدر من الإمام لن يُسَعِفَ
المرءَ في تذوّق حقائق القرآن العُلّيا و

مفاهيمه العميقة، إنّما كلّ ذلك من حظّ
الذين وهبهم الله حاسة نقّاذة و ذوقاً رفيعاً
رقيقاً دقيقاً، فاستطاعوا بهما و بسعيهم
الدائب لاكتشاف الحقيقة أن يتذوّقوا ما
في القرآن و يعرفوا من القرآن طبيعته
الخاصّة و منهجه الخاصّ.

و لقد كان أبيّ من هذا النفر الموهوب
ذوقاً رقيقاً و حاسة نقّاذة، فأعانه ذلك
على أن يدرس القرآن بدقّة و يسبر
أغواره بنجاح.

فها هو الرسول الكريم صلّى الله عليه
وآله يختبر تلميذه أبيّاً ذات مرّة...

يَخْتَبِرُ خَبْرَتَهُ بِالْقُرْآنِ الَّذِي سَبَقَ لَهُ أَنْ
أَمَرَ بِتَعْلِيمِهِ أَيَّاهُ خَصِيصاً وَكَانَ اخْتِبَارُهُ
رَائِعاً وَمُفِيداً.

فَقَدْ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَبِيّاً
قَائِلاً: «أَبَا الْمُنْذِرِ! أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
أَعْظَمُ؟»

وَيَأْتِي الْجَوَابُ الْمَتِينُ مِنْ أَبِيِّ:
«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» وَ يَعْنِي
آيَةَ الْكَرْسِيِّ وَ هِيَ الْآيَةُ ٢٥٥ مِنْ سُورَةِ
الْبَقَرَةِ. فَيَقُولُ لَهُ الرَّسُولُ الْمَعْلَمُ:
«لِيَهْنِكَ (لِيُهَنَّكَ) الْعِلْمُ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ».^١

١ . حلية الأولياء، ج ١، ص ٢٥٠؛ كنز العمال، ج ٢، ص ٣٠٣؛ الاستيعاب،
ج ١، ص ٦٧؛ المستدرک للحاکم النیشابوری، ج ٣، ص ٣٠٤.

أَيُّ: لِيَكُنِ الْعِلْمُ هَنِيئًا لَكَ.

تأمل و نظر

بالرغم من أنّ أغلب الناس يتصوّرون أنّ آية الكرسي هي مجموعة الآيات الثلاث؛ من قوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» إلى قوله: «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

و الصحيح: إنّ آية الكرسي ليست سوى
آية واحدة و هي التي تضمُّ على كلمة
«الْكُرْسِيِّ» فقط و التي تَخْتَمُّ بقوله:
«وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ»

ثمّ إنّ الآيات القرآنيّة حيث إنّها تتفاوتُ
من حيث البلاغة و زخارة المعاني و
الصور و إنّ كان يربطها جميعاً إطارٌ
واحدٌ و هو الإعجاز.

فإنّ هذه الآية تَمَيِّزُ حقاً بين الآيات - من
قبلها و من بعدها - كما يَتَمَيِّزُ البَدْرُ بين
النجوم، بحيث لو لم يكن في القرآن آيةٌ

سواها، لَكَفَتْ دليلاً على الوحي و على
نبوة الرسول للبشر بها.

انتهى

أبي؛ فهم للقرآن لا يجور

و أيضاً لم يكن كل ما فعله أبي هو
وضع الإصبع على المواضيع الهامة في
الكتاب العزيز و كشف القناع عن
لطائفه و حقائقه، بل لطالما استتبط من
آياته العظيمة، تعاليم الإسلام و أحكامه

- كَلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ - وَ دَعَى
الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْإِخْذِ بِمَا يَسْتَنْبِطُ.

و فِيمَا يَلِي نَلَفْتُ نَظَرَ الْقَارِئِ إِلَى نَمُودَجٍ
مِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.

بَعْدَ غِيَابِ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَأَلِهِ شَهِدَ الْمَجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ فِي الْمَدِينَةِ
انْشِقَاقاً ذَرِيعاً فِي الرَّأْيِ وَ خِيَّمَتْ عَلَى
الْمَجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ الْمَوْحِدِ حَتَّى الْأَمْسِ
ظِلَالُ اخْتِلَافِ مُكْفَهَرٍ، إِذَا كَانَ يَقْدِرُ لَهُ
أَنْ يَسْتَمِرَّ، لَكَانَ إِذَنْ يَنْذِرُ بِمُسْتَقْبَلِ أَشَدِّ
اِكْفَهَرَارٍ لِلْأُمَّةِ وَ الدِّينِ مَعاً.

وَ كَانَ طَبِيعِيّاً لِمِثْلِ كَعْبٍ أَنْ يَتَأَثَّرَ مِنْ
هَذَا الَّذِي حَدَثَ فِي صِفِّ الْمُسْلِمِينَ وَ
أَرَءَاهُمْ وَ يَعْتَصِرُهُ الْحُزْنَ وَ الْمَأْسَاءُ.

كما كان طبيعياً أن يتخوّف من مغبة هذا الاختلاف، فلا يستطيع أن يكتّم مخاوفه و اذن به ينطلق يحذّر المسلمين مغبة الفتنة و عاقبة الانشقاق، مذكّراً إياهم بما جاء في القرآن - في هذا الصدد - هنالك حيث يقرأ عليهم قول الله قرآناً:

«هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا
مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ
شِيْعًا وَ يُدِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ»^١.

ثمّ يقول مضيفاً:

هنّ أربع و كلّهنّ عذاب و كلّهنّ واقع لا
محالة فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله
صلّى الله عليه وآله بخمس و عشرين سنة

^١ . سورة الأنعام: ٦٥ .

فالبسوا شِيْعاً و ذاق بعضهم بأسَ بعض
و بقي ثنتان.^١

و هكذا كان أبي دائماً يَسْتَلْهُمُ مِنَ الْقُرْآنِ
ضوءَ عيشه و عبرةَ حياته و يدعو
المسلمين إلى ذلك أيضاً.

فاذا أتاه شخصٌ ذاتَ يومٍ و طَلَبَ مِنْهُ
عِظَةً يَسْتَنْيرُ بِهَا، أَجَابَهُ أَبِي بِقَوْلِهِ:

إِتَّخِذْ كِتَابَ اللَّهِ إِمَاماً و ارْضَ بِهِ قَاضِياً و
حَكَمًا، فَإِنَّهُ الَّذِي اسْتَخْلَفَهُ فِيكُمْ رَسُولُكُمْ،
شَفِيعٌ مَطَاعٌ، و شَاهِدٌ لَا يُتَّهَمُ، فِيهِ ذِكْرُكُمْ
و ذِكْرُ مَنْ قَبْلَكُمْ و حُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ و
خَبْرُكُمْ و خَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ.^٢

١ . حلية الأولياء، ج ١، ص ٢٥٣.

٢ . المصدر السابق؛ سِيرَ أَعْلَامِ النَبَلَاءِ، ج ١، ص ٣٩٣؛ تَذَكْرَةُ الْحَفَازِ،
ج ١، ص ١٧.

ترى آية عظةٍ يمكنُ أن تكون أفضل و
أشمل و أجدى و أهدى و أنفع و أجمع
من هذه؟

أيّ طريقٍ أنفعٍ من أن يستلهم الإنسانُ
من القرآن ضوء حياته و دواء دائه؟
و أمّا نظرتَه الأخلاقية

حقاً كما يفعلُ القرآن بالقلوب، لقد فعل
القرآن بأبيّ، فقد أعطاه زخماً من الرؤى
الهادية، قل إن تجدُ مثيلاً عند غيره.

و لقد أعطاه القرآن فيما أعطاه رؤيةً
مشرقةً إلى الحياة، فاذا هو يستلهم من
القرآن كلماتٍ حكيمةً يرسلها شموعاً
تضيئُ و تضيئُ...

حتى أنها تصلح أن تبعث النور و الدّفء
في كلّ زمان و في كلّ مكان.

إِسْتَمِعَ اليه و هُوَ يَتَحَدَّثُ عن ملامح
الشخصيّة المؤمنة: المؤمن بين أربع:

إن أُبْتُلِيَ، صَبَرَ

إن أُعْطِيَ، شَكَرَ

إن قَالَ، صَدَقَ

إن حَكَمَ، عَدَلَ^١

يقول أيضاً:

١ . حلية الأولياء، ج ١، ص ٢٥٥.

مَا مِنْ عَبْدٍ تَرَكَ شَيْئاً لَلَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا
أَبَدَلَهُ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَحْتَسِبُ.^١

أَبِي وَ أَحْدَاثُ سَقِيْفَةِ

بُعِيدَ رَحِيلَ النَّبِيِّ الْأَمِينِ إِلَى الرَّفِيقِ
الْأَعْلَى، أَدَارَ أَصْحَابِ السَّقِيْفَةِ الْأَمْرَ
نَحْوَهُمْ بِبِرَاعَةِ مُحْكَمَةٍ وَ تَدْبِيرِ مَسْبُوقٍ،
فَنَصَبُوا أَبَا بَكْرٍ عَلِيًّا أَنَّهُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ
عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي بَيْعَةِ مَحْسُوبَةِ مَبِيَّتَةٍ.
فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَنْزَاحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ

١ . المصدر السابق، ص ٢٥٣ .

مَسْرَحِ الخِلافةِ و الحُكْمِ و هو بِاعترافِ
الجميعِ قاطبةً أفضلُ الأُمَّةِ لها و أجدرُ
المسلمينَ بها.

و لقد أحدثَ هذا الأمرُ انشقاقاً عميقاً في
صفوفِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ الواحدة... .

فريقٌ إلى جانبِ أبي بكرٍ بحكمِ السقيفة... .

و فريقٌ إلى جانبِ أميرِ المؤمنينِ الإمامِ
عليٍّ بحكمِ نصِّ الرسولِ عليه بالخِلافةِ.

فماذا كانَ دورُ أبيِّ بنِ كعبٍ عندَ هذا
المفترقِ الصعبِ؟

لا شكَّ أنَّ أباَّ الذي كانَ حزيناً جداً لما
يشهدهُ من انشقاقِ وبيئٍ في الصَّفِّ
الإسلاميِّ و انحرافِ المسلمينَ عن

الوصيِّ الحقيقيِّ للرسول المنصوص
عليه.

و لذلك كان يقولُ: كُنَّا مع رسول الله
صلى الله عليه وآله، وجوهنا واحدة حتى
فارقنا فاختلفت وجوهنا يميناَ و شمالاً.^١

لقد كان أبيّ مع الذين كانوا يوالون علياً
و أهل بيته المطهّرين و يحزنُ بعمقٍ لما
يصيبُهم بعد وفات النبيّ صلى الله عليه
وآله من أذى و ظلمٍ و عنتٍ و جفوةٍ
على أيدي الأمة التي لقيت هُداها عندهم
بعد طول ضلال و ضياع كرامة.

١ . المصدر السابق، ص ٢٥٤.

إذا هو في ذلك العصر - و هو يمرّ على
حلقة من حلقات الأنصار - فيسأله
أنصاريٌّ من أين مجيئك؟

فيجيب أبيّ: من عند أهل بيت رسول الله
صلّى الله عليه وآله.

قال الأنصاري:

كيف تركتهم و ما حالهم؟

فيجيبُ أبيّ: و كيف تكونُ حالُ قومٍ كان
بيتهم إلى اليوم موطنَ جبرئيل و منزل
رسول الله ربّ العالمين و قد زال اليوم
ذلك و ذهب حكمهم عنهم.

ثمّ بكى أبيّ و بكى الحاضرون.^١

١ . المصدر السابق، ص ٣٢٥.

استيضاح الخليفة

أبيّ بن كعب لم يُبايع أبابكر قط، لأنّه اعتبر قرار السقيفة قراراً لا قيمة له.^١

و كان أبوبكر و فريقه يظنون أنّ الزمن سيحسم الأمر لصالحهم و أنّ الناس - كعادتهم - سينسون مع الأيام كلّ الذي حدث، رغماً عنهم و دون رضئٍ من رجال تلك الأمة و أهل الحلّ و العقد فيها

^١ . الفصول المهمّة، ص ١٨٠ .

إِلَّا أَنَّ الْأَيَّامَ أُثْبِتَتْ عَكْسَ ذَلِكَ، فَأُثْبِتُ
الْمُسْتَقْبَلَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ لَيْسَتْ فَقَطْ لَا يُمْكِنُ
أَنْ تَنْسَى بَلْ سَتَنْتَسِعُ شَقَّةَ الْخِلَافِ يَوْمًا
بَعْدَ يَوْمٍ...

فَقَدْ عَزَمَ جَمْعَ مَنْ صَحَابَةَ الرَّسُولِ مِنْذُ
أَيَّامِهَا الْأُولَى، الذَّهَابَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَ
الْإِعْتِرَاضَ عَلَيْهِ وَاسْتِيضَاحَهُ حَوْلَ مَا
تَمَّ وَجَرَى.

هُؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ هُمْ: خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ
الْعَاصِ، سَلْمَانَ الْفَارَسِيِّ، أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ
الْمَقْدَادِيُّ بْنُ الْأَسْوَدِ، عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، بَرِيدَةُ
الْأَسْلَمِيَّةُ، أَبُو هَيْثَمُ بْنُ التَّيْهَانِ، خَزِيمَةُ بْنُ
ثَابِتٍ، أَبِي بَنِي كَعْبٍ، أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ
عُثْمَانُ وَ أَخُوهُ سَهْلٌ وَ أَدَا حَنِيفٌ.

و قد عدّ الصدوق في خصاله، عبدالله بن مسعود أحد هؤلاء و لم يذكر عن ولدي حنيف (عثمان و سهل) إلا واحداً^١.

و إثر هذا التصميم و القرار، دخل هذا الجمع على أبي بكر و هو على المنبر يخطب في الناس.

و دار بينهم و بين الخليفة نقاشٌ طويلٌ اعترضوا فيه على أبي بكر ضمن حجاج حادّ و مُثير تسنمه مسند الخلافة و طالبوه بالتّحّي عنها وإرجاعها إلى عليّ بن أبي طالب امير المؤمنين عليه السلام.

^١ . رجال المامقاني، ج ١، ص ١٩٨؛ الاحتجاج للطبرسي، ص ٤٧ من الطبعة القديمة بالنجف الأشرف.

و كان أبيُّ أحدَ هذه الثلثة المعترضه
الإثني عشره من أجله صحابه الرسول
و خيار أُمَّته.

فعندما بلغ الدور إلى أبي بن كعب، ألقى
على الأسماع من آلاف المسلمين الذين
أشربت أعناقهم تنتظر ما سيقوله سيّد
القرّاء.

أجل..

ألقى أبي على تلك الأسماع المتعطّشه
هذه الكلمات الساخنة الملهبة معبراً بها
عن حقّ عليّ في الأمر دون سواه.

قال أبيّ:

يا أبا بكر! لا تَجْحَدُ حَقًّا جعله الله لغيرك
ولا تكن أول من عصى رسول الله صلى
الله عليه وآله في وصيّه و أول من صدّف
عن أمره.

رُدَّ الحقّ إلى أهله تسلّم و لا تتماذى في
غيّك فتندم، و بادِرُ الإنابة يخفّ وزرُك
و لا تخصص بهذا الأمر الذي لم يجعله
الله لك نفسك فتلقى وبال عمالك.

فمن قليلٍ تفارق ما أنت فيه و تصير إلى
ربّك فيسألك عمّا جنيت و ما ربّك بظلام
للعبيد»^١.

١ . الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص ٥٠.

و إنَّكَ لَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْدِسَ بِالْآثَارِ الْعَمِيقَةِ
الْبَعِيدَةِ الَّتِي تَرَكْتَهَا كَلِمَاتُ أَبِي الَّتِي أَعْلَنَ
فِيهَا عَنِ الْإِنْحِرَافِ الَّذِي وَقَعَ فِي مَسِيرِ
الْخِلاَفَةِ بَانزِيَاحِهَا عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ
السَّلَامِ الْخَلِيفَةِ الشَّرْعِيِّ الْوَحِيدِ لِلنَّبِيِّ إِلَى
غَيْرِهِ مَمَّنْ لَا مَكَانَ لَهُ هُنَاكَ عَلَى مَسْنَدِ
الْحُكْمِ.

كَمَا وَ إِنَّكَ لَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْدِرَ مَدَى
الضَّعْفِ الَّتِي أَحْدَثْتَهَا تِلْكَ الْكَلِمَاتِ
الصَّاعِقَةِ فِي خِلاَفَةِ أَبِي بَكْرٍ كَذَلِكَ.

إِلَّا أَنْ أَيْبَاءَ لَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا الْقَدْرِ مِنْ
الْإِعْتِرَاضِ الْجَرِيءِ وَالسَّاخِنِ وَالْحَقِّ.
بَلْ رَاحَ يَنْتَقِذُ الْخَلِيفَةَ ضَمْنَ كَلِمَاتٍ أَشَدَّ
سَخُونَةً وَ أَكْثَرَ تَفْصِيلاً وَ فِي جَمْعٍ آخَرَ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ قَدْ اجْتَمَعَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ
مِنَ شَهْرِ رَمَضَانَ.

هَنَالِكَ فِي ذَلِكَ الْاجْتِمَاعِ الَّذِي ضَمَّ حَشْدًا
كَبِيرًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ، نَهَضَ
أَبِي بَعْدَ أَنْ تَمَّ أَبُو بَكْرٍ خُطْبَةً لَهُ، فَالْقَى
عَلَى الْجُمُوعِ هَذِهِ الْخُطْبَةَ الْحَامِيَةَ:

يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَرْضَاةَ
اللَّهِ وَأَتَيْتُمُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ فِي الْقُرْآنِ!

وَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ
الْإِيمَانَ وَ أَتَيْتُمُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ فِي الْقُرْآنِ!

تَنَاسَيْتُمْ أَمْ نَسَيْتُمْ؟

أَمْ بَدَّلْتُمْ أَمْ غَيَّرْتُمْ؟

أَمْ خَذَلْتُمْ أَمْ عَجَزْتُمْ؟

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَامَ فِيْنَا مَقَامًا
أَقَامَ فِيهِ عَلِيًّا فَقَالَ:

«مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ وَ مَنْ
كُنْتُ نَبِيَّهُ فَعَلِيٌّ أَمِيرُهُ»؟

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:

«يَا عَلِيُّ أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ
مُوسَى، طَاعَتُكَ وَاجِبَةٌ عَلَيَّ مَنْ بَعْدِي
كَطَاعَتِي فِي حَيَاتِي، غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ
بَعْدِي»؟

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:

«أَوْصِيكُمْ بِأَهْلِ بَيْتِي خَيْرًا فَقَدِمُوهُمْ وَ لَا
تَقَدِّمُوهُمْ وَ أَمِّرُوهُمْ وَ لَا تَأْمُرُوا عَلَيْهِمْ»؟

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:
«أَهْلُ بَيْتِي مَنَارُ الْهُدَى وَالدَّالُّونَ عَلَيَّ
اللَّهُ»؟

أَو لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِعَلِيِّ:
«أَنْتَ الْهَادِي لِمَنْ ضَلَّ»؟

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:
«عَلِيٌّ الْمُخَيَّبِيُّ لِسُنَّتِي وَ مُعَلِّمُ أُمَّتِي وَ
الْقَائِمُ بِحُجَّتِي وَ خَيْرُ مَنْ أَخْلَفَ مِنْ بَعْدِي
وَ سَيِّدُ أَهْلِ بَيْتِي وَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»؟
وَ قَالَ: «طَاعَتُهُ كَطَاعَتِي عَلَى أُمَّتِي».

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ مَنزِلُهُمَا فِي
وَاحِدًا وَ ارْتِحَالُهُمَا وَاحِدًا وَ أَمْرُهُمَا
وَاحِدًا؟

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَمْ يُوَلِّ عَلِيَّ عَلِيٍّ أَحَدًا
مِنْكُمْ وَوَلَّاهُ فِي كُلِّ غَيْبَتِهِ عَلَيْكُمْ؟
أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:
«إِذَا غَيْبْتُ فَخَافْتُ عَلَيْكُمْ عَلِيًّا، فَقَدْ خَافْتُ
فِيكُمْ رَجُلًا كَنَفْسِي».^١

و هكذا ظلَّ أبايَّ يعدد في تلك الخطبة
الحامية مناقب عليٍّ عليه السلام وفضائله
و خصائصه واحدة واحدة و يدافع عن
الإمام دفاعاً مشرفاً يندر له نظير.

^١ . المصدر السابق.

و لقد كانت خطبته من السخونة و العنف
بحيث أثارت عبدالرحمن بن عوف و
ابو عبدة الجراح و هُما من لاعبي
مَسرحية السقيفة و مدبريها.

فقاما اليه و اعترضاً كلامه و رمياه
بالجنون و الخبل.

و لكن دون أن يُؤثراً على صلابته و
موقفه الجريء ذاك، حيث ردّهما
بجواب مفحم ثم مضى يستمرُّ في
ارسال حِممه و قذائفه.

و يواصلُ خطبته معدداً فيها صفحاتٍ
جديدةً و أسطراً أخرى من مناقب مولى
المتّقين امير المؤمنين علي عليه السلام و
فضائله الزاهرة و اختصاصاته الغرّة.

إِنَّ أُبَيًّا كَانَ يَعْلَمُ - عِلْمَ الْيَقِينِ - بِمَدَى
الضَّرَرِ الَّذِي يَكْمُنُ فِي انْحِرَافِ الْخِلَافَةِ
عَنْ قُطْبِ رِحَاهَا الْأَصِيلِ عَلَيَّ سَلَامَ اللَّهِ
عَلَيْهِ إِلَى عُنَاصِرٍ غَيْرِ مَهْيَأَةٍ أُسَاسًا لَهَا
وَلَا قَادِرَةٍ عَلَيَّ تَحْمَلُ أَمَانَتَهَا بِجِدَارَةٍ.

وَكَانَ يَعْلَمُ مَدَى مَا سَيَجْرُهُ هَذَا الشَّدْوُذُ
الْقِيَادِي مِنْ وَيَلَاتٍ لَا حُدُودَ لَهَا، وَلِذَلِكَ
فَلَمْ يَأَلْ جَهْدًا فِي إِظْهَارِ وَجْهِ الْحَقِّ وَ
تَنْبِيهِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَقِيقَةِ الْحَالِ وَ
تَحْذِيرِهِمْ مِنْ مَغْبَةِ الْأَنْسِجَامِ مَعَ ذَلِكَ
الْانْحِرَافِ.

كُلُّ ذَلِكَ فِي شَجَاعَةِ رَائِدَةٍ وَصِرَاحَةٍ لَا
نَجْدُ لَهَا مَثِيلًا.

و إنَّكَ لَتَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ عَلَيَّ مَزِيدٌ مِّنْ
أَبْعَادٍ مَّوْقِفِ أَبِي الْعَاصِفِ إِذَا قَرَأْتَ هَذِهِ
الْقِصَّةَ:

يقول قيس بن عباد:

قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ لِلِقَاءِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ أَحَبَّ
إِلَيَّ مِنْ لِقَاءِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ.

فَقُمْتُ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ فَخَرَجَ أَبِي، فَلَمَّا
صَلَّى حَدَّثَ.

فَمَا رَأَيْتُ الرَّجَالَ مَتَحَتِ أَعْنَاقُهَا إِلَيَّ
شَيْءٍ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ.

فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:

هَلَاكَ أَهْلُ الْعِقْدَةِ (أَيُّ كِبَارِ الْأُمَّةِ) وَ رَبِّ
الْكَعْبَةِ، قَالَهَا ثَلَاثًا.

ثُمَّ قَالَ:

هَلَكُوا وَ أَهْلَكُوا، أَمَا إِنِّي لَا آسِي عَلَيْهِمْ وَ
لَكِنِّي آسِي (وَ أَحْزَنُ) عَلَى مَنْ يَهْلِكُونَ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ (أَيُّ بِسَبَبِ انْحِرَافِهِمْ عَنِ
أَهْلِ الْبَيْتِ الطَّاهِرِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ).^١

إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْتَقِدِ أَبَابَكْرَ فَقَطْ - شَأْنُ
الَّذِينَ لَمْ يَتَغَيَّرْ نَظَرُهُمْ إِلَى الْحَقِّ - فَقَدْ
كَانَ ذَلِكَ مَوْقِفَهُ مِنَ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَهُ

١ . حلية الأولياء، ج ١، ص ٢٥١.

-كذلك - و كانوا أكثر أخطاءً منه و أبعد
عن الحقّ سبيلاً.

فقد كان ينتقدهم أبيّ بصراحة تامّة
و يكشف عن مفسدهم.

فها هو عندما يسأله سائل ذات يوم عن
رأيه في الوضع في خلافة عثمان يقول:
هناك أهل العقدة و ربّ الكعبة، أما والله
ما عليهم آسي و لكن آسي على من
أضلّوا.

ثمّ يضيف قائلاً: والله لئن أبقاني الله إلى
يوم الجمعة لأقومنّ مقاماً أتكلّم فيه أعلم
و إن قُتلتُ أو استُحييتُ^١.

١ . بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٣٦، من الطبعة القديمة.

ولكن داعي الموت لم يمهل ألباً ليقول
الذي كان يريد أن يقول...

فقد تُوفِّيَ يومَ الخميسِ من ذلك الأسبوع
بالذات و طوى بغيا به صفحة نادرة من
أعظم صفحات الدفاع عن الحقّ و
الصمود في ذلك.

أجل...

لقد غاب أبيّ بعد جهاد بطولي مشرف
في سبيل الله و كان غيابه في عام ٣٠ أو
٣١ أيّام خلافة عثمان.^١

و كان غياب أبيّ ليغيب معه عالمٌ زاخر
من الفهم و النباهة و العلم و الشجاعة و
المواقف الصامدة.

ولكن اذا غاب جسده الطاهر في التراب
فقد طارت روحه من قبل إلى المحلّ
الأعلى...

إلى جنّة الفردوس...

^١ . قاموس الرجال، ج ١، ص ٥٠.

٣. مؤسس الفقه و الحديث في الشيعة؛ أبو رافع

ذهب بعض علماء الرجال إلى إطلاق اسم «إبراهيم» عليه و آخرون ضبطوا اسمه «أسلم» معتبرين «أبي رافع» كنيةً له. في كلِّ المعارك الإسلامية إلا بدر اشترك بسيفه و زنده.

فقد عاش مع الحرب ردحاً طويلاً من الزمن و لطالما صارع الأبطال و نازل من العرب صناديدها.

و لكنه - رغم كلِّ ذلك - فقد قطع شوطاً آخر من حياته على دروب المعرفة و في موكب الجهاد العلمي.

فقد تلقى من النبي الأعمم صلى الله عليه
وآله وجهاً لوجهٍ و من الإمام عليّ عليه
السلام فما لسمع أموراً و حقائق فدونها
و أخرجها في كتاب فكان بذلك أول من
دوّن الفقه و الحديث عند الشيعة.

إنّ أهميّة ما فعله إنّما تكمن في أنّه صنّع
شيئاً كانت أجهزة الخلافة آنذاك تُعارضه
وتُطارده وتُعاقبُ عليه بقسوة.

فهذا عمر كان قد أعلن على رؤوس
المسلمين- ضمن قرار مشدّد بمنع تدوين
الحديث-قائلاً: ألا فمن كتّب عن رسول الله
حديثاً فليُخرقنه!

قد تصيبُ الشهرة و يصيبُ المجدُ أسرةً
من الأسر بسبب ما يسطع عند فرد من
أفرادها من النبوغ و العظمة.

فاذا بذلك النبوغ الشخصي و إذا بتلك
العظمة تصبحُ مبعثُ مجدٍ كبيرٍ و شهرةٍ
طائرةٍ لأسرته أو قبيلته،

حتى لتظلَّ تُعرَفُ تلك العائلة أو القبيلة
باسم صاحب مجدها - الأوّل و مؤسس
فخرها - الأصيل ... ذاك.

ولقد كان أبو رافع يُعتبر رائدُ عائلةٍ جليّةٍ
و رفيعة الشأن، تشعبت منها بيوتاتٌ
و عوائلٌ عريقةٌ في التشيع، أصيلةٌ في
الولاء ظلّت تُعرَفُ ببيت أبي رافع و كان
لها نصيبٌ من الشهرة تُحسدُ عليها.

فها هو «بيت أبي رافع» يتألق في سماء التاريخ الشيعي.

ذلك البيت كالذي كان شطراً كبيراً من الزمان مَصنوعاً غنيّاً، قدّم نخبةً مجيدةً من أبطال العلم و فرسان المعرفة و جهابذة الفكر الذين لا يُنسى لهم فضلٌ ولا يُنكر لهم شأنٌ.

يقولُ بحر العلوم:

إنّ آل أبي رافع من أرفع بيوت الشيعة تبياناً و أعلاها شأناً و أقدمها إسلاماً و إيماناً.^١

^١ . تنقيح المقال، ج ١، ص ٩.

عاش أبورافع في مكّة أوّل ما عاش و
كان غلاماً للعبّاس بن عبدالمطلب بعض
الزمن.

ثمّ تشرّف بخدمة الرسول صلّى الله عليه
وآله.

فكان غلاماً له شطراً آخر من الزمن.
و يومَ حمل أبورافع إلى النبيّ بشريّ
إسلام عمّه العبّاس، سرّ النبيّ و اعتق
على إثره أبا رافع لوجه الله و مُنذئذٍ
عُرِفَ أبورافع بمولى رسول الله.

و لقد كان أبورافع من القرب إلى قلب
الرسول و محبّته - بحكم المعاشة
الطويلة التي حظى بها أبورافع في كنف
الرسول الرحيم - أن حدى بالرسول إلى

أن يزوجه مولاته «سلمى» التي كانت
مرضعة ابنه إبراهيم.^١

ولما كان أبو رافع قد شبَّ في بيت
الرسول فكان بحكم ربيبه، فإنه صلى
الله عليه وآله نهاه عن أكل الصدقة تماماً
كما أهل بيته.

و في تاريخ الإسلام يلمع اسم أبي رافع
و أوّل ما يلمع في موقعة بدر.

و بدر منطقةٌ فيها بعض آبار و هي تقع
بين مكّة والمدينة و هي المنطقة التي خيم
فيها المشركون الذين جاؤوا إلى المدينة
بجيش كبير لإنقاذ عيرهم التجاري الذي

١ . المصدر السابق؛ أسد الغابة، ج ١، ص ٤١.

كان يقوده أبوسفيان ساعة أبلغهم بأن
عيرهم هذا تحاصرها جنود النبي محمد.
و هذه القافلة التجارية وإن كانت قد فلتت
من قبضة المسلمين وسلمت إلا أن جيش
المشركين أبى مع ذلك أن يعود ادراجه
إلى مكة موطنها دون أن يُلقن المسلمين
درساً على الأقل، إن لم يمكنه أن يُقضى
عليهم بالمرّة.

فضروري - في نظر هذا الجيش - أن
يوجّه إلى المسلمين ضربة موجعة
تشلهم و تجعلهم لا يحدثوا أنفسهم بعدئذٍ
بالتصدّي لتجارة قريش و عيرها.

مِنَ هُنَا وَاصَلَ الْجَيْشَ الْمَكِّيَّ الْوُثْنِي
سِيرَهُ بِاتِّجَاهِ الْمَدِينَةِ مِنْ حَيْثُ بَلَغَهُ النَّبَأُ
عَنْ نَجَاةِ عَيْرِهِمْ فِي مَنْتَصَفِ الطَّرِيقِ
حَتَّى وَصَلُوا عِنْدَ مِيَاهِ بَدْرٍ، فَحَلَّوْا هُنَاكَ
بِكَامِلِ عُدَّتِهِمْ وَ عَدَدِهِمْ.

و بَلَغَتْ أَنْبَاءُ هَذَا التَّحَرُّكِ الْعَسْكَرِيِّ إِلَى
مَسَامِعِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ
آلِهِ فَتَحَرَّكَ هُوَ وَ الْمُسْلِمُونَ لِمَجَابَهَةِ هَذِهِ
الْقُوَّةِ الْغَازِيَةِ الْكَبِيرَى حُدْبِ مَنْطِقَةِ بَدْرٍ
حَيْثُ الْقِتُّ قَرِيشٍ بِرِحَالِهَا.

وَتَلَاقَى الْجَيْشَانِ هُنَاكَ عِنْدَ بَدْرٍ وَ التَّحَمَّا
أَيَّ التَّحَامِ وَ كَانَ النُّصْرُ الْمَوْزِرُ مِنْ حِظِّ
الْمُسْلِمِينَ، رَغْمَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا
يَزِيدُونَهُمْ بِثَلَاثَةِ أضعَافٍ وَ أَكْثَرَ وَ كَانَتْ

الهزيمة الساحقة من نصيب المشركين
الذين ولّوا الأدبار هاربين صوب مكّة
بعد أن تركوا على رمال بدر سبعين
قتيلاً من صفوفهم و سبعين أسيراً في
أيدي المسلمين المنتصرين.

و بلغت أنباء الهزيمة الساحقة هذه إلى
مكّة عن طريق أبي سفيان بن الحارث
الذي لم يكن قد أسلم ظاهراً بعدُ آنذاك
فأحدثت دويّاً بل و طوفاناً من الرعب و
الهلع في نفوس أهلها.

و لندع الآن أبارافع ليكمّل لنا بقية هذه
القصة:

آثار الهزيمة في مكة

يقول أبو رافع:

كُنْتُ غُلَاماً لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَ
كَانَ الْإِسْلَامُ قَدْ دَخَلَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ.

فَأَسْلَمَ الْعَبَّاسُ وَ أَسْلَمَتِ أُمُّ الْفَضْلِ وَ أَنَا
أَسْلَمْتُ.

وَكَانَ الْعَبَّاسُ يَهَابُ قَوْمَهُ وَ يَكْرَهُ خِلَافَتَهُمْ
وَ كَانَ يَكْتُمُ إِسْلَامَهُ وَ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ
مُتَفَرِّقٍ فِي قَوْمِهِ...

تأمل و نظر

لقد بلغ التكتّم و التقية بالعبّاس حدّاً
اضطرّ معه إلى الخروج مع جحافل
المشركين يوم خرجوا إلى مُنابذة
المسلمين يوم بدر، لأنّ قيادة قريش في
مكة كانت قد حتمت على كلّ مكّي أن
يشارك في هذه الحملة، إمّا بنفسه أو
بإرسال بديل أو دَفَع مبلغ إن لم يرد و لم
يتمكّن من المشاركة الشخصية.

و قد اشترك أبو جهل و أضرابه من
أقطاب مكة بأنفسهم و دَفَع أبولهب مالاً
إلى العاص بن هشام ليخرج بدلاً عنه و
لكنّ العبّاس بن عبدالمطلب:

- إِمَّا لِفِرْطٍ تَعَلَّقَهُ بِأَمْوَالِهِ،
- وَ إِمَّا لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ قَدْ يَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، أَنْ يَمْنَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ تَوْجِيهِ ضَرْبَةً إِلَى الْمُسْلِمِينَ،
- وَ إِمَّا لِأَنَّهُ لَوْ بَعَثَ بَدِيلًا، لَمَا أَمَكَّنَهُ أَنْ يَحَقِّقَ لِلْمُسْلِمِينَ هَذَا الْأَمْرَ،
- وَ إِمَّا لِشَيْءٍ آخَرَ لَا نَعْرِفُهُ،
- نَجْدُهُ يَشْتَرِكُ بِنَفْسِهِ فِي تِلْكَ الْحَمَلَةِ، إِلَى بَدْرٍ ثُمَّ يُؤَسِّرُ، ثُمَّ يُطْلَقُ سَرَّاحُهُ، بَعْدَ أَنْ يَفْتَدِي بِنَفْسِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَالِ.

انتهى

...وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ بَدْرِ فَبَعَثَ
مَكَانَهُ الْعَاصِيَّ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةَ، وَ
كَذَلِكَ كَانُوا صَنَعُوا، لَمْ يَتَخَلَّفَ رَجُلٌ إِلَّا
بَعَثَ مَكَانَهُ رَجُلًا.

فَلَمَّا جَاءَهُ الْخَبْرُ عَنْ مُصَابِ أَصْحَابِ
بَدْرِ مِنْ قُرَيْشٍ كَبْتَهُ اللَّهُ وَ أَخْزَاهُ، وَجَدْنَا
فِي أَنْفُسِنَا قُوَّةً وَ عِزًّا.

قَالَ أَبُو رَافِعٍ: وَ كُنْتُ رَجُلًا ضَعِيفًا وَ
كُنْتُ أَعْمَلُ الْقِدَاحَ (أَيُّ أَعْوَادِ السَّهَامِ) وَ
أُنْحَتُّ فِي حُجْرَةٍ بِرَمْزٍ.

فَوَاللَّهِ إِنِّي لَجَالِسٌ فِيهَا وَ أُنْحَتُّ الْقِدَاحَ، وَ
عِنْدِي أُمُّ الْفَضْلِ جَالِسَةٌ، وَ قَدْ سَرَّنا مَا
جَاءَنَا مِنَ الْخَبْرِ (عَنْ مُصَابِ أَهْلِ بَدْرِ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ) إِذْ أَقْبَلَ أَبُو لَهَبٍ يَجُرُّ
رَجُلَيْهِ بِشَرِّ.

حَتَّى جَلَسَ عَلَى طُنْبِ الْحُجْرَةِ (طَرْفِهَا)
فَكَانَ ظَهْرُهُ إِلَى ظَهْرِي.

فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ إِذْ قَالَ النَّاسُ:

هَذَا أَبُو سُفْيَانَ... قَدْ قَدِمَ...

هَذَا أَبُو سُفْيَانَ... قَدْ قَدِمَ...

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَلُمَّ إِلَيَّ فَعِنْدَكَ - لَعَمْرِي -
الْخَبْرُ.

فَجَلَسَ إِلَيْهِ، وَ النَّاسُ قِيَامٌ عَلَيْهِ، يَنْتَظِرُونَ
كَلَامَهُ.

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ:

يَا بْنَ أَخِي أَخْبِرْنِي كَيْفَ كَانَ أَمْرُ النَّاسِ؟

قَالَ أَبُو سَفِيَانَ:

مَا هُوَ إِلَّا أَنْ لَقِينَا الْقَوْمَ (أَيَ الْمُسْلِمِينَ)
فَمَنَحْنَاهُمْ أَكْتَاْفَنَا يَقْتُلُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا،
وَ يَأْسِرُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا.

وَ أَيُّمُ اللَّهِ مَعَ ذَلِكَ مَا لُمْتَ النَّاسَ، فَقَدْ لَقِينَا
رِجَالًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلُقٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ
الْأَرْضِ.

وَ اللَّهُ مَا تُلِيقُ (أَيَ لَا تُبْقِي) شَيْئًا وَلَا يَقُومُ
لَهَا شَيْءٌ.

عِنْدَمَا بَلَغَ أَبُو سَفِيَانَ هَذَا الْمَوْضِعَ مِنْ
كَلَامِهِ، قَالَ أَبُو رَافِعٍ:

فَرَفَعْتُ طُنْبَ الْحُجْرَةِ وَ سِتَارَهَا بِيَدَيَّ ثُمَّ
قُلْتُ: «تِلْكَ وَ اللَّهُ الْمَلَايِكَةُ».

فأبولهـب الذي كانت قد أذهلتـه الأنبياء و
أزَعَجْتـه هزيمة قريش الساحقة في بدرٍ و
مصرع صناديد مكة أمثال شيبـة و عتبة
و أبي جهل ثم مفاجأة أبي رافع الجريئة له
بتلك الكلمة الصاعقة التي كانت تـوحي
بتأييده للإسلام و التي أزَعَجْتـه أكثر من
أيِّ شيءٍ آخر...

فَرَفَعَ أبولهب يدهُ فـضَرَبَ بها وَجـهي
ضربةً شديدةً.

فساورته (أي قُمتُ لمواجهته)، فاختمـلني
فـضَرَبَ بي الأرضَ فَبَرَكَ عليَّ يـضْرِبُني
وَ كُنْتُ يَوْمَذاك رَجُلًا ضَعِيفًا (في الجسم
هزيلة).

فَقَامَتْ أُمُّ الْفَضْلِ (التي أثارها الموقفُ)
إلى عَمُودٍ مِنْ عُمَدِ الْحُجْرَةِ.

فَأَخَذَتْهُ فَضْرَبَتْ أَبَالَهَبٍ ضَرْبَةً فِي رَأْسِهِ
شَجَّةً مِنْكَرَةً وَ قَالَتْ: أَسْتَضْعِفُهُ أَنْ غَابَ

عَنْهُ سَيِّدُهُ؟ (و تعني زوجها العباس مولى
أبي رافع) فقام أبولهب وذهب مولىً ذليلاً

بيد أن أبي لهب - وإن كان قد أشفى بعض
غليله بضرب أبي رافع - الحزن العميق
الذي كان يرزح فؤاده - تحته - لهزيمة
قريش، كان أكبر من أن يشفيها تماماً
اعتداءً على مسلم.

أجل، فإن هزيمة قریش تركت في نفس
أبي لهب طاغية مكة و عدو الرسول و

١ . السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٣٠١؛ الأغانى، ج ٤، ص ٢٠٥.

الإسلام اللدود، هزيمة أكبر و جرحاً ما
كان ليبرء. و لذلك لم يطل به العمر...

فقد مات بعد هذا الحادث في مكة بسبع
ليالٍ و قبل مغيب الشمس من اليوم
الثامن كما يقول أبو رافع.

إنّ إخبار أبي رافع عن الملائكة فهو ليس
يدلّ على أنّه كان يعلم بوجود الملائكة
فحسب، بل يدلّ - كذلك - على إيمانه
الراسخ الشجاع، الذي تحلّى به أبو رافع
مولى رسول الله صلى الله عليه و آله.

إنّ الله تعالى جعل الإيمان بالملائكة مع
الإيمان بالله و اليوم الآخر في صفّ
واحدٍ و سمّى كلّ ذلك إيماناً بالغيب.^١

١ . سورة البقرة: ٣.

و الإيمان بالغيب في نظر الإسلام واحدٌ
مِن أهمّ قواعد المعرفة الصحيحة.

و الذي لم يستطع أبو رافع معه أن يكتُم
الحقَّ أو يتخوّفُ من إظهاره و هو في
ذلك الجوّ المكهرب الرعيب و في
محضر أعداء النبيّ الألداء القُساء العُتاة
الجبابرة و هو يعلمُ مدى قساوتهم و
جفاءهم، فاذن به يُطلق الكلمة، بل قُلْ:
يُطلق القذيفة المدويّة: تلك والله الملائكة
و يتحمّلُ في سبيل كلّ ذلك الأذى و
العذاب.

يا له من شموخ الإيمان عند أبي رافع
مولي رسول الله صلّى الله عليه وآله.

نبوءة النبي حول الإمام عليّ عليهما السلام

منذ البداية (و نعني منذ كان رسولُ الله
حيّاً) كان أبو رافع يودّ عليّاً أمير المؤمنين
و يُحبُّه و يَكونُ له ولاءٌ من نوع ولاء
الأعماق

بل و كان يمتلكُ إلى جانب ذلك بصيرةً
واضحةً بعظمة عليّ و سموّه و فضله
و اعتقاداً واضحاً عميقاً بكلّ ذلك يقومُ
على الدليل.

و يستمدّ أصوله من كلمات الرسول
الأعظم في حقّ الإمام عليّ عليه السلام.
تلك الكلمات العديدة و الصريحة التي
لا تقبل تأويلاً و لا تقبل جدلاً.

ذلك لأنّ الرسول ما كان ليدع فرصة مناسبة تمرّ إلّا و ذكر فيها المسلمين بمقام عليّ و فضله و حنّهم على لزوم طاعته و اتّباع سبيله و ربما تنبأ لهم بأمور تحدث في المستقبل و حذرّ الناس من مخالفة عليّ و الانحراف عنه.

و إليك واحداً من هذه التنبؤات نسمعها على لسان أبي رافع.

يقول أبو رافع:

دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وآله و هو نائمٌ أو يوحى إليه، و إذا حيّةٌ في جانب البيت، فكرهتُ أن أقتلها فأوقظته، فاضطّجعتُ بينه و بين الحيّة حتى إذا كان منها سوءٌ، يكونُ إليّ دونه.

فاستيقظ و هو يتلُو هذه الآية:

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ
هُم رَاكِعُونَ»^١.

(اتفق المورِّخون و المحدثون على أن
هذه الآية نزلت في حقِّ امير المؤمنين
الإمام علي عليه السلام و يتفقون جميعاً
على أن الإمام أنفق خاتمه و هو في
حالة الركوع من صلاته).

ثم قال: «الحمد لله الذي أكملَ لعلِّي منيَّته
و هنيئاً لعلِّي بتفضيل الله إيَّاه».

ثم التفت إليّ، فرآني إلى جانبه، فقال:

^١ . سورة المائدة: ٥٥. راجع كتب التفسير و الكلام و الحديث.

«ما أضجَعك هاهنا يا أبارافع؟»

فأخبرته خبرَ الحيّة.

فقال: «قُم إليها فاقتُلها»، فقَتَلُها.

ثم أخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِيَدِي
فقال:

«يا أبا رافع! كيف أنتَ و قوماً يقاتلون
عليّاً؟ (كيف يكونُ موقفك؟)

و هو على الحقِّ و هم على الباطل.

يكونُ حقّاً في الله جهادُهم فَمَنْ لم يستطع
جهادهم فَبِقَلْبِهِ فَمَنْ لم يستطع فليس وراء
ذلك شيءٌ.»

فقلت: أدع لي إن أدركتهم أن يُعينني اللهُ
و يقوِّيني على قتالهم.

فقال: «اللهمَّ إنَّ أدركهم فقوّه و أعنه».

ثمَّ خرَج إلى الناس فقال:

«يا أيّها الناس! مَنْ أحبّ أن ينظر إلى
أميني على نفسي و أهلي فهذا أبو رافع
أميني على نفسي».^١

و بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله
أزيح امير المؤمنين علي عليه السلام عن
مسند الحكم و الخلافة.

و هي مقامه الذي نصبه الرسول العظيم
فيه بإمرٍ من ربّه.

^١ . الرجال للنجاشي، ص ٥.

ولكن السنوات الخمس والعشرون الثقال
بالأحداث و المِحَن (و هي الفترة التي
أقصى فيها عليُّ عليه السلام عن الحُكم
و أدارها الخلفاء الثلاثة) كانت كفيلاً بأن
تفتح العيون على علة كلّ تلكم المِحَن و
مِنَ ثَمَّ تُفْتَحُ العيون و القلوب معاً على
مكانة عليِّ عليه السلام بنحو أفضل وأتمّ
فتعرف ربّان سفينتها الحقيقيّ.

فاذا جموع المسلمين - بعد مقتل عثمان -
تنهال على الإمام عليٍّ من كلّ صوب
مطالبة إياه بإصرارٍ منقطع النظير بأن
يتسلّم أزمّة الحُكم بيده و يقود السفينة
التائهة و يطبّق العدل الاجتماعي و

الأصول الإنسانيّة السامية التي أتى بها
الإسلام و لكنّها غابت في غمرة الأهواء
بيد أنّ خلافة الإمام عليّ هذه رغم أنّها
جاءت تحت إبحار الجماهير، فإنّها
أثارت ضغائن البعض و حسدَهم الذي
منعهم من الاعتراف بفضائل الإمام و قد
سمعوها من رسول الله مراراً و تكراراً،
إلا أنّهم تحت ضغط مصالح معيّنة
رفضوا التحدّث بها.

بل أثروا إخفاءها و كتمانها في الوقت
الذي كانت فيه أسماع كثيرة في مصر
و العراق تتعطّش إلى سماعها و تتشوّق
إلى معرفتها.

فاذن الناس في العراق أو مصر على
السواء يتهافتون على آية منقبة عن الإمام
عليّ تُطرحُ عليهم تهافتَ الفراشات على
النور.

و كان هذا وليد تعطّشهم إلى معرفة
الإمام عليّ عليه السلام، تلك الشخصية
الفذة الشامخة التي طال عنها غيابهم و
طال عنهم غيابه.

أجل، في ذلك الموقف بالذات كان هؤلاء
النفعيون المصلحيّون يكتمون ما يعرفونه
عن عليّ ويلقون على فضائله ستاراً من
التجاهل و الإغفال، مرّةً بدافع الحقد و
الحسد و الأنانيّة و البغض و العداة ...

و أُخْرِى تَحْتِ بَرِيقِ الدَّنَانِيرِ وَ الدَّرَاهِمِ
الَّتِي كَانَتْ تَنْزَلِقُ إِلَى جُيُوبِهِمْ مِنْ خَزَائِنِ
مَعَاوِيَةَ.

فَتَسِيلُ لِعَابِهِمْ وَ يَنْسُونُ مَعَهَا الضَّمِيرَ وَ
الدِّينَ وَ كُلَّ القِيمِ الْإِنْسَانِيَّةِ الشَّرِيفَةِ.

فَإِذَا اسْتَفْهَمَهُمُ الْإِمَامُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
ذَاتَ يَوْمٍ عَمَّا سَمِعُوهُ فِيهِ مِنَ الرِّسُولِ
الكَرِيمِ أَوْ اسْتَشْهَدَهُمْ أَوْ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ
يَقُولُوا مَا سَمِعُوهُ وَ عَرَّفُوهُ، نَكَّصُوا وَ
أَبَوْا أَنْ يُجِيبُوهُ وَ لَتَعْفَنَ الضَّمِيرَ.

فَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ وَقَفَ الْإِمَامُ فِي جَمْعٍ مِنْ
كِبَارِ الصَّحَابَةِ وَ نَاسًا آخَرِينَ وَ قَالَ:

«أَلَا مَنْ سَمِعَ مِنْكُمْ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا
عَلِيٌّ مَوْلَاهُ فَلْيَقُمْ وَ لِيَشْهَدْ».

و ينهضُ قومٌ و يشهدون... .

و ينكصُ آخرون و يكتمون و هؤلاء هم
أنس و نُظراؤه الذين أبوا عن أداء
الشهادة و قول الحقّ معذراً - بعضهم -
بأنّه قد نسي ما سمعه... .

و يا للعجب العجاب... .

إلا أنّ أبارافع كان دائماً على النقيض
من هؤلاء الصغار الأنفس، المتأسّيني
الضمائر.

إنّ أبارافع دأب على الإعلان بالحقّ في
صراحةٍ مثل صراحة الشمس و قوّةٍ مثل
قوّة الرعد غير مكترث بما سيجرّان عليه
من عذابٍ و بلاءٍ رهيبين قاسيين.

و هل نسينا موقفه في مكة مع أبي لهب
الطاغية؟

إنه موقفٌ هو هو لم يتغيّر ولم يلبس...
فقد ظلّ ذاك موقفه أبداً مع الحق و ضدّ
الباطل.

و هاهنا يوم ينصرف الناس عن الإمام
عليّ عليه السلام و يخذلونه، يقف هو إلى
جانب الإمام غير مُبالٍ للكثرة الزائغة
عنه...

يأخذ جانب عليّ و ينصره بالسيف تارةً
و بالكلمة أخرى.

فها هو في مطلع حكومة الإمام عليّ و
خلافته يوم رفع معاوية لواء المعارضة

في وجه الإمام و في وجه حكمه العادل
و عَزَمَ طلحة و الزبير الذهابَ إلى
البصرة انصرافاً عن عليّ عليه السلام
إلى الفتنة.

يومذاك نراه يقول:

هذا قول رسول الله صلى الله عليه وآله:
«سَيُقَاتِلُ عَلِيًّا قَوْمٌ يَكُونُ حَقًّا عَلَى اللَّهِ
جِهَادُهُمْ».

وإنك لتعجب و تأخذك الدهشة إذا عرفت
بأن أبارافع أطلق هذه الكلمة الهادرة و
هو في سنّ شيخوخةٍ تناهز الخمسة و
الثمانين من السنوات. إنه لم يفقد - و هو
على قمة هذه الشيخوخة الطاعنة - شيئاً

مِن صلابته و شجاعته و صموده و
معنوياته الجبارة.

لأنّ الشيخوخة عند أبي رافع و كلّ
الممتلئين إيماناً و عمليّةً لا تستطيع
أن تنال من عظمة أرواحهم و قوتها و
سموها.

بل لقد أصبح كيان أبي رافع و هو في
ذلك السنّ و عاءً يفيض بالحبّ و العاطفة
و المشاعر النبيلة و الولاء لعليّ و لعترته
الطاهرة أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

فاذا به و هو يلمس نبوءة الرسول تتحقّق
و هوّ لاء أعداء الإمام عليّ و معارضو
خلافته، يرفعون الوية المعارضة و
الحرب...

إذا به ينطلق - في روحٍ كأنّها قُذت من
جَبَلٍ - يناصر عليّاً و يسيرُ في ركابه
يوم سار إلى البصرة لقمع الناكثين طلحة
والزبير وأذنايهما.

يقول للناس أبو رافع؛ ذلك الشيخ العملاق
الروح، ساعة كان يريدُ جيش الإمام
التحرّك من المدينة باتجاه الكوفة:

«الحمد لله، لقد أصبحتُ لا أحد بمنزلتي
لقد بايعتُ البيعتين؛ بيعة العقبة و بيعة
الرضوان و صليتُ القبلتين و هاجرتُ
الهجرة الثلاث».

و عند ما يسأله الناس: «و ما هي الهجرة
الثلاث؟»

قال أبو رافع:

هاجرتُ مع جعفر بن أبي طالب إلى
أرض الحبشة،

و هاجرتُ مع رسول الله إلى المدينة،
و هذه الهجرة مع عليّ بن أبي طالب إلى
الكوفة.^١

نعم...

كان أبو رافع لا يكثرُ بالثمن، فليكلفه
الوقوف مع الحقّ أغلى الأثمان.

إنّه يقارعُ رأس الشرك؛ أبا لهب و يبايع
على الموت و الشهادة و يهاجرُ من
موطنه. و يظلّ يهاجرُ و يجاهدُ...

^١ . المصدر السابق.

و هو في هذه المرّة يهاجرُ مع الإمام
عليّ عليه السلام إلى الكوفة، إلى سرح
الجهاد.

ثمّ هو يظلُّ يلازمُ عليّاً و لأجل ذلك يبيعُ
بيته في المدينة و أرضاً يملكُها في خيبر
و يذهبُ في شوقٍ واعي و صادقٍ يلازم
إمامه.

حتى ينالَ الإمام عليه السلام الشهادةَ و
يلتحقَ بربّه، هناكَ في مسجد الكوفة.

ثمّ بعد الإمام يلازمُ ولده الإمام الحسن
في العراق حتى يعودَ معه إلى المدينة.

و هناكَ في المدينة يقسمُ له الإمام نصف
دار أبيه الإمام عليّ، تقديرًا لمواقفه
الرشيدة العظيمة.

ثم يضع تحت تصرفه قطعةً أخرى من الأرض في أطراف المدينة.

و عندما يموتُ أبورافع يشتري معاوية ذلك المنزل الذي وهبَه الإمامُ الحسن له من ورثته بمبلغٍ طائلٍ من المال.

و هكذا بعد أن يعودَ أبورافع من العراق إلى المدينة يتوفاه الله و هو في التسعين من عمره و بعد أن قضى حياةً حافلةً بمواقف الجهاد و التضحية مليئةً بالمحَن التي تحمّلها في سبيل مواقفه الصريحة الشجاعة في نصره إمامه العظيم عليّ و الدفاع عنه، دفاع المخلصين.^١

١ . طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٧٤؛ الإصابة، ج ٤، ص ٦٨؛ الاستيعاب، ج ١، ص ٦٣؛ أسد الغابة، ح ١، ص ٤١.

رجل السيف و القلم

لقد اشترك أبو رافع في كلّ المعارك الإسلامية و شهد كلّ المشاهد في زمان رسول الله صلّى الله عليه وآله إلا بدر حيث كان آنذاك في مكّة.

ولكنّه رغم أنّه قضى شطراً من حياته على جبهات القتال و مصارعة الأبطال و مقارعة صناديد العرب، فإنّه أمضى كذلك شطراً من حياته في ركاب العلم و المعرفة.

فلقد تلقّى من الرسول صلّى الله عليه وآله و الإمام علي عليه السلام حقائق و أحاديث فضبطها و دوّنها و أحدثت من

تدوين كل ذلك، كتاباً خاصاً في نظمه
و كان بذلك أول شيعي دوّن في الحديث
و السنّة بل أول مسلمٍ فعلَ ذلك.

و تكمنُ أهميّةُ هذا الفعل في أنّ أبارافع
أقدم على هذه الخطوة (و نعني كتابة
الحديث و السنّة) في وقت كان يعتبر فيه
هذا العمل جريمةً يُعاقبُ عليها و يؤخذُ
صاحبُها!

لأنّ الخليفة الثاني أصدر منعاً باتاً عن
تدوين الحديث فكتب ضمن قرارِ عمّاه
على كلّ البلاد الإسلاميّة:

«إِنَّ مَنْ كَتَبَ حَدِيثًا فَلْيُحَرِّقْنَاهُ»^١.

١ . كنز العمال، ج ٥، ص ٢٣٩.

و قد ترك مثل هذا القرار أثراً سيئاً في المجتمع الإسلامي - آنذاك - و كان سبباً لأن يخفى عبدالله بن عمر كتاباً له في الحديث حتى أنك لاتجد له اسماً في كتب الحديث.

لم يكن كتاب عبدالله بن عمر هو الكتاب الوحيد الذي لم يرد له ذكرٌ في كُتُب الحديث، بل لا تجدُ لأيِّ صحابيٍّ من صحابة الرسول أيَّ اسم لكتابٍ ألفه في مجال الحديث كذلك، اللهمَّ إلا ما ذكره الشافعي عن كتاب سعد بن عبادة فقط.^١

١ . ترتيب المسند، ج ٢، ص ١٧٩.

فقد أضرَّ هذا القرار بالإسلام ضراراً لم يكن ليتلافى بشيءٍ و ذلك لأنَّ أحاديث الرسول قد تُركت بسببه طوال قرنٍ كاملٍ دون تدوين و ضبط و كتابة.

ولهذا لم تكن الأحاديث لتسلم من التغيير و التحريف، حتى إذا جاء عمر بن عبد العزيز عام ٩٩ ق أسقط بدعة المنع هذه بقرارٍ شجاع، و حثَّ الناس على كتابة الحديث النبوي و تدوينه و ضبطه.

على أنَّ الخطر الأكبر الذي تعرّض له الإسلام بسبب قرار منع كتابة الحديث النبوي، كان عمليّة «الوضع» للأحاديث على لسان الرسول، افتراءً و كذباً على أيدي و ألسن الرُواة المُرتزقة الذين

اغتنموا فرصة عدم وجود نصّ مكتوب
للأحاديث النبويّة يلتزم به و يقاسُ عليه
أيُّ حديثٍ مشكوكٍ في أمره.

فراحوا يَخْتَلِفُونَ «أحاديثَ كاذبةً» تنفيذاً
لِرَغَبَاتِ حُكُومَاتِهِمْ آنَ ذَاكَ وَ مَتَمَشِّياً مَعَ
مَصَالِحِهِمْ عَلَى طَرِيقَةٍ:

«خَلَا لِكَ الْجَوِّ، فَبِيضِي وَ اصْفَرِّي».

و لِمَاذَا لَا يَفْعَلُونَ مِثْلَ هَذَا وَ لَيْسَ بَيْنَ
أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ نَصّاً مَدُوناً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ
وَ يَقِيسُونَ عَلَيْهِ الصَّادِقَ مِنَ الْمَكْذُوبِ
وَ الْمَفْتَعَلَ مِنَ الصَّحِيحِ.

و قد كان بديهياً أن يكون فقدان هذا النصّ المدوّن، مَسْرَحاً لتواجد أبي هريرة و أمثاله من الذين انتحلوا كذباً رداءً الرُواة و المحدثين توصلاً إلى تحقيق مزيدٍ من المطامع و المكاسب.

لكلّ هذه تنطرحُ هاهنا أسئلةٌ:

لماذا منع عمر من كتابة الحديث وتدوين السنة النبويّة؟

و ما هي الدوافع الحقيقيّة وراء هذا المنع؟

ثمّ بأيّ مُسوِّغٍ فعَل ذلك؟

في الوقت الذي نعلم أنّ حجّية الحديث النبوي تعادلُ حجّية الكتاب العزيز و يتعادلان في وجوبِ اتّباع المسلمين لهما و العمل بهما.

ثمّ إنّ القرآن سبق أن قال:

«وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ»^١

و هي صريحة في أنّ كلّ ما يتفوّهُ به الرسول - قرآناً كان أم غيره - إنّما هو مستمدّ من الوحي ليس إلاّ.

١ . سورة النجم: ٣-٤.

أليس عبدالله بن عمر قد نقل عن النبي
الأعظم من قوله:

«أنا لا أقولُ إلاَّ حقّاً و لا يخرجُ منهما
(و أشار إلى فمه) إلاَّ حقّاً فَاكْتُبُ»^١.

فهل مع هذه الأهميّة التي كانت تتمتع بها
أحاديث الرسول و أقواله بحيث كانت
تعتبرُ واحداً من أركان التبليغ و وسائله
المهمّة لإيقافِ الناس على حقيقة الإسلام
و هل مع كلّ هذه الاعتبارات، كان من
الصالح للخليفة الثاني أن يمنع من تدوين
الحديث و يعمّم هذا المنع على كلّ أقطار
العالم الإسلامي؟!!

١ . مستدرك الحاكم، ج ١، ص ١٠٤.

"مَنْ كَتَبَ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فَلْيُحَرِّقْنَاهُ"

ترى هل ينسجم هذا القرار مع روح
الإسلام الذي يسعى أبدأً أن يوسّع نطاق
العلم والمعرفة و تعميمهما؟

ترى ما هو العذر؟

عذرٌ صِبْيَانِيٌّ

أمام هذا السؤال المنطقي يرتبكُ أنصار
صاحب القرار و حقُّ أن يرتبكوا...

و اذا بهم يعتذرون - لدى الإجابة -
بالقول: بأنَّ ما فعله الخليفة الثاني، كان
لأجل أن لا يختلطَ النصُّ القرآني بشيءٍ
سواه!

و هذا العذر من التهاؤت بحيثُ إنَّه
لا يحتاجُ إلى جوابٍ لأنَّ الرسول العظيم
إنَّما تُوفِّيَ يومَ كان القرآن كله - من ألفه
إلى يائه - قد ضُبطَ...

ضُبطت آياته و سُورُهُ و عُددتَا عدًّا دقيقاً
لا يتسلل إليه خلل.

ثمّ قد أُودِعَ صدور الحُفّاظ وكتّاب الوحي
الذين كانوا يتمتّعون بذكاءٍ قويٍّ و ذاكرة
لا تخطأ.

حتى أنّهم حفظوا كلّ ما يتعلّق بالقرآن
من خصوصيّاتٍ و تفاصيلٍ إلى درجةٍ
لم يعد أحدٌ يستطيع أن يُضيفَ حرفاً أو
ينقص منه (كما رأيتَ في قصّة أبي بن
كعب).

فهل في مثل هذه الحالة كان أيُّ خوفٍ
من اختلاط نصّ القرآن بسواه من الكلام
أمراً وارداً يستوجبُه تدوينُ أحاديث
الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله؟

كُلُّ هَذَا مِضَافاً إِلَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْقُرْآنُ
هُوَ بِالذَّاتِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ وَ
التَّرْكِيبِ الْمُتَفَوِّقِ وَالنَّسْقِ الْأَدْبِيِّ الَّذِي
لَا يُجَارَى.

كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْقَى
إِلَيْهَا أَيُّ كَلَامٍ بَشَرِيٍّ. فَأَيُّ كَلَامٍ مَهْمَا بَلَغَ
مِنَ الذَّرْوَةِ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ مَا كَانَ
لِيُشْتَبَهَ مَعَ الْقُرْآنِ؟

وَهُوَ أَمْرٌ مُحَسَّسٌ بِالْوُجْدَانِ.

وَهَلْ يَشْتَبَهُ أَحَدٌ كَلِمَاتِ الرَّسُولِ أَوْ الْإِمَامِ
عَلِيِّ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ مَعَ الْقُرْآنِ؟

و هما، هما من البلاغة و الفصاحة و
قوى البيان و سلاسة التعبير و حلاوته.

حتى أن المرء منا ليلحظ كيف أن الآيات
التي يستدلُّ بها الإمام أو الرسول في
خُطْبِهِمْ، تتلألاً شاخصةً بين تلك الكلمات
تَلَأُؤُ الدُرِّ و سطوعه.

وهذا هو ما يلمسه من له أقلّ إمامٍ بآداب
اللغة العربيّة و أفانينها.

يلمسُ الفرقَ بين الكلامين دون عناءٍ
مطلقاً.

هذا المنع كان بدافع سياسي

كلّ القرائن تشهدُ بأنّ ثمة دافعاً سياسياً كان وراء هذا المنع. وإنّ الهدف الأساسي من المنع لم يكن إلاّ القضاء على ما كان الإمام عليّ عليه السلام يمتازُ به دون الصحابة. لأنّ عليّاً عليه السلام كان قد أُلّفَ في حياة الرسول كُتُباً جمّة من تلك سمعها ووعاها من رسول الله صلّى الله عليه وآله من الحقائق و القضايا في شتى أبواب العلم و المعرفة.

المحدّثون الإسلاميون يعتقدون أنّ الإمام عليّاً عليه السلام أُلّفَ ستّة كُتُبٍ، هي:

١. كتابٌ على شكل طومارٍ كان
موضعه غلاف سيف رسول الله.

٢. كتابُ الفرائض

٣. كتابُ أملاه رسول الله على الإمام.

٤. كتابُ الآداب

٥. كتابُ الجفر

٦. كتابُ الجامعة (جامعُ عليّ)

و هذه الكتب و إن كانت غيرَ موجودة
بين الأيدي الآن إلا أن:

ما يُستفادُ من الأحاديث و التواريخ أنّها
كانت موجودةً بأجمعها عند أهل البيت
يتداولونها واحداً بعدَ واحدٍ و قد رآها

بعض الشيعة عند الإمام جعفر الصادق
عليه السلام.^١

كيف دُونت الأحاديث بعد ذلك

و قد يكون من المؤسف جداً أن ينتسب
بعض المورخين قصة «المنع من تدوين
الحديث» إلى الرسول نفسه حيث يدعون
بأنه قال:

«لَا تَكْتُبُوا عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ كَتَبَ
عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيُمِحْهُ».^٢

في حين أن كل القرائن و الشواهد
الكثيرة التالية تدل بوضوح على أن هذا
الحديث لا أساس له و لا سند مطلقاً.

١ . التهذيب، ج ١، ص ٩٥.

٢ . رواه صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري.

أولاً: لأنَّ الإمامَ عليّاً عليه السلام و هو أقربُ الناسِ إلى الرسول وتلميذُه المُمْتَاز و بابُ علومه، قد دَوَّن و ضَبَطَ أحاديثَ كثيرةً عن الرسول.

و كانت كتاباتُه يتداولها أبناءُ الأئمَّة المطهَّرون من بعده واحداً بعد آخر.

فلو كان كتابة الحديث أمراً منهيّاً عنه من قِبَل الرسول، لما فعله الإمام عليّ سيّد المتّقين و لما كان يخالفُ النهيَ قط.

و ثانياً: لأنَّ رسائلَ كثيرةً قد دُوِّنت في قضايا شتّى من الدين و مسائله و أحكامه في العبادة و القضاء و السياسة و غيرها في زمن الرسول الأعظم وهي محفوظة بأسنادها في كتب المحدثين و المورّخين.

و الملاحظ أنّ بعضها هو الذي يتعلّق
بقضايا الدعوة إلى الإسلام، بينما يدور
أكثرها حول مسائل الدين و أحكامه و
تحديد الحدود و تعيين الفرائض و السنن.
فكيف يمكنُ و الحال هذه أن يكون النبيُّ
الرسولُ قد نهى عن كتابة الحديث؟

و بينما كُتِبَ الحديث و التاريخ تذكر لنا
عن وجود (٢١٦ من بين ٣٠٠ رسالة) من
هذه الرسائل بين أيدينا بكلّ خصوصياتها
و تفاصيلها كُتِبَتْ بين يدي رسول الله
صلى الله عليه وآله و تحت نظره.

والمعلوم أنّ كلّ محتويّات هذه الرسائل هي أقواله و كلماته و أحاديثه في مختلف النواحي و المواضيع.

إنّ ما هو مُسلّم عند الجميع أنّ كلّ ما يصدر عن مصدر الوحي و الرسالة (و نعني الرسول) و إن كان يختلف أسلوباً عن القرآن الكريم إلاّ أنّه لا يختلف مفاداً عنه، كما لا يختلف من حيث حجّيته و لزوم اتّباع المسلمين له.

فلماذا ترى يُمنع من تدوين هذا الذي لا يختلف عن القرآن من حيث المُفاد و الحجّية و لزوم الاتّباع؟

و هل من الصحيح أن يقصى عن مجال
التدوين و الثبوت إلى مطاوي النسيان و
التجاهل، مصدرٌ من مصادر الدين؟

و هو زاجرٌ بالآلاف من أحكام الإسلام
و هو مبينٌ لمعاني الكتاب الكريم.

هكذا طوال قرن من الزمان حتى اذا
يجيء إلى الحكم خليفة أمويٌّ و هو عمر
بن عبدالعزيز الذي تسلّم الخلافة عام ٩٩
و مات سنة ١٠١ هـ.ق.

هو يُحسُّ بشيء من المسئولية و يتحسّسُ
الخطر الناشئ عن المنع من تدوين
الحديث النبويّ.

هو يرى أغنى مصدرٍ من مصادر
المسلمين على أعتاب الفناء و الدثور.

و يرى إلى جانب ذلك زمرة من الرواة
الوضّاعين المرتزقة يَغْتَمُونَ فرصة
انعدام نصِّ مكتوبٍ للحديث، فيعبثون
بأقدس مقدّسات الإسلام.

حتى اذا يجيءُ عمر - هذا - فيسمحُ بتدوين
الحديث و يحثُّ عليه، فيكتبُ من الشام
إلى أبي بكر بن حزم الذي كان من علماء
المدينة آنذاك قائلاً: «أنظرُ ما كان من
حديث رسول الله فَاكْتُبُهُ، فَإِنِّي خِفْتُ
دروسَ العلم و ذهابَ العلماء».^١

ثمَّ يَكْتُبُ - كما يقولُ الإصفهاني - قراراً
عامّاً لكلِّ الأقطار الإسلاميّة قائلاً:
«أُنظُرُوا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ فَاكْتُبُوهُ و

١ . صحيح البخاري، ج ١، كتاب العلم، ص ٢٧.

لَا تَقْبَلُوا إِلَّا حَدِيثَ النَّبِيِّ وَ لَتُقْسُوا الْعِلْمَ وَ
لَتَجْلِسُوا حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ الْعِلْمَ
لَا يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا، فَأَمْرُ أَهْلِ الْعِلْمِ
فِي أَنْ يَذْكُرُوا الْعِلْمَ فِي مَسَاجِدِهِمْ، فَإِنَّ
السُّنَّةَ كَانَتْ قَدْ أُمِيتَتْ»^١.

إِلَّا أَنَّ الْخَسَارَةَ الْكَبِيرَى الَّتِي مُنِيَتْ بِهَا
الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَ الْفِكْرُ الْإِسْلَامِيُّ
لَا يُمْكِنُ أَنْ تُعَوِّضَ - وَ لَمْ تُعَوِّضْ -
بِمِثْلِ هَذِهِ الْقَرَارَاتِ بِالسَّمَاحِ وَ بَعْدَ غِيَابِ
الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ زَهَاءَ قَرْنٍ، لِأَنَّهُ سَرَعَانَ
مَا مَاتَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَ حُلَّ مَحَلَّهُ
هَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ شَيْءَ
فِي عَهْدِهِ بِأَبْعَدَ عَنِ اهْتِمَامِهِ مِنَ الْحَدِيثِ

١ . حلية الأولياء، ج ٣، ص ٣٦٣؛ سنن الدارمي، ج ١، ص ٩٢.

و السنّة و الاهتمام بشؤون الإسلام و
المسلمين.

ولكنّ هشاماً هذا هو أيضاً تُوفّي في عام
١٢٥ ق، ليأتي بعده محمّد بن مسلم بن
شهاب الزهري، كبير مُحدّثي الشام و
الحجاز و يقوم بأمر الحديث و العناية به
و تدوينه من جديد.

الشيعة أسبق في تدوين الحديث

إذا كان المجتمع السُّني لم يدوّن الحديث النبوي - تحت تأثير أسطورة المنع التي قرأت عنها - طوال قرابة مائة عام، فإنّ الشيعة قد أقدمت على ذلك الأمر وقدمت في سبيل ذلك الكثير من التوضيحات.

فقد دَوّن الشيعةُ «الحديثَ النبويَّ» في عهد الرسول العظيم نفسه وواصلت الأمر بعده.

و كان امير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام هو أوّل من دوّن الحديث و وضع فيه كُتُباً - كما قرأت - .

ثمّ ها هو أبو رافع - بطل حديثنا هذا - يرتّب كتاباً باسم «السُّنَن و الأحكام و القضايا» يجمع فيه ما سمعه من النبيّ الكريم في الشؤون المختلفة كالصلاة و الزكاة و الحجّ و المرافعات و غيرها.^١ و اذا اعتبرنا هذا أوّل كتاب في الحديث فإنّه بإمكاننا أن نعتبره - كذلك - أوّل كتاب فقهي.

١ . الرجال للنجاشي، ص ٤.

و أمّا جلال الدين عبد الرحمن السيوطي
المتوفى عام ٩١١ ق يُصرُّ على اعتبار
علماء السنّة هم أوّل من وضعوا قواعد
العلوم الإسلاميّة و أسّسها، فيقول:

«أوّل من دوّن الحديث، الزهري و أوّل
من صنّف في الفقه، أبو حنيفة و أوّل من
صنّف أحكام القرآن، الإمام الشافعي»^١.

و...

في حين أنّ الزهري ولد عام ٥٠ هـ و تُوفّي
عام ١٢٥ ق، بينما سبقه أبو رافع بعشرة
أعوام قبل ميلاد الزهري و أنّ أباحنيفة
وُلد عام ١٠٠ هـ و تُوفّي عام ١٥٠ ق و سبقه
أبورافع بستين عاماً قبل ميلاد أبي حنيفة

١ . الوسائل إلى معرفة الأوائل، باب العلم، ص ٢٠٩.

وأنّ الشافعي وُلد عام ١٥٠ و توفي عام
٢٠٥ق.

فعلية يكون العالمُ السُّنِّيُّ قد باشر تدوين
الحديث من أواخر القرن الأوّل أو من
أوائل القرن الثاني في حين باشر الشيعة
هذا الأمر منذ أوّل يوم أيّ من عهد النبيّ
الرسول الأمين صلّى الله عليه وآله.

فَمَنْ تَرَى هُمْ السَّابِقُونَ؟

ثمّ بعد أبي رافع توفّر علماء الشيعة على
تدوين الحديث وضبطه، أوّلاً مُثَبِّتِينَ بِذَلِكَ
أَسْبَقِيَّةَ الشَّيْعَةِ عَلَى كُلِّ الطَّوَائِفِ وَالْفِرَقِ
فِي الْإِهْتِمَامِ الْبَالِغِ بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَ
السُّنَّةِ الْمَطَهَّرَةِ. وَ ثَانِيًا مُحَافِظِينَ بِذَلِكَ

على أحاديث أئمتهم من تحريف
المُحرِّفين و وضع الوضّاعين كما هو
ملحوظ لكلّ ذي عَيْنين.

٤. فارس الجهاد و عملاق الشعر؛ أبوسفیان بن
الحارث بن عبدالمطلب

كان من بني هاشم

و كان ابن عمّ للرسول العظيم

و كان أخوه من الرضاعة

لأنّه كان كالنبيّ محمّدٍ صلّى الله عليه وآله

واحداً من أحفاد عبدالمطلب و قد رضع

من حلّيمة السعدية - مرضعة الرسول -

بعض الوقت.

إِلَّا أَنَّ ابْنَ الْحَارِثِ لَمْ يَكُنْ مَجْرَدَ ابْنِ عَمٍّ
لِلرَّسُولِ بَلْ كَانَ زَمِيلَ طِفْلُوتهِ كَذَلِكَ،
يُوَازِيهِ فِي سِنِي عَمْرِهِ الشَّرِيفِ.

مِنْ هُنَا كَانَ عَارِفًا بِشَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ
العَظِيمَةِ وَخُلُقِهِ وَسَجَايَاهُ مَعْرِفَةً كَامِلَةً
وَ لِهَذَا كَانَ طَبِيعِيًّا جَدًّا أَنْ يَسَارِعَ إِلَى
الإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِالإِسْلَامِ وَ
يَعْتَنِقَ دِينَهُ فِي يُسْرٍ وَ إِقْبَالٍ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ ابْنَ الْحَارِثِ فَقَطْ بَلْ
وَقَفَ فِي صَفِّ أَعْدَاءِ الرِّسَالَةِ وَ صَارَ
مِنْ خِصُومِ الرَّسُولِ الأَلْدَاءِ، رَغْمَ أَوْامِرِ
القَرَابَةِ وَ الزَّمَالَةِ الَّتِي تَرِبُّهُ بِرَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

و الغريب أنّ هذا الموقف العدائي لم يكن عابراً، بل دام قرابة عشرين من الأعوام و لم يتأخّر فيها عن توجيه ما عرفه من أذى إلى الرسول.

و حيث إنّه كان يتمتّع بقريحة شعريّة فيّاضة، فقد راح يهجو المسلمين و ربما هجا النبيّ أيضاً هجاءً مؤذياً.^١

و من الواضح جدّاً كم يكون للهجاء بالشعر من التأثير في ظروفٍ لم يك أعداء الإسلام و الرسول من المشركين ليتقاعسوا عن استخدام أيّة وسيلة دعائيّة ضدّ الرسول و ضدّ دينه و ضدّ أتباعه.

١ . الإصابة، ج٤، ص ٩٠؛ الاستيعاب، ج٤، ص ٨٤؛ الدرجات الرفيعة، ص ١٦٥.

و من الواضح كم كانت أشعار أبي سفيان
بن الحارث في مصلحة المشركين!

و لكن لماذا ذلك العدا و الهجاء؟ و ما
هو الدافع اليه و الباعث عليه؟
لماذا يعادي المرء بمثل هذا العدا دين
ابن عمّه؟

و هو يعرف عن شخصيته أفضل من
الآخرين إذ خبر من قبل بخُلُقهِ و سجاياه
و بصدقه و طهره و تورّعه عن سفاسف
الصفات!

لا شيء يقوله لنا التاريخ في هذا الصدد،
فالتاريخ هنا ساكت.

و لكن لعلّ السبب كان هو ما كان عليه
المسلمون من الضعف و ما كان عليه
الأعداء من القوّة في بدء أمر الإسلام و
مطلع بزوغه.

أليست بديهيةً جدّاً أنّ:

أكثر الناس يخضعون عادةً للدعايات
المضلّلة و ضغط عوامل البيئة و المحيط
أكثر ممّا يتأثّرون - و قبل أن يتأثّروا -
بمنطق العقل و عامل الدليل؟

أجل، و كان ابن الحارث هو أيضاً متأثر
بدعايات أعداء الإسلام الضخمة.

فهو - ربما - كان يفكر في نفسه:

إذا كان الإسلام على حقٍ فلما أتباعه في
مُنتهى الضعف و أعداؤه في منتهى القوّة
و المنعة؟

أجل، هذا هو شأن الكثيرين من أبناء
الانسان.

فأكثرهم يقيّمون الأوضاع من خلال هذه
السطحيّة المهلهلة، دون أن يتعمّقوا فاذن
هم لا يرون سوى القشور، أمّا اللباب و
الأعماق فلا... ولا...

و مهما يكن...

فقد تغيّرت نظرة ابن الحارث أخيراً و
أبدي ميله إلى الإسلام في نهاية المطاف
و كان هذا - تماماً - يومَ كان الرسول قد
أعلن النفير لفتح مكّة.

و كانت جحافلُ الجيش الإسلامي تتحرّكُ
صوبَ مكّة؛ قاعدة الوثنيين و محطّ
أصنامهم.

في ذلك الحين الذي كان الإسلامُ يشهدُ
فيه تألّقَ صفحةٍ جديدةٍ في تاريخه...

فاذا كان المسلمون ذات يومٍ مستضعفون
يعانون على أيدي خصومهم و ألواناً من
العذاب القاسي و أنواعاً من الأذى الأليم
و اذا كانت ضربات المشركين تلجئهم
إلى الفرار بأنفسهم و بدينهم من موطنهم

إلى حيث يجدون الأمن و الاستقرار في
أرض الحبشة.

و اذا كان النبي صلى الله عليه وآله قد ترك
مكة...

و هو يحمل على كتفيه أوجاع ثلاثة عشرة
عاماً من المطاردة و التشريد و الأذى و
التنكيل؟

اذا كان كلّ هذا بالأمس و في أوّل عهد
الإسلام، فقد تغير كلّ شيء الآن.

فها هي صفحة جديدة من المجد الشامخ
الساحق تُفتَحُ أمام المسلمين.

هذا هو عسكرُ لجبٍ عظيم...

ها هي سمعة طائرة في الآفاق...

و ها هي صفوف المجاهدين الأشداء من
المسلمين مترابطة، متآلفة، هادفة، كأنها
الجبال في كبرياتها...

نعم لقد تغيّر كل شيء...

و بهذا التغيّر لابدّ أن تتغيّر النظرات إلى
الإسلام و لابدّ أن يُنظر إلى المسلمين و
أمرهم الآن من منظار آخر.

في محضر الرسول

لما علم ابن الحارث عن تحرّك المسلمين
و في مقدّماتهم صوب مكة دخل منزله و
أمر أهله بالتهيؤ للالتحاق بموكب النبيّ
على الفور.

... و تكون مفاجأة لأهل منزله...

مفاجأة حلوة و عظيمة و شيقة دفعتهم
فور سماعهم هذا الكلام من ابن الحارث
إلى القول بصوت واحد:

قد آن لك أن تبصر أنّ العرب و العجم
قد تبعت محمّداً...

و أنتَ في موضع عداوته و كنتَ أولى
الناس بنصرته...

أمر ابن الحارث غلامه بإحضار راحلته
و غادر مكّة بصحبة ولده جعفر بسرعة
كبيرة متوجّهاً حذب مدينة الرسول.

و هناك في الأبواء (هي منطقة بين مكّة
و المدينة) التقى بالنبىّ و أسلم على يديه.
أمّا كيف تمّ إسلامه؟

و كيف تغاضى الرسول العظيم عن
جرائمه الكبيرة و حملاته الشعريّة التي
شنّها على الرسول و المسلمين طوال
عشرين عاماً تقريباً.

فلكلّ ذلك قصّة طريفة و لذيذة، فالفضلُّ
أن نسمعها من لسان ابن الحارث نفسه.

يقول أبو سفيان بن الحارث:

خرجنا من مكّة نريدُ رسول الله، فسيرنا
حتى نزلنا الأبواء...

و قد نزلت مقدمة رسول الله الأبواء تريد
مكّة...

فَخِفْتُ أَنْ أُقْبَلَ... وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ نَذَرَ
دَمِي (أَيَ أَبَاحَهُ) فَتَنَكَّرْتُ وَ خَرَجْتُ.

أَخَذْتُ بِيَدِ ابْنِي جَعْفَرَ فَمَشِينَا عَلَى أَقْدَامِنَا
نَحْواً مِنْ مِيلٍ فِي الْغَدَاةِ الَّتِي صَبَّحَ
رَسُولُ اللَّهِ فِيهَا الْأَبْوَاءَ.

فَتَصَدِينَا لَهُ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ.

فَعَرَفَنِي فَأَعْرَضَ عَنِّي مَرَاراً إِلَى النَّاحِيَةِ
الْأُخْرَى.

فَتَحَوَّلْتُ إِلَى نَاحِيَةِ وَجْهِهِ الْأُخْرَى.

فَأَعْرَضَ عَنِّي مَرَاراً...

فَأَخَذَنِي مَا قَرُبَ وَ مَا بَعُدَ (مِنْ الظَّنُونِ)،
وَ قُلْتُ فِي نَفْسِي: أَنَا مَقْتُولٌ قَبْلَ أَنْ أُصَلَّ
إِلَيْهِ وَ أَتَذَكَّرَ رَحْمَتَهُ وَ بِرَّهُ وَ قَرَابَتِي بِهِ.

فتمسك ذلك مني...

وَ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يُفْرِحُ بِإِسْلَامِي
فَأَسْلَمْتُ^١.

الإمام عليّ عليه السلام يهدي

إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ
يَنْسِيَ تِلْكَ الْأَوْجَاعَ الَّتِي خَلَّفَتْهَا فِي نَفْسِهِ
عِدَاوَاتُ ابْنِ الْحَارِثِ لَهُ طَوَالَ عَشْرِينَ
عَامًا.

١ . طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٥٠.

فتلك الذكريات المُرّة القاسية لم تغادر قلبه إلى ذلك الحين.

و لذلك كان على ابن الحارث أن يلتمس وسيلةً عاطفيّةً مؤثّرةً اذا أراد أن ينجو و أن يجلب - بالتالي - رضی النبي بعد أن يُثيرَ فيه مشاعر الرحمة و القربى... و ما أقربها إلى الإثارة و هو رسول الرحمة و المحبّة.

و لكن ترى بآية وسيلةٍ يُمكنُ له ذلك؟

و مَنْ ينبغي أن يكونَ الوسيط؟

لم يكن ثمة أهلٌ لهذه الوساطة الخطيرة سوى امير المؤمنين عليّ عليه السلام لأنّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؛

أَقْرَبُ النَّاسِ،
وَأَخْصَهُمْ لَدَيْهِ،
وَأَدْنَاهُمْ إِلَى فُؤَادِهِ،
وَأَعْرَفُهُمْ بِخُلُقِهِ وَحَالِهِ،
وَأَدْرَاهُمْ بِمَوَاضِعِ الْعَاطِفَةِ مِنْ قَلْبِهِ.

نعم...

لم يكن هناك غير الإمام عليّ عليه السلام
يَصْلِحُ بَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْقِذَ ابْنَ الْحَارِثِ
مِنْ مَوْتٍ مُحْتَمٍ وَ يَدْخُلُهُ إِلَى أَحْضَانِ
السَّلَامِ وَالسَّلَامِ وَالْإِسْلَامِ...

و كان هذا فعلاً...

فقد قال الامام عليه السلام لابن الحارث:
«إِنَّتِ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ فَقُلْ لَهُ مَا
قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَهُ: «تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ
عَلَيْنَا وَ إِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ»^١.

فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسنَ قولاً
منه».

فَفَعَلَ ذَلِكَ ابْنُ الْحَارِثِ.

فقال له رسول الله ما قال يوسف لإخوته:
«لَا تَتْرِبَ عَلَيكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ
هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

^١ . سورة يوسف: ٩١ .

فَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ عُذْرَهُ وَعَفَى عَنْهُ.^١
و هُنَاكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:
«بَصِرَ ابْنَ عَمِّكَ الْوَضُوءَ وَالسُّنَّةَ وَرُحَّ
بِهِ إِلَيَّ».

و بَعْدَ أَنْ تَعَلَّمَ ابْنُ الْحَارِثِ الْوَضُوءَ وَ
السُّنَّةَ رَاحَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَصَلَّى مَعَهُ.
فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَنْ
يُعلنَ لِلْمُسْلِمِينَ: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَدْ
رَضُوا عَنْ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ فَارْضُوا
عَنْهُ».^٢

١ . الآية ٩٢ من سورة يوسف؛ الدرجات الرفيعة، ص ١٦٥؛ الإصابة،
ج ٤، ص ٩٠.

٢ . طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٥٢.

كلّ هذا الذي شاهده ابن الحارث من عطف الرسول و عظمة روحه و سُمُو أخلاقه و عفوه المطلق عن كلّ ما سبق منه...

كلّ ذلك كان حريّاً بأن يعمّق في نفسه الإحساس بالندم و الاستحياء من الرسول فقد ظلّ ابن الحارث مادام في حضرته لا يرفع رأسه إليه و لا ينظر في وجهه الشريف خجلاً و حياءً.^١

حقيقة أنّ ابن الحارث قد أثبت بعد إسلامه لياقته و صلاحيته و سرعان ما أخذ مكانه في صفّ الشخصيات الإسلامية العظيمة

١ . الدرجات الرفيعة، ص ١٦٥؛ الإصابة، ج ٤، ص ١٩١.

على أنه الذي كان يتمتع بقريحة شعرية غنية طالما استخدمها ضد الرسول.

و الرسول كان حزيناً لما بدر منه من هجاء الإسلام و المسلمين بشعره.

فاذا به يقول في ندمه على ما سبق منه، أبياتاً ظلت مع الزمن وثيقة إيمانه و إخلاصه و دليل حبه و اعتقاده.

يقول ابن الحارث:

• لعمرك إني اليوم أحملُ رايةً

لتغلب خيلُ اللات خيلَ محمد

• لكالمدلج الحيران أظلم ليُّهُ
فهذا أو إنِّي اليومَ أهدى و أهتدي

• هداني هادٍ غير نفسي و دلَّني

على الله من طردت كلَّ مطرِّدٍ^١

و يحلّ العام الثامن من الهجرة

و هذه مكّة التي اتّخذها أعداء الإسلام
الوثنيّون قاعدةً لهم واتّخذوا بيتها المعظم
مَحَطًّا لأصنامهم.

هذه هي تُفْتَحُ على أيدي جنود الله الذين
يُناهِز عددهم إثني عشر ألفاً من الجنود.

١ . طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٥٢؛ الكامل لابن اثير، ج ٢، ص ٢٤٣؛
السيرة النبويّة، ج ٤، ص ٨٦٠؛ الإصابة، ج ٧، ص ٩٠.

ها هي مكة تصبحُ في تصرّف النبي و
المسلمين.

و ها هي الكعبة المعظمّة تطهّر من
أرجاس الأصنام و تعودُ المدينة المقدّسة
التي كانت مسقط رأس الرسول وموطنه
الأصيل تُضافُ إلى أقطار الدولة
الإسلاميّة يُرَفِّفُ على ربوعها الوية
التوحيد. كلّ هذا لا يزالُ في بدايته...

و المسلمون لا يزالون يعيشون فرحة
الفتح ساعة نمتُ إلى رسول الله صلّى الله
عليه وآله خبرٌ عن استعداد قبيلة هوازن
لمُحاربة المسلمين في قوّة كبيرة
عسكريّة كاملة.

و فور أن يسمع الرسول بهذا النبأ يصدرُ
أوامره فوراً بالتهيؤ العام ويعدُّ المسلمين
بالنصر في مواجهة القادمة و هزيمة
الأعداء.

ثم تحرّك الجيش الإسلامي ذات اثني عشر
ألفاً جندياً نحو مركز تجمع مقاتلي هوازن
و قد انتدب رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
اميرَ المؤمنين علياً عليه السلام لحمل لواء
المسلمين.

وَصَلَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِي خَلْفَ وَادٍ بِاسْمِ
«حُنَيْنٍ» وَ خَيَّمُوا هُنَاكَ وَ بَاتُوا لَيْلَتِهِمْ.

مِنْ جَانِبٍ آخِرٍ انْتَدَبَتْ هِوَاظِنَ لِقِيَادَتِهَا
وَاحِداً مِنْ رِجَالِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ وَ هُوَ مَالِكُ
بْنِ عَوْفِ النَّصْرِيِّ.

و عَبَّأَ مَالِكَ جَيْشَهُ وَ نَظَّمَهُمْ وَ جَمَعَهُمْ فِي
وَادِي حَنِينٍ وَ خَطَبَ فِيهِمْ خُطْبَةً عَسْكَرِيَّةً
قَالَ فِيهَا:

«لِيُصَيِّرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أَهْلَهُ وَ مَالَهُ خَلْفًا
ظَهْرَهُ وَ اكْسِرُوا جُفُونَ سَيُوفِكُمْ وَ اكْمُنُوا
فِي شِعَابِ هَذَا الْوَادِي وَ فِي الشَّجَرِ...»

فَإِذَا كَانَ فِي غَبَشِ الصُّبْحِ فَأَحْمِلُوا حَمَلَةً
رَجُلٍ وَاحِدٍ وَ هُدُّوا الْقَوْمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا
لَمْ يَلْقَ أَحَدًا يُحْسِنُ الْحَرْبَ»^١.

ولم تكن قبيلة هوازن - على استعدادها و
كثرة عددها و قوّة عدّتها - لتُقاس بحجم
الجيش الإسلامي في شيء.

١ . المغازي للواقدي، ج ٣، ص ٨٩٥.

فقد كانوا قلة أمام عدد المسلمين الهائل
الذي كان يبلغ اثني عشر ألفاً جندياً.
ولهذا اغترّ المسلمون بكثرتهم و قلة
عدد العدو، و حسبوا أنّ النصر سيكون
من نصيبهم لا محالة ... لكثرتهم...

و بعد أن أتمّ الرسول صلاة الصبح، أمر
جيشه بالانحدار إلى وادي حنين.
و في هذا الوقت - تماماً - كان مقاتلو
هوازن قد كمنوا للمسلمين في الشعاب و
الأحناء فباغتوا المسلمين من كلّ صوب
فصفوف المسلمين الكثيرة-التي أعجبتهم
كثرتهم- لم تطق تلك الحملة المباغتة.

فاضطرت قبيلة «بني سليم» التي كانت
تشكّل مقدّمة الجيش الإسلامي - آنذاك -
إلى التراجع و لاذت الكئاب التالية - هي
الأخرى - بالفرار و التراجع أيضاً.

و انفرط نظام الجيش الإسلامي...
و واجه المسلمون خطر هزيمة كبرى و
أشرف المعسكر الإسلامي على أعتاب
سقوطٍ محتم و ذريع تضاعل معه كلّ
أمل بانتصار المسلمين!
وكانت ساعات في غاية الحراجة حقاً...

صمود على طريق الله

هنالك أُبتلي المسلمون...

هنالك تَمَيَّزَ أصحابُ الفداء الحقيقيّون من
مدّعيه في غير ما حقيقة...

هنالك حيث سطر أصحابُ الصمود
بصمودهم البطولي واستقامتهم في سبيل

الله أسماءهم في صفحات التاريخ بمدادٍ
من الخلود و الأبدية...

أجل...

لقد فرّ المسلمون أمام المباغته القاسية
في ذلك اليوم و ولّوا وجوههم شطرَ
مكة دون أن يلوي أحدٌ على أحدٍ.

و ثبتّ عشرة رجال أبطال من المسلمين
يضربون بالسيف بين يدي رسول الله.

كان أحدُهم الإمام عليّ عليه السلام الذي
ظلّ يدافع عن الرسول ببسالة غريبة.

و كان الآخرُ ابن الحارث الذي ظلّ لفرط
علاقته بالرسول و حرصه على سلامته
أخذاً بزمام بغلة الرسول يتقدّم معه إلى
الأمام يدفعُ عنه و يُدافع.

كَلِّ هَذَا وَ الرَّسُولَ لَا يَعْلَمُ بِهِ حَتَّى إِذَا
انْجَلَتْ الْغَيْبَةُ.

التفت اليه الرسول و قال: «مَنْ هَذَا»؟
فأجابه ابن الحارث قائلاً: أخوك أبو سفيان.
فقال الرسول: «اللهم نعم، إنه أخي».

و لَمَّا أَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ، نَزَلَ
مِنْ بَغْلَتِهِ وَ رَاحَ يَرْتَجِرُ قَائِلاً:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا بِنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
في هذه الأثناء - تماماً - كان ابن الحارث
قد التزم الدفاع الشامل عن رسول الله
بنفسه. فقال العباس للنبي:

هذا أخوك و ابن عمك أبو سفيان فارض
عنه! فقال النبي صلى الله عليه وآله:

«فَعَلْتُ، فَغَفَرَ اللهُ كُلَّ عداوَةٍ عادانِيها»
ثمّ التفت النبيُّ إلى أبي سفيان بن الحارث
و قال له: «أنتَ أخي لعمري».
فسرَّ ابنُ الحارث لهذه الكلمة العَظيمة
سروراً عظيماً فأكبَّ يطبع قبلات الشوق
على ركاب رسول الله. ^١ وَ لَقَدْ أَنشَدَ ابْنُ
الحارث حول مَواقفه بِحُنين أشعاراً
رائعة تعكسُ إيمانه الصادق بقدر ما
تعكسُ شاعريّته الفدّة. يقول أبو سفيان بن
الحارث:

لقد عَلِمْتُ أَفْنَاءَ كَعْبٍ وَ عَامِرٍ

غَدَاةَ حُنَيْنٍ حِينَ عَمَّ التَّضَعُّعُ

١ . طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٥٢؛ بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٤٨؛ السيرة النبويّة، ج ٤، ص ٨٢؛ تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٥١.

• بِأَيِّ أَخُو الْهَيْجَاءِ أَرْكَبُ حَدَّهَا

أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أَتَّعَتُّ

• رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ وَ اللَّهِ وَاسِعٌ

إِلَيْهِ تَعَالَى كُلُّ أَمْرٍ سَيُرْجَعُ^١

في مرثية الرسول

ولقد كان وفاة الرسول أكبر فاجعة أَلَمَّتْ
بالمسلمين...

فقد تركت المسلمين كلهم؛ رجالاً و نساءً
و أطفالاً في حزن عميق مقرح الفؤاد...
فكان ذلك الحادث الجلل الذي عبّر عنها
كبار الشعراء في صدر الإسلام بأشعار

١ . طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٥٢.

و قصائد تقطرُ أسىً بقدر ما تعبر عن
هول الفاجعة العظمى.

و كان ابن الحارث من جملةٍ عصرت
مأساةُ الوفاةِ قلبه، فقال في ذلك المصاب
شعراً فيه الكثير من لون النازلة بقدر ما
فيها من روعة الفن. فهو يقول:

• لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُنَا وَ جَلَّتْ

عَشِيَّةَ قَيْلٍ قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ

• وَ أَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا

تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيلُ

• فَقَدْنَا الْوَحْيَ وَ التَّنْزِيلَ فِينَا

يُرُوحُ بِهِ وَ يَغْدُو جَبْرَائِيلُ

• وَ ذَاكَ أَحَقُّ مَا سَأَلْتَ عَلَيْهِ

نَفُوسُ النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيلُ

• نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا

بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَ مَا يَقُولُ

• وَ يَهْدِينَا فَلَا نَخْشَى ضَلَالًا

عَلَيْنَا وَ الرَّسُولُ لَنَا دَلِيلُ

أ فاطمُ إن جَزَعَتِ فذاك عُذْرُ

وَ إن لم تَجْزَعِي ذاكِ السَّبِيلُ

فَقَبْرُ أَبِيكَ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ

وَ فِيهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسُولُ^١

لقد شهد ابن الحارث في عهد الرسول أحداثاً كثيرة و نقل عنه من الأحاديث شيئاً كثيراً إلا أن من أجمل ما نقل هو قول الرسول:

« لا يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لا يأخذُ الضعيفُ فيها حَقَّهُ مِنَ القَوِيِّ »^٢.

١ . الاستيعاب، ج ٤، ص ٨٤.

٢ . الإصابة، ج ٧، ص ١٥٣.

و الآن حيث تصلُ صفحات حياة أبي
سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب إلى
نهايتها تعالوا نشاهد معاً آخر صفحة من
تلك الصفحات الخالدة الوضيئة:

في أيام الحجّ أُبْتُليّ ابن الحارث بمرض
عاد معه إلى المدينة وما أن أحسّ بقُرب
أجله، خرج إلى البقيع قبل ثلاث أيام من
موته و احتفر بيده لنفسه قبراً و لمّا مات
ابن الحارث بعد ذلك بثلاثة أيام، دُفِنَ فيه
إلى جانب بيت (أو قبر) عقيل.

و فيما كان ابن الحارث راقداً على فراش
المرض يُحيط به زوجته وأبناءه و عرَفَ
ببكاءهم، التفت اليهم و قال:

« لا تَبْكُوا عَلَيَّ، فَإِنِّي لَمْ أَتَنَطَّفْ بِخَطِيئَةٍ
مُنذُ أُسَلِّمْتُ^١ .»

٥. الزاهد الكبير؛ أويس القرني

ما كان أويس مجرد نصير عادي من
أنصار الإمام علي عليه السلام فحسب، بل
كان حوارياً من حواريين المعدودين.
أليس هو ذلك الذي ارتفعت به عملة
الروح و تقوى الضمير حتى جعلته
صاحب سر الإمام علي عليه السلام و هي

١ . طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٥٣.

مكانة لن ينالها أحد عند عليّ عليه السلام
الآ من بلغ منتهى اللياقة، و غاية الصدق
بحيث يجعلان المرء محلاً للاعتماد، و
موضعا للثقة.

أجل... إنه أويس الذي سيكون واحداً من
العُنُق الذي سيقوم من بين حشود الناس
يوم القيامة عند ما ينادي منادي الله:

«أين حواريو عليّ»؟

لا... ليس غريباً هذا... فأويس (القرنيّ)
هو ذلك الرجل الذي أحبّ ربّه بصدق منذ
أن عرفه.

فكان ذلك الصالح المتزهد عن كلّ ما
تربط المرء بالحياة المادّية من تعلّقات
تافهة، المترفع على كلّ ما يمنعه من
استشراق جمال الحق.

فهو الذي كان يُعَدُّ - و بحق - واحداً من
الزُهَّاد المعروفين في صدر الإسلام و
كانوا يُعرَفون بـ«الزُهَّاد الثمانية» و هم
و إن لم يكن استقامة بعضهم موضع
اتِّفاق العلماء جميعهم إلاَّ أنَّ أويساً كان
موضع اتِّفاق الجميع، لِما شهدوه عليه من
تقوى صادقة و استقامة لم تتغيَّر.^١

الزُهَّاد الذين ذاع صيتهم و طرق حديث
زهدهم و تقواهم كلَّ قلبٍ و كلَّ سمع و
ألقي بظلاله على كلِّ مكان...

و هو الذي كانت حياته - برُمَّتْها - مزيجاً
خالصاً من الحبِّ الإلهي، و الانجذاب
الباهر إلى الله.

١ . راجع رجال الكشي ص ٩٠-٩١ .

و هي مَعَانٍ - كانت و تكونُ - موضع
دهشة البعض و استغرابهم.

لأنّها - بالنسبة اليهم - دروب لم يطرقوها
قطّ، و لأنّهم لم يتذوّقوا حلاوة المحبّة تلك
و برد الانجذاب ذاك و لم يعرفوا ما يكمن
في السير على طريق الله.

في الوقت الذي كانت هذه المعاني مبعث
(المغالاة) عند آخرين من ذوي الأنفس
الضعاف، ممّن انبهروا.

و اذا بهم يدفعهم الانبهار إلى أن يجنحوا
إلى عالم الخيال، فينسجوا حول اولئك
(الزهاد) و حول حياتهم، نسيجاً مكثّفاً من
القصص و الحكايات التي هي من
الأساطير قبل أن تكون من الحقيقة في
شيء.

فها هم المتصوّفون يذهبون الى تعريف
أويس على أنّه «قطبٌ» من أقطابهم و
ينسبون إليه شيئاً كثيراً من الكرامات.

و بذلك يكونون قد أحاطوا تلك الشخصية
المتألقة - و حياته كذلك - بهالة غليظة من
الإبهام و الغموض.

و اذا بأويس، الشخصية المتكاملة تغدو
بين أصابع هؤلاء أشبه ما تكون بمن
يكشفُ لضوء المصباح، طرفاً واحداً من
وَجْهه، فيغوصُ الطرف الآخر في دنيا
الغموض، بما يلقّه من ظلام.

و ها نحن - هنا - نبدأ النظر إلى أويس
- في هذه الزورة الخاطفة له - من الزاوية
المضاءه من شخصيته.

فَمَنْ هو أويس - قبل كلّ شيء -؟

إنه رجل من قرن^١ و هو بطن من بطون
«بني مراد»^٢.

رجل آمن بالرسول قبل أن يراه بل و دون
أن يراه قط.

ولعلك تعجب كيف أن أويساً لم يوفق للقاء
الرسول الكريم و هو في عصره؟

أقول لعلك تعجب إذا عرفت السبب؟

فقد كانت لأويس أم عجوز كان أويس
يودها كثيراً و يبرها غاية البر...

حتى أنك لتعجب - أيضاً - إذا عرفت بأن
أويساً بلغ به برّه بأمّه العجوز - هذه -
حداً دفع به الى أن يلخص في خدمتها كل
لذته في الحياة.

١ . بسكون الراء أو فتحها، على القولين.

٢ . قاموس الرجال، ج ٢، ص ١٣٤.

كما لخص في إسعادها كلّ أمانيه في دنياه
و اذا برّه بأمّه و حاجتها - هي الأخرى -
اليه و الى رعايته لها، يمنعانه من الهجرة
إلى المدينة للقاء سيّد المرسلين و التشرّف
بخدمته^١.

و لابدّ أن تعلم أنّ ما فعله أويس كان حتماً
من وحي عقيدته و دينه ليس إلا...

غير أنّ أويساً و إن لم يوفّق لزيارة
الرسول و لقائه و رؤيته - حتّى الأخير -
إلا أنّه لطالما وفق للقاء كثيرٍ من أصحابه
العظام، و لذلك عدّ من التابعين.

فها هو الرسول العظيم يقول في حقّه:
«أويس القرني خيرُ التابعين بإحسان».

١ . حلية الأولياء، ج ٢، ص ٨٧.

و الجدير بالذكر أنّه كان يطلقُ وصف
«الصحابي» على مَنْ أدرك محضر
الرسول و سمع منه و استفاد منه.

و كان يطلقُ وصف «التابعي» على مَنْ
لم يدرك محضر الرسول و لم يسمع منه
مباشرة بل أدرك أصحاب الرسول و سمع
منهم ما أخذوه عن الرسول بلا وسيط.

نبوة الرسول

و كان أويس كغيره من الزهّاد الحقيقيين،
الذين تربطهم بالله و شائخ و ثقي من المحبّة
الصادقة و الودّ الطاهر العميق، و يغمر
نفوسهم نور المعرفة الصادقة، و اذا بهم
- رغم كلّ ما يُحسّونه في أعماقهم من
رفعة و سموق - يربأون بأنفسهم أن
يتظاهروا بشيءٍ من ذلك و أن يجاهروا

أحداً بما يستكنُّ بين جوانحهم من
الأشواق الكبيرة و الانطلاقات العظيمة.

و ما أكثر هؤلاء الرجال الربانيين الذين
و إن كانوا قد قطعوا في طريق معرفة الله
أشواطاً بعيدة و ارتقوا الى مراتب عُليا
من الكمال الروحي و التسامى المعنوي،
الّا أنّهم ظلّوا - طوال زمن ليس بالقصير -
مخبئين وراء تواضعهم و بساطتهم.

فلا أحد يعرفُ عمّا تنطوى عليه نفوسهم
من سموّ، و لا أحد يعرفُ شيئاً عن سرّ
عظمتهم الكامن في الصدور...

لقد كان أويس من هذا الطراز تماماً...

من هذا الطراز، من الرجال الربانيين...

و لذلك - كما تكونُ الكنوز الخبيئة في
جوف الأرض، أو الغائبة عن الأبصار

في ركام الأطلال المهجورة - كان يعيشُ
في بساطةٍ من العيش مخبوءً وراء
بساطته لا يعرفُ عن عظمة روحه أحدٌ
من الذين كانوا يعيشون حوله.

ولكن - كما لم يكن للكنوز أن تبقى إلى
الأبد مغمورةً مهجورةً غائبةً عن
الأبصار - ما كان أويس ليبقى - إلى الأبد
- مجهول الشأن و العظمة عند الآخرين.

فها هو ذلك اليوم الذي تُصبح فيه تلك
العظمة المجهولة المكنونة وراء البساطة
و التواضع، منظورةً للجميع، قد أتى...

و كان ذلك ساعةً راح يتطلعُ الرسولُ
الكريم - بلهفة - نحو اليمن و يعلنُ عن
شوقه العجيب الى رؤية «أويس» قائلاً:

«وا شوقاه ... اليك يا أويس القرن!

ألا... و مَنْ لَقِيَهُ فَلْيَقْرَأْهُ مِنِّي السَّلَامُ».

فَإِذَا قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ وَ مَلَأُوهُمْ عَجَبًا مِمَّا عَايَنُوهُ عَلَى الرَّسُولِ مِنْ شَوْقٍ سَاخِنٍ إِلَى رُؤْيَا أُوَيْسٍ:

و مَنْ هُوَ أُوَيْسٌ ... يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

أَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

«إِنَّهُ - أَيُّ أُوَيْسٍ - إِنْ غَابَ عَنْكُمْ لَمْ تَفْتَقِدُوهُ وَ إِنْ ظَهَرَ لَكُمْ لَمْ تَكْتَرِثُوا بِهِ، يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ مِثْلَ رِبِيعَةَ وَ مَضَرَ، يُؤْمِنُ بِي وَ لَا يَرَانِي، وَ يُقْتَلُ بَيْنَ يَدَيِ

خليفتي، امير المؤمنين عليّ بن ابي طالب
في صفين»¹.

و لقد تحققت «نبوة الرسول» هذه حرفاً
بحرف.

فأويس لم يؤمن فحسب، بل و بلغ بإيمانه
مرتقى رفيعاً و مرتبة سامقة، حدى به
إلى أن يحيى - بعض الأحيان - ليالٍ
طويلة - بكاملها - في التهجد و التعبّد و
الصلاة.

فهو مرّةً يمضيها في قنوتٍ واحدٍ من
أقصى الليل الى أقصاه!

و مرّةً في ركوع واحد - كذلك -!

و تارةً في سجود - كذلك أيضاً -!

1 . سفينة البحار، ج ١، ص ٥٣.

ثمّ اذا هو يكتفي من الطعام و الغذاء
بالبلغة و باللباس بما يستر.

أمّا ما هو وراء ذلك فينفقه على المحاويج
في رغبة مدهشة و اندفاع غريب، و هو
بعد ذلك، يرفع أكفّ ضراعتة إلى ربّه و
يروح يناجيه ربّه في خشوع و اعتذار
بهذه الكلمات:

«اللهمّ من مات جوعاً فلا تُؤاخذني به
و من مات غريماً فلا تُؤاخذني به».¹

و بهذا لم يكن أويس بالزاهد الذي يكتفي
من الزهد بالابتعاد عن معترك الحياة و
عدم الاكثرات بما قد يصيب الناس من
نكبات و آلام و حاجة و حرمان بل كان
- و ظلّ - زاهداً حقيقياً عرف الزهد بأنّه

1 . حلية الأولياء، ج ٢، ص ٨٧.

«محبّة الله» محبّةٌ تذبُّ عندها أشواق
النفس إلى غيره و انشدادها إلى سواه و
تتقوى معها الرغبة إلى العمل الصالح، و
خدمة العباد من أجل الله ليس من أجل
سواه، شيئاً كان أو شخصاً.

و لذلك كان زاهداً أحبّ الله، و نسي في
جنبه كلّ تعلق زائف بغير الله لا يليقُ
بالأنفس المضاءه بأنوار المعرفة الإلهية
و الحبّ الالهي.

فاذا به يجمعُ بين التقرب إلى الله بالعبادة
الطويلة و الصلاة و نجدة المحرومين و
إيثار المحتاجين على نفسه، و مشاركتهم
في آمالهم و آلامهم و التأثر لما يحلُّ بهم
من نوازل الفقر و الفاقة و الحرمان.

أجل، لقد كان أويس - كأبي مسلم حقّ -
يدركُ في ضوء إيمانه الواعي و بصيرته
المستتيرة - أنّ نفسه مسؤولة تجاه ربّها،
كما هي مسؤولة أيضاً تجاه مجتمعها.

و لذلك فهو لا يستطيعُ أن يعيش في معزل
عن آمال مجتمعه و آلامه بحجّة التعبد أو
الصلاة، اندفاعاً وراء مفهوم خاطئ عن
التزهد.

و اذا فهو مدعوّ - في كلّ حين - للدفاع
ببسالة عن الحقّ.

و لذلك لم يكن ليقاعس - أبداً - عن الأخذ
بأيدي المحرومين و القيام بحقوقهم، و
تقديم العون اليهم ثمّ هو الذي ختم حياته
بالشهادة - كما ستعرف -.

و اذا أردت أن تقف على كل هذا من شفتيه فما عليك إلا أن تأتي معي لنستمع إلى جوابه على سؤال من يسأله عن حاله حيث يقول:

«كيف يُصبح رجلٌ إن أصبح ظنَّ أنه لا يُمسي و إن أمسى ظنَّ أنه لا يُصبح، يُبشِّرُ بالجنة و لا يعملُ عملها و يُحذِّرُ من النار و لا يتركُ ما يوجبها.

والله انّ الموت و غصصه و كرباته، و ذكر هول المطلع، و أهوال القيامة، لم تدع للمؤمن في الدنيا فرحاً.

و إنّ حقوق الله لم تبقَ لنا ذهباً و لا فضةً. و إنّ قيام المؤمن بالحقّ في الناس لم يدع له صديقاً.

نأمرهم بالمعروف و ننهاهم عن المنكر
فيشتمون أعراضنا و يرموننا بالجرائم و
المعايب و العظائم و يجدون على ذلك
أعواناً من الفاسقين...

إنه والله لا يمنعنا ذلك أن نقوم فيهم بحق
الله تعالى؟¹.

أويس و دعايات معاوية المضلّة

كانت وفاة الرسول الأمين صلى الله عليه
وآله و غيابه، فرصة مناسبة لأعداء
الإسلام القدامى الذين سرعان ما نشطوا
من أجل الظفر بأهدافهم، فوثبوا على
مساند الحكم و حملوا أنفسهم على رقاب
الأمّة.

1 . سفينة البحار، ج ١، ص ٥٣ و حلية الأولياء، ج ٢، ص ٨٣ بفارق بسيط.

و قد كان معاوية من بين تلكم الوجوه
المقيبة التي وثبت على السلطة.

على أن معاوية تسنم السلطة - أول ما
تسنمها - كوال من جانب المدينة العاصمة
ولكنه منذئذ و هو يفكر في الخلافة
لنفسه.

و قد مهد لهذا الأمر في ظلّ الخلفاء الذين
تعاقبوا على مسند الخلافة بعد الرسول و
راح يعزّز القواعد في انتظار الوقت
الملائم لإعلان الخلافة لنفسه.

حتّى اذا قُتل عثمان فكان مقتله فرصةً
مناسبةً لمعاوية الذي سارع إلى إعلان
الخلافة لنفسه وفق خطة ماهرة مخالفاً
بذلك أوامر الإمام امير المؤمنين عليّ بن

أبي طالب أكبر و أليق شخصيّة عرفتها
الأمّة بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

و قد حاول معاوية - بشدّة - أن يصرف
الناس عن الامام علي عليه السلام بكلّ
وسيلة عرفها و أن يمنع من وصول
صوت الحقّ الى أسماعهم بما أوتي من
مال و دهاء و سلطان.

و لذلك لم يفتأ يشتري - في سبيل ذلك -
الضمائر، و يستقطب - ما أمكنه - من
الشخصيّات الكبرى و زعماء القبائل و
رؤوسها بالمال مرّة و بالجاه أخرى.

غير أنّه نهج مع آخرين ممّن لم ينفع
معهم شيء - من الوسائل المذكورة -
وسيلة أخرى أشدّ خطراً و هي وسيلة

«الدعاية المضلّلة» ضدّ عليّ و أهل بيته
المكرّمين.

فانطلق يسعى للنيل من الإمام عليّ
عليه السلام و تشويه صورته المشرقة في
الأذهان، متظاهراً بمظهر المدافع عن
الحقّ المحامي عن الدين.

و كان طبيعياً - و للأسف - أن تتطلي
الحيلة على كثيرين و أن يحصل معاوية
من ورائها على أكبر النتائج.

حتى أنّه استطاع أن يزرع بذور العداة
للإمام عليه السلام في نفوس الشاميين و
أن يربّيهم على ضعيفته و حقه.

لقد استطاع معاوية بدعاياته المضلّلة
الشيطانيّة، أن يستحوذ على الأذهان - في
الشام - استحواداً كاملاً، عطلّ بواسطته

كلّ قدرة على التشخيص و الرؤية عند
الشاميين.

حتى عاد الشاميّ غير قادر - بنفسه - على
رؤية الأمور و التمييز فيها، بل بات يرى
كلّ ما يفعله أو يقوله معاوية، هو الحقّ
بعينه. و في ظلّ هذه الدعايات المضلّة -
بالذات- استطاع أن يؤلّب معاوية أهل
الشام ضدّ الإمام علي عليه السلام و أن
يخرج بجموعهم لمقاتلته تحت غطاء:

«الجهاد في سبيل الله».

بعد أن كان كثيرٌ من الشاميين قد اقتنعوا
بأنّ عليّاً ليس سوى عدوّ من أعداء الله
يجب قتاله.

و لم يكن ليفوت الإمام عليه السلام أن
يستفيد من كلّ فرصة لإيقاظ الشاميين

المغرّر بهم، و إيقافهم على حقيقة الحال
و لم يكن ليدع فرصة تمرّ دون أن يمزّق
قناعاً من أقنعة الزيف التي كان يتسترُّ
وراءها معاوية ليبدو وجهه الحقيقي
للرأي العام.

و لقد كان وجود جملة كبيرة من رجال
الرعيّل الأول الذين طالما أشاد بهم النبيّ
صلّى الله عليه وآله و أتى عليهم و على
إيمانهم و صدقهم و دفاعهم عن الحقّ و
حُسن بلائهم فيه.

كان وجود مثل هؤلاء الصفوة من
المسلمين في صفوف الامام عليّ عليه
السلام خير شاهد على حقانيّة امير
المؤمنين عليّ عليه السلام و سلامة نهجه
و بطلان معاوية و زيف مزاعمه.

بل و ربما كان وجود هؤلاء الصفوة بين جنود عليّ عليه السلام و إتباعهم لمنهجه باعثاً على تعميق الإيمان في بقيّة أنصار عليّ و جنوده فيما كان باعثاً على زعزعة الثقة عند أنصار معاوية.

و قد كان أويس القرني من هؤلاء الذين طالما سمع الناس مديح الرسول له و ثناءه عليه و إخباره عن إيمانه و استقامته على جادة الحق.

و قد كان من الطبيعي أن يكون لوجود أويس في صفوف الامام علي عليه السلام أثره الكبير. كيف لا...

و لم ينسَ الناس بعدُ، حبّ الرسول لأويس و شوقه الساخن إلى لقاءه و كلماته الذهبية في حقّه.

هذه الكلمات التي لا تزال تدوي في
الأسماع فتبدد كل شكّ يمكن أن يحوم
حول أويس: واشوقاه إليك يا أويس القرن.

من أجل كلّ هذا فقد كان وجود أويس في
أصحاب عليّ عليه السلام أكبر شاهد و
أقوى سند على حقانيّة امير المؤمنين عليّ
و بطلان معاوية و من ورائه كلّ دعاياته
و أراجيفه حول إمام المتّقين عليّ عليه
السلام. و لذلك لم يكن بمُستغرب أن
يحدّثنا التاريخ كيف حدث أن خرج بعض
أنصار معاوية من معسكره و التحقوا من
فورهم بمعسكر الإمام عليّ بعد أن سمعوا
بوجود أويس إلى جانب الإمام.

يقول أبو نعيم الأصفهاني عن ابن ابي ليلى
إنّه قال: نادى رجل من أهل الشام يوم
صفين: أفيكم أويس القرني؟

فقلنا: نعم و ما تريد منه؟

قال: اني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنَّ أويسَ القرنَ خيرَ التابعينَ بإحسان» ثمَّ عطف دابَّته، فدخل مع أصحاب عليٍّ عليه السلام.¹

ميثاق الشهادة

على أنْ لانضمام أويس إلى جيش الإمام، قصةٌ جديرةٌ بالتأمل، لأنها تعتبر - في حدِّ ذاتها - معلماً قوياً من معالم عظمة الشخصية عند أويس و دليلاً آخر على مدى تضحيته في سبيل الله و الحقِّ و إخلاصه لإمام المتّقين عليٍّ عليه السلام الذي كان يمثل الحقَّ أينما دار.

1 . حلية الأولياء، ج ٢، ص ٨٦ ؛ رجال الكشي ، ص ٩١ .

و اليك القصة - بكاملها - كما ينقلها أستاذ
الشيعة الأكبر الشيخ المفيد رحمه الله:

بينما كان عليُّ عليه السلام في طريقه الى
صفين، نزل بذي قار ليستريح و فيما هو
جالس لأخذ البيعة قال:

«يأتيكم من قِبَل الكوفة ألف رجل، لا
يزيدون رجلاً و لا ينقصون رجلاً
يباعونني على الموت».

فلم يمض على كلام عليّ عليه السلام
زمانٌ حتّى ظهر القوم الذين عناهم الامام.

قال ابن عباس و هو ابن عمّ الإمام و كان
من أنصاره و خاصّته:

فجزعتُ لذلك و خفتُ أن ينقص القوم
عن العدد أو يزيدون عليه، فيفسد الأمر
علينا و لم أزل مهموماً، دأبى إحصاء

القوم، حتّى وردوا عليه فجعلتُ أحصيتهم،
فاستوفيتُ عددهم تسعمائة و تسعة و
تسعون رجلاً ثم انقطع مجيء القوم.

فقلتُ في نفسي:

«إنا لله و إنا اليه راجعون، ماذا حمّله
على ما قال؟!»

فبينما أنا أفكّر في ذلك، إذ رأيتُ شخصاً
قد أقبل حتّى إذا دنى و هو رجل عليه قباء
صوف، و معه سيفه و ترسه و أدواته
فقرب من امير المؤمنين، فقال: أمدد يدك
أبايعك!

فقال له امير المؤمنين: «على مَ تبايعني؟»

قال: على السمع و الطاعة و القتال بين
يديك حتى أموت أو يفتح الله عليك.

فقال عليه السلام «ما اسمك»؟

قال: أويس.

قال الإمام: «أنت أويس القرن»؟

قال: نعم.

قال عليه السلام: «الله أكبر! أخبرني
رسول الله صلى الله عليه و آله أنني أدركُ
رجلاً من أمّته، يقال له أويس القرني،
يكون من حزب الله و رسوله، يموتُ على
الشهادة، يدخل بشفاعته مثل ربيعة و
مَضر.¹

1 . إرشاد المفيد، ص ١٤٩؛ إعلام الوری ص ٧٣ ، مع فارق بسيط.

أجل، لم يكن أويس مجرد نصير عادي
من أنصار الإمام عليّ عليه السلام بل كان
حواريّاً من حوارِيّيه. حوارِيّو النبيّ أو
الإمام الذين كانوا مواضع ثقة النبيّ أو
الإمام و صحابة سِرِّهما.

فها هو قد بلغت به عملة الروح و عظمة
النفس و تقوى الضمير حدّاً جعله موضعاً
لثقة الامام عليّ و صاحباً لسرّه.

يقول الإمام السابع موسى بن جعفر
عليه السلام: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى
مُنَادٍ: أَيُّنَ حَوَارِيٍّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولِ
اللَّهِ الَّذِينَ لَمْ يَنْقُضُوا الْعَهْدَ وَ مَضَوْا عَلَيْهِ؟
فَيَقُومُ سَلْمَانُ وَ الْمِقْدَادُ وَ أَبُو ذَرٍّ.

ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ:

أَيْنَ حَوَارِيِّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ وَصِيِّ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولِ اللَّهِ؟ فَيَقُومُ عَمْرُو
بُنُ الْحَمِقِ الْخُزَاعِيِّ وَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ
وَ مِيثَمُ النَّمَارُ وَ أُوَيْسُ الْقَرْنِيُّ»¹.

و لقد قاتل أويس هذا، يوم صفين، في
عداد رجالة المعسكر العلوي.

قاتل أعداء الله ببسالة رائعة غير مكترث
بالموت، قَتَلَ أَم قُتِلَ.

و قد استشهد - أخيراً - في ميدان القتال
بين يدي الإمام في ذلك اليوم و كتب بدمه
الزكيّ آخر صفحة من سجلّ حياته
المشرقة.

هو كان مؤمناً بأنّ الموت للمؤمن المجاهد
إن هو إلا تحليقة كريمة إلى سماء الخلود

¹ . تنقيح المقال، ج ١، ص ١٥٦؛ رجال الكشي، ص ١٥.

و الأ دخول مشرف إلى التاريخ من أوسع أبوابه. و لا يخفى أن بيعة أويس للامام امير المؤمنين وتواجده بين صفوف الإمام عليّ، و استشهاده بين يديه كان و سيظلُّ أقوى دليل على حقانيّة عليّ عليه السلام و منقبة أخرى تضاف إلى مناقبه الكثيرة و فضائله التي لا تُحصى.

بيد أن الاعتراف بهذه الحقيقة الساطعة، يبدو أنه كان ثقيلاً على بعض المؤرّخين القدامى، فراحوا يقلّون من شأن أويس باختلاق بعض القصص له مع عمر بن الخطاب، منها ما نقله ابونعيم الاصفهاني في صور مختلفة.¹

1 . حلية الأولياء، ج ٢، ص ٨٦-٨٢.

غير أنّ آثار الاختلاق بادية بوضوح لا
نُحِسُّ معه الحاجة إلى الردّ و التنقيد.

لقد دفعت هذه الحقيقة مدلّسي التاريخ و
وُضّاع الأكاذيب فيه إلى أن ينكروا
«مقتل أويس و استشهاده بين يدي الإمام
في صفّين» و عمدوا إلى تقديم موعد
وفاته عن ذلك الوقت بسنين.

فادّعوا أنّه «توفي في عهد خلافة عمر
عند العودة من حرب أذربايجان» و على
اثر مرض ألمّ به و توفيّ فيه و لمّا ارادوا
دفنه لم يجدوا للقبر و لا لصاحب القبر
اثرًا.¹

الّا أنّ نظرةً فاحصةً إلى هذه الحكاية
- كما ينبغي أن تسمّى - تهدينا بيُسْر إلى

1 . المصدر السابق.

فضيحة الاختلاق فيها و تكشف لنا كيف
أنّها من نسيج الوضّاعين و قراصنة
التاريخ، الذين أرادوا بهذا الاختلاق
إرضاء رغبة أسيادهم، فاسدلوا على
الحقيقة ستار الإنكار بدافع التعصّب تارةً
و تحت بريق المال تارةً أخرى.

الأمر الذي حدى حتّى بابن الجوزي الذي
لا تربطه بالشيعة أيّة وشائج أن يفند في
كتابه «تذكرة الموضوعات» الذي كتبه
للردّ على كلّ ما هو موضوع من
الأحاديث على لسان الرسول الكريم
صلّى الله عليه وآله.

أن يفند هذه الحكاية - التي حبكت للتغطية
على قصة بيعة أويس للإمام عليّ و

استشهاده في صفين - و أن يعتبرها من
وضع الوضّاعين و اختلاق المختلقين.¹

و بهذا ستصدقُ أيّها القارئ الكريم أنّنا لم
نكن بمبالغين حينما قلنا بأنّ حياة أويس و
شخصيّته المتألّقة، قد طمستنا في هالة من
الغموض.

ثم أنت ذا قد عرفت أنّ ما استخرجناه لك
- بالاعتماد على المصادر التاريخيّة -
من الحقائق عن الجانب المرئى و المضاء
من شخصيّة ذلك الزاهد المجاهد يدلّ بقوة
على عظّمته و أصالة شخصيّته.

1 . قاموس الرجال، ج ٢، ص ١٣٣.

٦. رجل الحرب و الحماسة؛ أنس بن الحارث الكاهلي

لم يقتصر جهاد أنس الكاهلي - في وقعة
عاشوراء بكر بلاء علي:
المقارعة بالسيف فحسب...

بل لم يتقاعس أنس - كذلك - عن الجهاد
بالكلمة و بسلاح التبليغ - و هو في ذروة
الجهاد الحامي - ساعة راح يذكر الناس
بمقام «عليّ» و نجله «الحسين» و أهل

بيتهما المكرمين عليهم السلام و ينبه تلك
الحشود على فضلهم و سلامة نهجهم.
جهاد باللسان كما باللسان و بالكلمة كما
بالسيف و كيف لا يكون أنس كذلك و هو
الذي امتلاً فؤاده حباً لعلّي و أهل بيته و
ولاءً لمنهجهم و اذا به يعيشُ لذلك الولاء
حتى آخر اللحظات.

و أيضاً هو الذي امتلاً قلبه بحُبِّ إمامه
الحسين بن عليّ و إذا بذلك الحبّ يجري
في كيانه مَجْرى الدم في العروق.

من أجل هذا نجده لا ينسى - و هو في
اللحظات الأخيرة من حياته - لا ينسى
أن يذكر إمامه العظيم عليّ بن أبي طالب
و يذكر به.

و إذا به يُحسُّ و كأنَّ روحاً جديدةً تمسُّ
شغاف قلبه، و تتفخُّ فيه نسمة الحياة كلَّما
ذكر عليّاً و كلَّما نطق باسمه...

و يا لجلال ذلك الحبِّ...

صحيح أنَّ الشجاعة و الإقدام و البسالة
في الجهاد و الرغبة الشديدة في الفداء و
التضحية هي صفات لا تستيقظ لدى
المرء في أيِّ حينٍ من أحيان عمره، بل
تستيقظ - أشدَّ ما تستيقظُ - و تبلغ ذروتها
في "عهد الشباب".

أ ليس من المعروف أنَّ عهد الشباب هو
عهد "التكامل الجسدي" الذي تتبعه
"يقظة القوى و الغرائز" و بلوغها حدَّ
الذروة..

الذروة في التكامل...
و الذروة في اليقظة...
و الذروة في الغليان و الاندفاع...
و لأجل ذلك قالوا الشباب قمّة الحياة...
و من ثمّ نجد الأمم إذا أرادت أن تدعو
أبناءها الى الانخراط في الجنديّة،
بادرت الى الشباب قبل الشيوخ فطلبت
من الشباب أن يتجنّد تاركاً الشيوخ
لوقت الضرورات.
أقول: ذلك صحيح إلا أنّه ليس بالقاعدة
التي تجري في كلّ مكان و على كلّ
إنسان على السواء.

وبعبارة أكثر وضوحاً ليست هذه القاعدة
بالصادقة مائة بالمائة و إنما هي قاعدة
محمولة على الأغلب إذ من الصحيح أن
عهد الشيخوخة يضعف من فورة هذه
الغرائز و الاندفاعات و يخفف من
سخونتها.

بيد أنه ليس كل أبناء البشر تجري عليهم
هذه السنّة.

فهنالك من تظلّ معهم جذوة الشجاعة و
الرغبة في الفداء على حالها - مهما
كبروا - لا تُخفف ولا تترخي و لا يقلل
من سطوعها و سخونتها تقدّم في العمر
و تُمادٍ في الكبر.

بل هم في سنّ الشيخوخة - كما هم في عهد الشباب - تغلي في صدورهم مشاعر التضحية و تجيِّش الرغبة في الفداء من أجل الأهداف.

فإذا بهم يتطلّعون الى الجهاد بالشوق ذاته الذي يدفع الشباب، و بالشجاعة... نفسها...!

و كان أنس - بطلنا - من هذا القبيل...
من الرجال القلائل...

فأنس لم يمض شبابه - فحسب - في الجهاد من أجل الله و في سبيله بل و ذهب - و هو في عهد شيخوخته الطاعنة - كذلك يجاهدُ و يجالُدُ و يقارعُ و يقاتلُ و يعانقُ السلاح و يشتركُ في المعارك غير هيّاب

و لا خائف.

يقاتلُ في فدائية باهرة، تنطلقُ من بطولة
عملاقة، من بصيرة بالحق لا تزيغ.

فهذا تاريخه الجهادي يقول:

ها هو في معركة "أحد" يقاتلُ بين يدي
رسول الله صلى الله عليه و آله.

و ها هو في معركة "صفين" يقاتلُ بين
يدي امير المؤمنين عليه السلام أيضاً.

و في كلّ هذه المعارك يبلي-في سبيل الله
و الدفاع عن الإسلام-بلاءً حسناً و لا شكّ
أنّ أنساً - كغيره من المسلمين الذين رأوا
الرسول و صحبوه و أخذوا عنه الكثير
من حقائق الإسلام و معارفه كان ينبغي

أن يُروى عنه الكثير من الأحاديث عن
الرسول صلى الله عليه وآله.

إلا أنه - رغم ذلك- لم يُنقل عنه في كُتُب
الحديث والرجال من الحديث شيء كثير
كما أن حياته- هي الأخرى - قد تعرّض
لذكرها العلماء - في كتبهم التي تبحث
عن أحوال الرجال - باختصار.

إلا أن حديثاً نقله أنس عن الرسول - كما
هو مذكور في حياته- يكفي لإلقاء الضوء
على مدى إيمانه و مدى تضحيته في
سبيل الحقّ.

هذا إذا عرفنا كيف أنّ ذلك الحديث ترك
أثراً كبيراً على حياتاه و طبع مصيره
- في النهاية - بلون الخلود.

التنبؤ بمصرع الإمام الحسين عليه السلام

كان ذلك الحديث يرتبط بالتنبؤ بمصرع
حفيد الرسول، الإمام الحسين بن علي
عليهما السلام في كربلاء.
فلندع أنساً ينقل لنا الحديث.

يقول أنس: سمعت رسول الله يقول:

«إنّ ابني هذا - الحسين - يُقتلُ في أرضٍ
بأرضِ العراقِ فمن أدركه فليَنصُرْه»^١.

١ . أسد الغابة، ج ١، ص ١٢٣.

كان هذا ما سمعه أنس في زمن الرسول
ثم دارت دورة الزمن.

و تلاحقت الأعوام الخمسون حتى كان
عام ٦٠ للهجرة، يوم توجه الحسين بن
علي حفيد الرسول الى العراق..
بدعوة مُلِحَّة من أهل الكوفة...

و يبلغُ الخبر (خبر خروج الإمام الحسين
من مكة إلى العراق) إلى مسامع أنس.
و يتذكَّرُ عندها نبوءة الرسول الصادق
الأمين عن استشهاد حفيده؛ الحسين في
أرض بأرض العراق...
و يفكِّر لحظةً...

لحظةً من تلك اللحظات الصعبة جداً
على الذين لا يحملون شعوراً صادقاً
بالمسؤولية و إيماناً عميقاً بالحق.

حقاً أنّها لحظاتٌ صعبةٌ جداً، لأنّها ساعةُ
الاختيار بين الموت و الحياة...

و لكنّ أنساً لم يكن من هؤلاء السطحيّين
العقيدة،

بل سرعان ما اتّخذ قراره و هو لم يكن
إلا الاتحاق بالحسين طبعاً،

لأنّه قد سمع من الرسول ما قال حول
مقتل الحسين...

و لا يزالُ ظنين تلك الكلمات النبويّة لم
يغادر سمعه و فؤاده...

«إِنَّ ابْنِي هَذَا يُقْتَلُ فِي أَرْضِ بِأَرْضِ

العراقِ فَمَنْ أَدْرَكَهُ فَلْيَنْصُرْهُ»

و كان طبيعياً أن يسارع أنس الى اتخاذ

قرار الالتحاق للنصرة.

إذ لم يبق لأنس بعد هذه الكلمات أيّ

تردد و لم يتردد.

بل التحق - وهو على بصيرةٍ من أمره -

بركب الإمام الحسين، في عزم ثابت و

يقين غير مهزوز.

و احتلّ مكانه بين شهداء كربلاء الإثنين

والسبعين الذين ضربوا في الدفاع عن

حقّ الحقّ أعظم الأمثلة، و رَوُّوا شجرة

الدين بدمائهم الزكيّة و حموا صرحه

بسورٍ من الجماجم، إرتفع بعضها - فيما

بعد-فوق الرماح لتعلن من أعلى الأعلي
للعالم إنتصار الحقّ و هزيمة الباطل...

أجل، إلتحق أنس بالحسين و لم تقعد به
شيخوخته الطاعنة عن هذا الأمر.

فهو و إن كان قد أصبح طاعناً في السنّ
إلا أنه ظلّ يحتفظ بين جوانحه إيماناً
شامخاً و بطولةً عظيمةً و روحاً جهاديّةً
غلابة تثير من حماسة المعارك ما تثير.

فهو عند ما طلب من الإمام الحسين- يوم
عاشوراء - أن يأذن له بجهاد الأعداء و
أجازة الإمام، راح يتهيأ للحملة على
الأعداء.

فكانَ مشهَدُ الإِسْتِعْدَادِ مشهَداً يثيرُ كثيراً
مِنَ الإعْجَابِ، بِبطولَةِ شِخوْخَةٍ طَاعِنَةٍ
لَمْ تُقَوِّضِ السَّنونُ مِنْ صلابَتِها وصمودِها
...تمنطق بحزام قماشي في وسطه.

رفع حواجبه البيضاء التي كانت متدلّية
على عينيّه رفعها عنهما و شدّها بعصا بة
بيضاء على جبينه لكي لا تحجبانه عن
الرؤية في ميدان القتال.

كلّ حركاته كانت تقطر شجاعة و تحكي
عن إرادة جهاديّة غلّابة لا تكثرت،
لا بالموت مهما كان قاسياً و لا بالأعداء
مهما كانوا كُثّاراً.

و لهذا كان هذا المشهد من الإِسْتِعْدَادِ
البطولي مثار إعجاب الحسين الذي كان

يراقبُ ما يفعله أنس و هو يستعدُّ للهجوم
على أعداء الله.

ذلك الإعجاب الذي عبّر عنه الإمام
الحسين عليه السلام بخطابه إلى أنس:
«شَكَرَ اللهُ لَكَ يَا شَيْخَ»^١.

و انطلق الشيخ البطل أنس نحو الميدان
و حَمَلَ عَلَى جموع الأعداء كما تحملُ
الأسود المغضبة و هو يرتجزُ بهذه
الآبيات:

قَدْ عَلِمَتْ كَاهِلُنَا وَ دُودَانُ
وَ الْخَنْدَفِيُّونَ وَ قَيْسُ عَيْلَانِ
بِأَنَّ قَوْمِي آفَةٌ لِلْأَقْرَانِ

١ . مقتل المقرّم، ص ٢٥٣.

يا قومُ كُونُوا كَأَسْوَدِ خَفَّانٍ
• وَ اسْتَقْبِلُوا الْقَوْمَ بِضَرْبَةِ الْآنِ

أَلِ عَلِيٍّ شَيْعَةً لِلرَّحْمَانِ
وَ أَلِ حَرْبٍ شَيْعَةً لِلشَّيْطَانِ^١

وهكذا لم يقتصر كفاح أنس على الضرب
بالسيف بل راح يكافح - وهو في ذروة
الحرب - عن دينه باللسان...

فهو لم ينس - في ذروة حماسة المعركة -
أن يستخدم سلاح البلاغ والتبليغ فيتحدّث
عن فضل أهل البيت و مكانتهم و يعرف
بهم.

١ . الأمل للصدوق، ص ٢٢٤.

و كيف تريدُ أن ينسى أنس ذلك؟
و قد اختلطت محبة آل الرسول بدمه و
لحمه!

فاذا هو يعيشُ لِحُبِّ عليّ و هو يموتُ
لِحُبِّ وَاَدِه و يأخذُ بمنهاجهم.

و لقد بلغ هذا الولاء الصادق في فؤاد
بَطْلَانَا؛ أنس حدّاً جعله يلهج باسم عليّ و
أهل بيته حتى و هو على أعتاب الحمام
و في زحمة القتال و في قلب عاصفة
الدم.

بل هو إذا ذكر عليّاً أحسنّ بنفحةٍ حياةٍ
جديدة تمسّ سُويداء قلبه و تبعثُ فيه
نبضاً جديداً.

أجل، هكذا ظلّ الشيخ البطل أنس يجاهدُ
يوم عاشوراء بالكلمة و السيف معاً.

يجاهدُ في شجاعة تبهر و بطولة تتصاغرُ
عندها بطولات الشباب... و ظلّ يجاهدُ و
يجالذُ.

حتى سقط صريعاً على رمال الطفّ بعد
أن أردى من الأعداء أربعاً و عشرًا^١.

و بهذا الأستشهاد في طريق الله، و ببذل
الدم جعل نفسه في عداد أنصار الله الذين
يزورهم الإمام المهدي الحجة بن الحسن

١ . نفس المهموم، ص ١٥٤.

عليه السلام و يروح يسلم عليهم واحداً
واحداً - كما في زيارته المعروفة - و هو
بذلك التسليم عليهم يُكبرُ فيهم مواقف
البطولة و الصمود و مواقف الفداء و
التفاني في يوم عاشوراء.

فيقولُ الإمام المهدي عليه السلام:

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَنَسَ بْنَ الْحَارِثِ الْكَاهِلِ
(الكاهلي) الأَسَدِي.^١

^١ . زيارة الناحية المقدسة، ابن المشهدي، المزار الكبير، ص ٤٩٣ الإقبال
للسيد ابن طاووس، ج ٣، ص ٧٣.

أجل...

السلام عليك يا أنس

السلام عليك يا ناصر أبي عبدالله الحسين

السلام عليكم يا كلّ رفاق أنس في سلاح

السلام عليكم يا كلّ شهداء كربلاء...

يا أنصار الحسين الأبطال

و يا أنصار الحقّ و العدل و الدين...

السلام علىّ تلكم الأجساد الزكيّة الراقدة

علىّ تراب كربلاء في يوم عاشوراء و

هي تعانقُ الخلود...

بعد أن بذلت في سبيل الله صفوة الحياة..

٧. مَنْ يَكُونُ مُلْجَأَ الْأُمَّةِ فِي الْفِتَنِ؟ أَبُو لَيْلَى الْغَفَارِي

هناك سؤال يَنْطَرِحُ...

إنّه - و إن كانت كُتُبُ الرِّجَالِ و التاريخ
لم تتناول كلَّ فصول حياتِه - إلا أن ما
نقله عن لسان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وآله حولَ مَنْ يَكُونُ مُلْجَأَ الْأُمَّةِ فِي الْفِتَنِ
و مرجعها في الحوادث كان كفيلاً.

بأن يُلقَى عليه ضوءٌ مكثِّفاً مِنَ الشَّهْرَةِ
فِي كِتَابِ الرِّجَالِ...

فما هو ذلك الحديث؟

و مَنْ هُوَ مُرْجِعُ الْأُمَّةِ فِي الْفِتَنِ؟

كلّ هذا ستقرأه فيما يلي...

قد يكون نقلُ حديثٍ من الأحاديث مبعثَ الشهرة لناقله إذا كان ذلك الحديث ذاته من الأهميّة و الخطورة بمكان.

فببقى اسم الناقل هذا ثابتاً و لامعاً في صفحات التاريخ مادام الحديث ذاك ثابتاً تزوره الأعيُن و تتناقله الألسُن و الكتب. و لقد كان أبوليلي نموذجاً من هذا النمط، فنحن لم نجد اسمه في كتب التاريخ أو الرجال رغم الدراسة الطويلة و البحث الموسع عنه.

ولكننا وجدناه جنباً إلى جنب مع حديث بالغ الخطورة نقله عن الرسول الأعظم

حول مَنْ يكون مرجع الأمة حينما تهجم
عليها الفتن...

حديثاً عُرِفَ به فيما بعد في كتب الرجال
فما هو حديث أبي ليلى المعروف في
الكتب؟

يقولُ أبو ليلى سمعتُ رسول الله يقول:
«سَتَكُونُ بَعْدِي فِتْنَةٌ،

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْزَمُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ،
فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِي،

وَ أَوَّلُ مَنْ يُصَافِحُنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ،

هُوَ الصِّدِّيقُ الْأَكْبَرُ وَهُوَ فَارُوقُ هَذِهِ الْأُمَّةِ
يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ،

وَ هُوَ يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَالَ يَعْسُوبُ
الْمُنَافِقِينَ»^١.

إِنَّ مِنْ أخطر ما يمكن أن يتعرضُ له
كاتب أو مورِّخ هو أن يخلط في ما يكتبُ
و ينقل عن التاريخ، آراءه بالحقائق في
مجال حياة العظماء.

فينتقدُ أو يمجِّدُ و يذمُّ أو يمدحُ منطلقاً من
مقاييسه الشخصية و آراءه الذاتية دون
احتكامٍ إلى ما هو متفق عليه بين أرباب
العلم و التحقيق من معايير النقد و أصوله
التي مرّت على التمحيص و تنزّهت عن
شوائب الهوى و الانحياز.

١ . الإصابة، ج ٤، ص ١٧٠؛ الاستيعاب، ج ٤، ص ١٦٩ في هامش
الإصابة.

إِذْ مِنَ الْبَدِيهِی سَاعَتِنِذِ (إِذْ تَخْتَلِطُ الْأَرَاءُ
بِالْحَقَائِقِ) أَنْ تُقَلِّبُ الْحَقَائِقَ وَ يُصَابُ عَالَمُ
الْفِكْرِ وَ الْعِلْمِ بِخَسَائِرٍ لَا تَجْبِرُ بِحَالٍ.

وَ لَقَدْ وَقَعَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ الْعَالِمُ السَّنِّيُّ
الْمَعْرُوفُ فِي مِثْلِ هَذَا الْخَطَأِ تَمَاماً لَدَى
تَعَرُّضِهِ لِحَيَاةِ «أَبِي لَيْلَى».

وَ ذَلِكَ عِنْدَ مَا نَفَى وَجُودَ هَذَا الْإِسْمِ فِي
كُتُبِ الرِّجَالِ بِالْمَرَّةِ بِقَوْلِهِ:

«لَا يُوقَفُ لَهُ عَلَى اسْمٍ»

ثُمَّ يَرُوي الْحَدِيثَ الْمَذْكُورَ عَنْهُ...

ثُمَّ يَعْمَدُ إِلَى تَضْعِيفِ أَحَدِ رُؤَاةِ حَدِيثِهِ وَ
هُوَ إِسْحَاقُ بْنُ بَشِيرٍ فَيَقُولُ:

«و اسحاق بن بشير ممن لا يُحتجُّ بنقله
اذا انفرد لضعفه و نكارة حديثه».

و هكذا تختلطُ الأهواء مع الحقائق و
الذات مع الواقع عند ابن عبدالبرّ فاذا به
ينكرُ متن حديث مشهور و يتنكرُ له في
غير ما سبب وجيه.

و لا شكّ أنّ متن الحديث لو كان حول
أحد الخلفاء غير عليّ عليه السلام لما كان
عنده غير منكر - ساعتيذ - فحسب.

بل لأقام عليه ألف دليل و دليلاً و لبرهن
على صحّته بألف قرينة و قرينة.

و لكن حيث كان الحديث يتحدث عن عليّ عليه السلام، نجد البصائر الملتاثة بالهوى لا تقدر على أن تراه و أن تقبله بل تسعى-كما هو دأبها مع كل ما هو في حقّ عليّ عليه السلام-أن تردّه و تردّ معه كلّ شيء يدلّ على فضل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام و أفضليّته بما يتأخ لها من أعدار و تشبّثات.

إلا ابن عبدالبرّ ينسى أنّ هذا الحديث من الشهرة والذيع في كتب الشيعة و السنّة ما لا ينفع معه إنكار و لا يجدي تنكّر أو تضعيف.

لمزيد من الاطلاع راجع في هذا الصدد كتب الفضائل و المناقب.

و على الخصوص كتاب « غاية المرام »
تأليف المرحوم السيد هاشم البحراني و
أيضاً موسوعة الغدير القيّمة.

فقد نقل صاحب الغدير العلامة الاميني
قول الامام امير المؤمنين علي عليه السلام:
«أنا أوّل الناس إسلاماً و أقدمهم إيماناً»
ثمّ أنّ الإمام يقول:

«أنا عبدالله وأخو رسول الله وأنا الصديق
الأكبر لا يقولها بعدي إلا كاذب»^١.

١ . مروياً في الجزء الثالث من موسوعة الغدير الصفحة ١٩٩-٢١٣ لطباعة النجف الأشرف عن ٦٦ صحابياً مع ذكر المسانيد و المراجع. الغدير، ج ٢، ص ٢٨٢ ثمّ إنّ العلامة الأميني ذكر بالتفصيل في الغدير، ج ٣، ص ١٦٠، مصادر حديث «إنّ علياً هو فاروق هذه الأمة».

٨. الجنديّ المجاهد؛ أبو ليلى الأنصاري

لِيَكُنْ اسْمُهُ مَا يَكُنُ ...

لَا يُهَمُّ ...

إنّما المهمّ هو: أنّه قضى كلّ حياته على جبهات الجهاد و الكفاح من أجل الله و الحقّ و ظلّ طوال ذلك يضرب بسيفه في سبيل الله و كأنّه أراد أن يحضر اسمه بالسكين على خريطة التاريخ.

و إن كان التاريخ لم يحفظ اسمه أو لم يدوّن على صفحاته كلّ تفاصيل حياته.

فَلْيَكُنْ اسْمُهُ...

لَا يُهِمُّ

المهمّ... أَنَّهُ ظَلَّ يَجَاهِدُ ... حَتَّى...

علماء الرجال و كُتَّابُ التَّراجم اختلفوا
في ذكر اسمه الأصلي:

فمنهم مَنْ قال: إِنَّهُ يسار

و منهم مَنْ قال: إِنَّهُ أويس

و منهم مَنْ قال: إِنَّهُ داود

لَا يُهِمُّ...

المهمّ أَنَّ الجميع - رغم ذلك الاختلاف -

اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ كَانَ واحداً مِنْ كِبَارِ

صحابَةِ الرِّسُولِ و أنصارِهِ.

و أنّه اشترك في بدر و في كلّ الغزوات
و الحروب التي تلتها...

و كانت له في ساحات الجهاد، مواقف.

ثمّ هو مضافاً إلى ذلك كان من أنصار
عليّ عليه السلام وصيّ الرسول...

معبراً بذلك عن وحده القائدين و وحدة
الهدف...

فها هو...

العالم الرجالي الشيعي المعروف السيّد
علي خان المدني يقول: «إنّه - يعني
أبوليلي - كان من أصحاب امير المؤمنين
من الأصفياء».

و ها هو ابن الخلكان يقول:

«شهد أبوليلى وقعة الجمل و كانت راية عليّ (عليه السلام) معه».

وها هو الذهبي هو الثالث يقول:

«قُتِلَ أبوليلى في صفّين بين يدي امير المؤمنين»^١.

اما ابن عبدالبرّ فيقول:

«شهد هو و ولده عبدالرحمن مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مشاهده كلّها»^٢.

بعد كلّ هذا فليختلفوا في اسمه...

١ . الدرجات الرفيعة، ص ٤٤٧.

٢ . الاستيعاب، ج ٤، ص ١٦٨. و قد نقل ابن حجر كذلك في الإصابة بما يقرب من هذا المضمون، ج ٤، ص ١٦٩.

مادام الجميع يتفقون على أنه الصحابيُّ
صاحب المواقف الثابتة سواء مع النبيِّ
أو مع وصيِّه امير المؤمنين عليه السلام.

٩. موقف صامدٌ و نصرَةٌ صادقةٌ؛ بريدة بن الخصيب
الأسلمي

بجريمة قول الحقّ ...

أجل، بجريمة قول الحقّ...

أُتِّهِمَ بُرَيْدَةَ بِالشَّغْبِ عَلَى أَيْدِي أَجْهَزَةِ
الْخَلِيفَةِ الْجَدِيدِ! إِنَّهُمْ كَانُوا يَرِيدُونَ بِهَذِهِ
الْحَرْبَةِ أَنْ يُخْرِسُوا بُرَيْدَةَ عَنِ قَوْلِ الْحَقِّ
وَالْجَهْرِ بِهِ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ.

إنهم بهذه التهمة كانوا يريدون إسقاطه
عند الرأي العام ليتخلصوا من حرّ لسانه
الذي ما كان يفتأ عن قول الحقّ.

و لكن بُرّيدة البطل كان يكشف نواياهم
أولاً بأول.

و لم يكن يسمح لنفسه بأن ترهب تلك
الثّهم أو تتهيب.

فبُرّيدة لم يكن بالرجل الذي تخيفه
تضليلات السياسة و ثّمها الكاذبة أو
تهزمه.

كلا...

فقد كان كالجبل الأشم لا يترك فرصة
تمرّ عليه في نضالة الشريف ضدّ نظام
العنف و القهر!

تحت ضغط المشركين والوثنيين أضطرّ
رسول الله أن يهاجر مكّة؛ مسقط رأسه و
موضع نشأته و موطنه الأصيل.

لقد كان رسول الله يحبّ مكّة حبّاً شديداً و
خاصّاً..

و لا غرو ...

فهي وراء أنّها تضمّ بين جوانبها بنية
الكعبة المقدّسة؛ أقدس بقعة للتوحيد و
العبادة كان صلّى الله عليه وآله قد طوى
فيها ثلاثاً و خمسين سنةً من سني حياته

و الحَٰنِينَ و الحبِّ في مثل هذه الحالة
شيئان طبيعيان.

مِن هِنَا فَإِنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَ خَرَجَ
مِن مَكَّةَ مُهَاجِرًا مُّكَرَهَا كَانَتْ مَشَاعِرُ
أَسَىٍّ عَمِيقَةٍ تَعْتَصِرُ قَلْبَهُ الشَّرِيفِ وَ تُظِلُّ
عَلَىٰ مَحْيَاهِ الْكَرِيمِ مَسْحَةً مَشْهُودَةً مِّن
الكَآبَةِ وَ الْحَسْرَةِ.

فَسَاعَةَ اخْتَفَتْ عَن نَّظَرِيهِ آخِرَ أَثَرِ
لِبَيْوتِ مَكَّةَ وَ جَدْرَانَهَا تَرَقَّرَتْ الدَّمُوعُ
فِي عَيْنَيْهِ فَأَلْقَىٰ عَلَيْهَا آخِرَ نَظَرَاتِهِ
الْحَزِينَةَ وَهُوَ يَتِمَّتُّ بِدَعَاءٍ مِّنْكَسِرٍ إِلَىٰ رَبِّهِ
بَأَن يَعْينَهُ عَلَى الْعُودَةِ إِلَيْهَا، إِلَى مَكَّةَ
حَيْثُ مَوْطِنُهُ الْأَصِيلِ.

أجل، لقد كان الرسول على حق في هذا
الحزن لأنه كان يخرج من موطنه الذي
طالما ألقاه إلى حيث المستقبل المجهول.
ولكن...

من كان يستطيع أن يتكهن بالمصير الذي
ستؤول إليه هذه الهجرة؟

من كان يعلم كيف رسمت يد القضاء و
المشيئة الإلهية مستقبل هذه الهجرة؟
لا أحد...

لا أحد - ذلك اليوم - كان في مقدوره أن
يتكهن بالنتائج الباهرة التي ستنتهي إليها
هجرة الرسول العظيم و الغد المشرق
الذي يخطو إليه الرسول حزينا مهموماً.

في ذلك اليوم لا أحد كان يدور في خَلده
أن هجرة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
مِنْ مَكَّةَ - قلعة الأصنام آنذاك - ستفتح
أمامه و أمام العالم صفحةً جديدةً عظيمةً
شامخةً مِنْ تاريخ المنطقة و العالم على
السواء و فصلاً هو مِنْ الضخامة و
الأهميّة أن ظلت آثاره خالدةً حتى هذا
الحين و ستظلّ كذلك إلى الأبد.

وأمّا مشركو مَكَّةَ فقد سرّوا سروراً بالغاً
لما علموا بهجرة الرسول مِنْ مَكَّةَ لأنّهم
ظنّوا أنّ أعداء الآلهة قد اندحروا أمام
سخطها و كبريائها و أنّ محمّداً و دينه
الجديد قد انتهى أمرها تماماً.

ولكن المستقبل سرعان ما خربط على
مُشركي مكّة كلّ هذه الحسابات الجوفاء
و أبطلّها أيما إبطال.

لأنّ الهجرة أتاحت للقلوب اليقظة و
الضمائر الطيّبة التي أتعبتّها خز عبلاّت
الوثنيّة و خرافاتها أن تجد الحرّيّة
للانضمام إلى اتّباع الدين الجديد.

فأذ هي تسارعُ إلى الرسول و تستقبلُ
دينه و تعتنقه بحرارة بعيداً عن تهديد
قريش و عُتاتها.

مضافاً إلى أنّ الرسول الأعظم لم يحصل
على نجاحات كبرى و هو في يثرب
(المدينة) فحسب بل راحت ملامح النصر

و النجاح تستقبله و هو بعدُ لم يحطَّ على
ترايبها بقدم.

فها هي قبيلة أسلم؛ القبيلة الخطرة التي
عُرِفَ أبناءها بالشرِّ والعدوان حتى كانوا
أبطالهما.

ها هي قبيلة «أسلم» التي كانت تسكن
على الخطِّ التجاري بين مكّة و المدينة،
فكان وجودها مبعث تهديدٍ مستمرِّ
لقوافل قريش التجارية.

الأمر الذي كان يدفعها إلى أن تستصحبَ
معها فريقاً من الحُرّاس الأشداء الذين

يدفعون عنها غائلة العدوان، اذا ما
تعرّضت له من قبيلة «أسلم» فينقذوا
تجارتهم.

ها هي «أسلم» القبيلةُ الخطرةُ مَنْ كان
يصدّق أن يكون بعض أقطابها وزُعمائها
أول فريق سيؤمن بالرسول المهاجر.

و هي، هي المعروفة بالشرّ، المعروفة
بجفاف الخُلُق و قسوة الطبع.

ففيما رسول الله عند مفترق الطريق إلى
يثرب بمنطقة تُدعى بـ«كراع الغميم»
يوم كان مهاجراً، وفَدَّ إليه فريق من
ثمانين شخصاً من هذه القبيلة و تحت
تأثير بيانه الساحر وتأثير الآيات القرآنيّة

المباركة التي تلاها عليهم أسلم الجميع
و صلّوا معه صلاة العشاء بعد ذلك!

و كان «بريدة» من هذا الفريق...^١

و لقد علّم رسولُ الله بريدةَ -هذا- في تلك
المدة شيئاً من سورة مريم و لكنّه لعلّة
السفر أرجأ تعليم باقيها إلى أجل آخر و
كان ذلك يوم التحق بريدةُ بالمسلمين في
المدينة و هناك تعلّم بقيةَ السورة.^٢

على أنّ حادثة إسلام بريدة و رفاقه من
قبيلة أسلم كانت أوّل حلقة في مسلسل
الانتصارات و أوّل ثمرة من ثمار هجرة
الرسول العظيم.

١ . أسد الغابة، ج ١، ص ١٧٥.

٢ . طبقات ابن سعد، ج ٧، ص ٣٦٥.

فأيّ انتصار أكبر - تُرى - من هذا؛ أن يُقبل فريق من شخصيّات قبيلة مرهُوبية الجانب معروفة بالشر يُقبل على الرسول و يؤمن به و ينضوي تحت لواءه، ثمّ يعود إلى قبيلته لِيبيّتها فيها الإسلام و يأخذ بأيديها إلى جادة الصواب و دين الرحمة و الإنسانية؟

و لقد كان للقاء بريدة برسول الله تأثيراً كبيراً في حياته فقد غير مجرى حياته و ربّط مصيره بمصير المسلمين.

إلا أنّ حادثاً آخر حدث في حياته غير تفكيره بالمرّة و فتح أمامه أفقاً جديداً و خطّاً جديداً عرف به فيما بعد.

فماذا كان الحادث ذاك و كيف أُوجِدَ عند
بريدة ذلك التغيير الجذري؟
قبل الإجابة على هذا السؤال من المرجح
أن نتوقف هنا قليلاً و نتصفح بعض
صفحات التاريخ الإسلامي لنقف على
هذه الظاهرة بوجه أفضل...

دسيمة خالد

كان النبي قد عاد إلى المدينة لتوّه من
غزوة تبوك. هذا من جانب،
و من جانب آخر دخل المدينة عمرو بن
معديكرب كبير قبيلة بني زبيد و تشرف
بخدمة الرسول فدعاه النبي إلى الإسلام

فقبل عمرو و اعتنق الإسلام و تبعه في ذلك جمعٌ كبيرٌ من قبيلته، فأسلموا، ثم عادوا إلى ديارهم.

و بعد مدةٍ أسرَ عمرو رجلاً و أحضره عند رسول الله و قال: أعدني (أنصُرني) على هذا الفاجر الذي قتل والدي.

فقال له الرسولُ: «أهدَرَ الإسلامُ ما كان في الجاهليّة».

وحيث كان عمرو يحقدُ على ذلك الرجل فإنّ كلمات الرسول لم ترق له.

بل أزَعَجَتْه، فانصرف عمرو مرْتدّاً و عاد إلى شركه، فأغارَ على قومٍ من بني الحارث بن كعب - على عاداته القديمة من الإغارة و اللصوصيّة التي كان

عليها قبل أن يسلم - و مَضَى إلى قومه .
و بلغت أنباء هذه التصرفات إلى مَسَامِع
الرسول الأعظم، فاستدعى عليَّ بن أبي
طالب فأمره على المهاجرين و أنفذه إلى
بني زُبَيْد لإخماد ذلك التمرد الوقح .

و أرسلَ إلى جانب ذلك بعثاً عسكرياً
آخر بقيادة خالد بن الوليد في طائفة من
الأعراب لمحاربة قبيلة أخرى و أوصى
النبيُّ الخالدَ أن يلحق بجيش عليِّ عليه
السلام و ينضمَّ إلى لواءه فورَ أن ينتهي
من مُهمَّته، فالتقى فريق الإمام برجال
عمرو .

و انهزمت قبيلة عمرو في وجه حملات
جنود الإسلام و سبى المسلمون ذراريها

و غنموا أموالها و فرّ عمرو بنفسه و لم يُقتل في تلك الموقعة.

فاصطفى أمير المؤمنين من السبّي جاريةً لنفسه و قسّم الباقي على المقاتلين...
كالمعتاد...

و خالف خالدٌ أوامر الإمام خلافاً لوصية الرسول فوبّخه الإمام، فانزع خالد من ذلك و رأى مسألة اصطفاء الجارية خيراً فرصة للإيقاع بالإمام عند الرسول.

فبعث خالد بن الوليد بُريدةَ الأسلميّ إلى النبي و قال له: تقدّم الجيش إليه فأعلمه ما فعل عليٌّ من اصطفائه الجارية من الخمس لنفسه و قع فيه.

وكان بريدة آنذاك يميلُ إلى خالد ويذهبُ
مذهبه من عليّ عليه السلام.

فسار بُرَيْدَة حتى انتهى إلى باب رسول
الله و هناك قبل أن يواجه النبيّ لَقِيَه عُمَرُ
بن الخطّاب فاستخبره الحال و عن الذي
أَقْدَمَه.

فأخبره أنّه إنّما جاء لِيَقَعَ في عليّ و ذكر
له اصطفاءه الجارية من الخمس لنفسه.

فقال له عُمَرُ:

إمضِ لِمَا جئتَ له، فإنّه سيغضبُ لابنته
مما صنَعَ عليّ.

فدخل بُرَيْدَةُ عَلَى النَّبِيِّ وَ مَعَهُ كِتَابٌ مِنْ
خَالِدٍ بِمَا أَرْسَلَ بِهِ بِرَيْدَةَ ، فَجَعَلَ يَقْرُؤُهُ وَ
وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ يَتَغَيَّرُ .

فَقَالَ بُرَيْدَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ إِنْ رَخَّصْتَ
لِلنَّاسِ فِي مِثْلِ هَذَا ذَهَبَ فِيهِمْ .

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ: «وَيْحَكَ يَا بُرَيْدَةَ! أَحَدْتَنِي
نِفَاقًا! إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَحِلُّ لَهُ مِنْ
الْفَيْءِ مَا يَحِلُّ لِي، إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ
خَيْرُ النَّاسِ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَ خَيْرُ مَنْ أُخْلِفَ
مِنْ بَعْدِي لِكِفَاةِ أُمَّتِي، يَا بُرَيْدَةَ إِحْذَرُ أَنْ
تُبْغِضَ عَلِيًّا فَيُبْغِضَكَ اللَّهُ» .

قال بُرَيْدَةٌ: فتمنيتُ أنَّ الأرضَ انشقت بي
فسُخِّتُ فيها، و قلتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِ
اللَّهِ وَ سَخَطِ رَسُولِهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! اسْتَغْفِرُ
لِي فَلَئِنْ أَبْغَضَ عَلِيًّا أَبَدًا وَ لَا أَقُولُ فِيهِ إِلَّا
خَيْرًا.

فَاسْتَغْفَرَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.^١

تأمل و نظر

إنَّ ثَمَّةً فِي أَنْظِمَةِ الْحَرْبِ الْإِسْلَامِيَّةِ
قَانُونًا خَاصًّا يَقْضِي فِي مَجَالِ تَقْسِيمِ
غَنَائِمِ الْحَرْبِ، بَأَنَّ تَخْتَصَّ خَيْرَةَ الْغَنَائِمِ
وَ أَفْضَلَهَا بِالْحُكُومَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

^١ . إرشاد المفيد، ص ٨١ وكذلك في قاموس الرجال، ج ٢، ص ١٧٣ و
الدرجات الرفيعة، ص ٤٠٠ مع فارق بسيط.

و لعلّ فلسفة ذلك تكمن في أنّ مثل هذا
الإجراء يكفل عدم وقوع نزاع و نقاش
بين الجنود.

اذ لو أريدَ إعطاء هذا النوع من الغنائم
إلى الجنود، لَوَقَعَ النزاع فيهم لا محالة،
لأنّ كل واحد منهم يريدُه لنفسه و لذلك
يمكن اعتبار هذا الاجراء أحزم و أحكم
اجراء أتى به الحكم الاسلامي في مجال
غنائم الحرب. انتهى

هذه الحادثة كانت كفيلاً بأن تفتح أفقاً
جديداً أمام عيني بريدة و أمام بصيرته
كذلك و أن تغيّر أفكاره و تقلبها رأساً
على عقب و كأنّه يستيقظُ من غفلةٍ ثقيلةٍ
و نومٍ طويلٍ.

لقد أدرك بريدة فجأة أنّ حكمه على عليّ
و رأيه في مكانته و شخصيته و مقامه
عند الله و رسوله كان يعاني من خطأ
فضيع ولذلك لم يعد - بعد ذلك الحادث -
يكنّ للإمام عليّ عليه السلام سوى الحبّ
العميق و الودّ الخالص.

فهو ليس لم يعد يحسُّ بأيّ شعورٍ سلبي
تجاه الإمام فحسب، بل صار واحداً من
أنصاره و أوليائه.

إنّ هذه القضية - لوحدها - كانت كافية
لأنّ تجسّم في نظر بريدة عظمة عليّ و
سموّ مقامه و صوابيّة منهجه.

أجل، كانت كافية و لا حاجة إلى سواها.

ولكن حادثة أخرى حدثت، هي الأخرى
عمّقت من إيمانه و حبه لعلّي أكثر فأكثر
و حتى أنّها صارت فيما بعد:

أساساً لمواقفه الصامدة القادمة في سبيل
الدفاع عن عليّ و أهل بيته المطهّرين.
أليس من الأفضل أن نسمع القصّة من
شفتي بريدة نفسه؟!!

يقول بريدة:

«كنتُ أنا و عمّار أخي مع رسول الله في
نخل بني النجار.

فدخل علينا عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام
و سلّم.

فردّ عليه رسولُ الله السلامَ و ردّدنا.
فالتفت إليه الرسول و التفتنا فور دخوله
ثمّ قال له الرسول:

«يا عليّ! اجلسْ هناك»، فجلّسَ.

فدخل رجالٌ، فأمرهم رسول الله بالسلام
على عليّ بإمرة المؤمنين (يعني قولوا له
السلامُ عليك يا أمير المؤمنين).

فسلّموا و ما كادوا يفعلون.

ثمّ دخل أبو بكر و عمر فسلّما.

فقال لهما رسول الله:

«سلّما على عليّ بإمرة المؤمنين».

فقالا: الأمر من الله ورسوله؟

فقال صلى الله عليه وآله: «نعم».

ثم دخل طلحة و سعد بن مالك فسألما.

فقال لهما رسول الله:

«سألما على عليّ بإمرة المؤمنين».

فقالا: عن الله ورسوله؟

فقال صلى الله عليه وآله: «نعم».

فقالا: سمعنا و أطعنا.

ثم دخل سلمان الفارسي وأبوذر الغفاري

فسألما، فردّ عليهما السلام.

فقال رسول الله:

«سألما على عليّ بإمرة المؤمنين».

فسلّما و لم يقولوا شيئا.

ثمّ دخل خزيمة بن ثابت و أبو الهيثم بن التيهان فسلّما، فردّ عليهما السلام.

ثمّ قال رسول الله:

«سلّما علىّ عليّ بأمرّة المؤمنين».

فسلّما و لم يقولوا شيئا.

ثمّ دخل عمّار و المقداد فسلّما.

فردّ الرسول عليهما السلام فقال:

«سلّما علىّ عليّ بأمرّة المؤمنين».

ففعلا و لم يقولوا شيئا.

ثمّ دخل عثمان و أبو عبيدة فسلّما.

فردّ الرسول عليهما السلام و قال :
«سَلِّمًا عَلَىٰ عَلِيٍّ بِأَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ» .

قالا : عن الله و رسوله؟

قال رسول الله : «نعم» .

ثمّ دخل جماعة من المهاجرين والأنصار
كلّ ذلك يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
«سَلِّمُوا عَلَىٰ عَلِيٍّ بِأَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ» .

فبعضٌ سلّم و لم يقل شيئاً و بعضٌ يقول :
عن الله و رسوله، فيقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَآلِهِ : «نعم» .

حتى غصّ المجلس بأهله ... و امتلأت
الحجرة و جلس بعضٌ على الباب و في
الطريق ... و كانوا يدخلون فيسلمون .

ثم قال رسول الله لي و لأخي:
«قُمْ يا بريدة أنت و أخوك فسلّما على
عليّ بإمرة المؤمنين».
فقمنا، فسلّمنا... ثمّ عدنا إلى مواضعنا و
جلسنا.

ثمّ أقبل رسول الله عليهم جميعاً فقال:
«اسمّعوا و عُوا...
إني أمرتكم أن تسلموا على عليّ بإمرة
المؤمنين و إنّ رجلاً سألوني: أ إنّ ذلك
عن أمر الله تعالى و أمر رسوله؟! و ما
كان محمّد أن يأتي أمراً من تلقاء نفسه
بل بوحى من ربّه و أمره.

أفرأيتم - و الذي نفسي بيده - لإن أبيتهم
و نقضتموه، لتكفرنّ و لتفارقنّ ما بعثني
به ربّي... .

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ» .

قال بريدة: «فلما خرجنا، سمعنا بعض^١
أولئك الذين أمروا بالسلام على عليّ
بإمرة المؤمنين، يقول لصاحبه: أ رأيت
ما صنع محمدٌ بابن عمّه من علوّ المنزلة
و المكان؟ لو يستطيع والله لجعله نبياً من
بعده. فقال له صاحبه: أمسك و لا يكبرنّ

^١ . المراد من «البعض و صاحبه» عمر و أبوبكر، على ما سيأتي في
ص ٣٧٢ .

عليك هذا، فإننا لو فقدنا محمّداً، لكان ما
فَعَلَهُ هذا، تحت أقدامنا»!!^١

استيضاح الخليفة

تركت هذه الحادثة (التي كشفت بصراحة
عن خلافة امير المؤمنين عليّ بن أبي
طالب للرسول) أثراً عميقاً جداً في نفس
بريدة بحيث باتت لا تُغادرُ ذهنه و قلبه،
حتى بعدَ سنين عديدة طويلة...

^١ . الدرجات الرفيعة، ج ١، ص ٤٠٣؛ الأمالي للطوسي، ص ١٨١؛
الرجال للكشي، ص ٨٧؛ قاموس الرجال، ج ١، ص ١٧٤.

فهو لم يعد - بعدُ - آله طيِّعةً بيد خالد بن
وليد و مرآة لإراءه في عليّ عليه السلام.
بل هو الآن قد جعل عليّاً محور حياته
-منذ الحادثة الأولى- و معياره الذي اليه
يفى في الفتن. و هو الآن قد اختلط حبّ
عليّ بدمه و لحمه و عظمه و سرى في
كلّ كيانه كما يسري الروح و الدم في
العروق.

ثمّ هو ذا قد بلغ اعتقاده بإمامة عليّ و
خلافته للرسول صلّى الله عليه وآله بعد
وفاته حدّاً من القوّة و العمق بحيث أخذ
جانب عليّ يومَ اختلفت الأمة ... اختلفت
على الخلافة بعد الرسول و انصرفت عنه
و شمّر ساعده للنضال ضدّ الأنظمة التي

قفزت على مسند الحكم دون حقٍ لها في ذلك... وراح يدافع عن الحقّ و صاحبه دون أن يألو جهداً في ذلك.

ثمّ هو لم ينهزم من معركة النضال هذه و لم ينسحب.

لقد كان أحد الاثني عشر الذين عارضوا خلافة أبي بكر و شجبوها أمام جماهير المسلمين في مسجد رسول الله و أعلنوا لا شرعيّتها و انتقدوا أبا بكر - بشدّة - ضمن خُطب انفراديّة مثيرة و مبرهنة. انتقدوه على إقدامه على انتحال الخلافة و طالبوه بأن يردّ الأمر إلى عليّ.

باعتباره الشخص اللائق الوحيد بخلافة
الرسول وإمامة الأمة بل هو المنصوص
عليه لذلك.

في هذا الاعتراض الجمعيّ عندما وصل
الدورُ إلى بريدة قال:

«إنا لله و إنا اليه راجعون...»

ماذا لقي الحقّ من الباطل؟

يا أبابكر! أ نَسِيتَ أم تَنَاسَيْتَ؟ و خَدَعْتَ
أم خَدَعْتَكَ نَفْسُكَ و سَوَّلْتَ لَكَ الأَبَاطِيلَ؟

أ و لم تذكر ما أَمَرْنَا به رسول الله مِنْ
تَسْمِيَةِ عَلِيٍّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ و النَّبِيِّ بَيْنَ
أظهرنا؟

أ و لم تذكر قوله في عدّة مواطن:

«هذا أمير المؤمنين و قاتل القاسطين»

ثم أضاف بريدة قائلاً:

«اتَّقِ اللَّهَ وَتَدَارِكْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ لَا تُدْرِكَهَا

وَ انْقِذْهَا مِمَّا يَهْلِكُهَا وَارْجِعْ الْأَمْرَ إِلَى مَنْ

هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ، وَلَا تَتَمَادَّ فِي اغْتِصَابِهِ

وَ ارْجِعْ وَ أَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرَاجِعَ...»

فقد محضتُك النُصْحَ وَ دَلَّلْتُكَ عَلَى طَرِيقِ

النَّجَاةِ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيْرًا لِلْمُجْرِمِيْنَ»^١.

على أن نشاط بريدة و دفاعه عن الحق

و موقفه من خلافة أبي بكر لم تقتصر

على هذا الاستيضاح فقط.

١ . الإحتجاج للطبرسي، ص ٥٠؛ الدرجات الرفيعة، ص ٤٠٣.

بل ظلّ يَغتَنمُ الفُرَصَ ليواصل انتقاداته
للخليفة الجديد و يطالبه في كلّ مرّة أن
يردّ الأمر إلى صاحبه،
مستنداً في كلّ ما على أقوال الرسول في
حقّ عليّ و نصوصه و تصريحاته التي
كان أبوبكر نفسه قد سمعها أيضاً.

الحوار المثير

و كان من جملة ما فعله بريدة - ابان
خلافة أبي بكر - هو أنّه ذهب ذات يومٍ

إلى منزل صديقه عمران بن حصين
الخزاعي و قال له:

«يا عمران! ترى القوم نسوا ما سمعوا
من رسول الله في حائط بني فلان من
أهل بيت من الانصار (يعني بني النجار)
فجعل لا يدخل عليه أحد من المسلمين
فيسلم عليه إلا ردّ، ثم قال له: سلّم على
أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب.

فلم يردّ على رسول الله يومئذٍ أحد من
الناس إلا عمر، فإنه قال: من أمر الله أو
من أمر رسوله؟

قال رسول الله: «بل من الله و من رسوله»
قال عمران: بلى، قد أذكر ذا.

فقال له بريدة: فانطلق بنا إلى أبي بكر،
فنسأله عن هذا الأمر فإن كان عنده عهدٌ
من رسول الله عهدهُ إليه بعد هذا الأمر أو
أمرٌ أمرَ به فإنه لا يخبرنا عن رسول الله
بكذب و لا يكذبُ على رسول الله.

فانطلقنا فدخلنا على أبي بكر فذكرنا ذلك
اليوم و قلنا له: أ فلا تذكر يوم لم يدخل
أحد من المسلمين، فسلم على رسول الله
إلا قال له:

«سلم على أمير المؤمنين عليٍّ» و كنت
أنت ممن سلم عليه بإمرة المؤمنين.

فقال أبو بكر: قد أذكر ذلك.

فقال له بريدة: «إذن لا ينبغي لأحدٍ من
المسلمين أن يتأمر على أمير المؤمنين

عليّ بن أبي طالب بعد أن سمّاه رسولُ الله
بأمير المؤمنين.

فإن كان عندك عهدٌ من رسول الله عهدهُ
إليك أو أمرٌ أمرك به بعد هذا فأنت عندنا
مصدق.

فقال أبو بكر: لا والله ما عندي عهدٌ من
رسول الله و لا أمرٌ أمرني به و لكنّ
المسلمين رأوا رأياً فتابعتهم به على
رأيهم!

فقال له بريدة: «والله ما ذلك لك و لا
للمسلمين خلاف رسول الله».

و لما لم يملك أبو بكر ازاء هذا المنطق
المبرهن أيّ جوابٍ يمثله، سارع إلى
استحضار عمر و أخبره بما دار بينه و
بين بريدة.

فبادر عمر - في مغالطة مفضوحة - و
جاء فقال له أبو بكر: إنّ هذين سألاني
عن أمرٍ قد شهدته و قصّ عليه كلامهما.
فقال عمر: قد سمعتُ ذلك و لكن عندي
مُخْرِجٌ مِنْ ذَلِكَ.

فقال له بريدة: عندك المخرج؟

قال عمر: نعم.

قال بريدة: فما هو؟

قال عمر: لا يجتمع النبوة و الملك في
أهل بيت واحد.

فاغتتمها بريدة - و كان رجلاً بليغاً جرياً
على الكلام - و قال:

يا عمر إن الله عز وجل قد أبى ذلك عليك
أما سمعت الله في كتابه يقول:

«أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ
الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا»^١

فقد جمع الله لهم النبوة و الملك.

و لما فوجئ عمر بهذا الجواب المفحم و
المبرهن دون أن يمتلك أي رد عليه،

^١ . سورة النساء: ٥٤ .

فغضب غضباً شديداً حتى رُؤيت عيناه
يوقدان احمراراً، فصاح: ما جنتما إلا
لِتُفَرِّقا جماعة هذه الأمة و تُشَتِّتا أمرها!
و لم يزل يُعرفُ فيه الغضب حتى مات^١
أجل... كذلك يُتَّهمُ المجاهدون الأحرار
المسلَّحون بقوة المنطق و سلاح الكلام
بالشغب و تمزيق وحدة الأمة، لمنطقهم
الحقّ و رأيهم الحرّ يُهدّدُ مصالح أصحاب
المصالح و يُدغدغُ ضدّهم الضمائر
الغافية و تُنبِّهُ النفوس الغافلة و تحول
حلاوة الحكم في حلوقهم علقماً مُرّاً.
أجل...

١ . بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ٣٠٨.

بجريمة قول الحقّ و الجهر به و الدفاع
عنه بصلافة اتُّهم بريدة على أيدي أعوان
أبي بكر بالشغب و شقّ عصا الأمة!

إنّهم كانوا يريدون بهذه الحربة أن يخمدوا
الصوت في حناجر الشرفاء الأحرار من
مجاهدي الأمة بعد أن يكونوا قد لوثوهم
أمام الرأي العام.

ولكن بريدة البطل كان يكشف كلّ تلك
النوايا أوّلاً بأوّل دون وجل و رهبة.

فبريدة لم يكن بالذي تهزّمه الأعياب
السياسيّة و اتّهاماتها الكاذبة و تخرجه
من ساحة المعركة.

بل ظلّ كالطود الصامد لا يترك فرصة
تمرّ دون أن يواصلَ فيها جهاده المقدّس
ضدّ أنظمة القهر و الاستبداد.

فقد دخل ذات مرّة في مسجد الرسول و
شاهد أبا بكر جالساً على منبر الرسول و
قد جلس عمر دونه بدرجة فاذن به يرفع
صوته بالاعتراض الجريء على ذينك
الرجلين.

فقالا له: يا بريدة! أ جُنِنْتَ؟

فقال: والله ما جُنِنْتُ و لكن أين إسلامكم
بالأمس على عليّ بإمرة المؤمنين؟

فقال أبو بكر: الأمرُ يحدثُ بعده الأمرُ و
إنّك غِبتَ و شَهَدْنَا و يرى الشاهد ما لا
يرى الغائب.

فقال لهما: رأيتما ما لم ير الله و رسوله
ولكن وفى لك صاحبك بقوله: لو فقدنا
محمّداً لكان قوله هذا تحت أقدامنا!

ثم أضاف: إلا إنّ المدينة حرام عليّ أن
أسكنها أبداً حتى أموت.

ثم خرج بريدة - بعد هذا - من المدينة
بأهله و ولده و نزل بين قومه بني سليم.^١
نعم...

لم يستطع بريدة أن يظلّ شاهداً لأكبر
عملية تضييع حقّ عن أكبر شخصيّة في
المسلمين بعد رسول الله.

١ . بحار الأنوار، ج ٢٨، ص ٩٣.

ولم يكن ليقدِرَ أن يتابع الظلم الواقع على
أهل بيت النبيِّ ساكتاً، دون أن يكون له
موقف من الظالمين.

إنَّه ما كان يستطيعُ أن يواصل العيش
في جوِّ يُسحقُ فيه العدل و يُهدرُ فيه
الحقَّ في وضح النهار و على مرأى من
المسلمين و مسمَعهم.

و لذلك غادر المدينة بعد أن قضى فيها
ثمانية أعوام ...

غادرها تحت وطأة ما يعاني من ضغوط
روحيّة و انزعاج فكري أصابا ضميره
اليقظ و نفسه الأبيّة بسبب ما حدث من
نشوزٍ في الأمور بعد غياب القائد الأكبر
رسول الله صلّى الله عليه وآله.

ترَك المدينة ليعيشَ هناك بين قومه بعد
أن استخدمَ مع القافزين على مَسَانِدِ
الحكم - زوراً - كلَّ ما كان يعرفُ مِنْ
وسائل الإيقاظ و الاعتراض.

و لم يزر المدينة إلا أحياناً...

و لكنّه عاد إليها يوم قُتِلَ عثمان على
أيدي فريقٍ مِنَ الأنصار و المهاجرين و
أهل مصر...

و آلت الخلافةُ إلى صاحبها الشرعي أي
عليّ أمير المؤمنين عليه السلام و سار
معه في ركابه إلى العراق و شارك معه
في حروبه و جهاده.

و لَمَّا اسْتَشْهَدَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْكَوْفَةِ،
هَاجَرَ بِرَيْدَةٍ مِنَ الْعِرَاقِ قَاصِداً خِرَاسَانَ
بِإِيرَانَ الَّتِي كَانَتْ آنَذَاكَ تَحْتَ الْحُكْمِ
الْإِسْلَامِيِّ، فَانزَلَ هُنَاكَ وَ أَقَامَ فِيهَا حَتَّى
وَأَفَاهُ أَجَلُهُ فِي عَامِ ٦٣ وَ هُوَ فِي مَرُورِ
طَاوِيَاً بِمَوْتِهِ صَفْحَةً مِنْ أَرْوَعِ صَفْحَاتِ
الْمَوْقِفِ الْحَرِّ الصَّامِدِ الشَّجَاعِ.

١٠. نصيرُ عليّ الفدائيّ؛ بُريدُ الأسلمي

ما أطيبَ الموتَ في سوحِ المعاركِ و
السقوطِ، شهيداً على أرضِ الجهادِ...

و أطيبَ منه أن يجدَ الجنديُّ السابحُ في
دمه - و هو يلفظُ أنفاسه الأخيرة - يرى
القائدَ عند رأسه و هو يقلّده وساماً من
أوسمة الشرفِ.

فليس هناك شيءٌ بأطيبَ عند الجندي
الصريعِ على أرضِ المعركةِ من هذا.
لقد تلقى بُريدُ و هو نصيرُ عليّ الفدائي
مثل هذا الوسامِ من قائده امير المؤمنين
علي بن أبي طالب عليه السلام.

لم يكن هذا الوسام من نوع الأوسمة
الحديدية التي تعلق على صدور الجنود
الآن كما لم يكن بالشيء الذي يفقدُ بريقه
مع الأيام.

بل كان من نوع الكلمات الذهبية - ولكن
الحزينة - التي خرجت من بين أقدم
شفتين و يريد يلفظ آخر الأنفاس.

تلك الكلمات التي ما إن خرجت من
حنجرة إمام المجاهدين عليّ عليه السلام
إلا لتستقرّ على جبين الدهر نجماً يتألق
و في ضمير التاريخ دماً ينبض على
طول.

بريد الأسلمي كان من صحابة الرسول
و كان أيضاً من أصحاب الإمام عليّ
الأوفياء.

وقف إلى جانب الإمام في حرب صفين
التي انحاز فيها فريق من المسلمين عن
الإمام عليّ مأخوذين بأضاليل معاوية و
دعاياته المسمومة بينما انحاز فريق من
هؤلاء عن الإمام تحت أعدار واهية
لا تستقرّ على أساس.

أمّا... هو أيّ بريد فقد وقف إلى جانب
الإمام و هو على بصيرة واعية و اعتقاد
راسخ.

ثمّ هو إلى جانب كلّ هذا كان واحداً من
قُرّاء القرآن المشهورين الذين اشتركوا
مع الإمام في تلك الموقعة.

و في صفّين كان «هاشم بن عتبة» من
أحد أصحاب الرايات الشجعان في جيش
الإمام عليه السلام.

و ذات يوم استحضره الإمام و كلفه
بمهمّة عسكريّة ثقيلة فانطلق هاشم
- الذي كان كالجبل في جسمه كما في
إيمانه و كان رجلاً شجاعاً جداً - انطلق
إلى حيث مهمّته و أبدى من نفسه شيئاً
مدهشاً من البطولات...

فقد نازلَ الصناديد المشهورين في
معسكر معاوية كذي الكلاع الحميري و
غيره.

غير أنه فوق ما أظهر في تلك الموقعة
من شجاعته قتاليّة رائعة و بطولات
عسكرية أروع.

فإنّه كان يقارعُ أهل الشام بسلاح المنطق
و الحجاج المفحم.

الأمر الذي كان وراء استبصار فريق
منهم بعد أن فتح منهم الأبصار و
البصائر فاهتدوا على كلامه و تابوا عن
غيّهم و اعترفوا لِعليّ بحقّه في الأمر و
بسلامة منهجه.

هذا...

البطل هاشم لم يزل يقاتل بشجاعة حتى
صُرِعَ بعد أن جندل كثيراً من الرجال و
نال الشهادة الذي ظلّ يتمناها طويلاً و
كان لمصرعه أثرٌ كبيرٌ في النفوس إذ
جزع الناسُ عليه جزعاً شديداً.

وقد صُرِعَ إلى جانبه رجالٌ من «أسلم»
الأبطال، فمرّ عليهم امير المؤمنين و لمّا
رأى أجسادهم السابحة في دمائها و كان
بُرِيد الأسلمي في جملتهم،

أنشد هذه الأبيات:

• جَزَى اللهُ خَيْرًا عُصْبَةً أَسْلَمِيَّةً

صِبَاخِ الْوُجُوهِ صُرِّعُوا حَوْلَ هَاشِمِ

• «بُرَيْدٌ» وَ عَبْدِ اللَّهِ بِشْرٌ وَ مَعْبَدٌ

وَ سُفْيَانُ وَ ابْنَا هَاشِمِ ذِي الْمَكَارِمِ

• وَ عُرْوَةٌ لَا يَبْعُدُ ثَنَاءٌ وَ ذِكْرُهُ

إِذَا اخْتَرِطَتْ يَوْمًا خِفَافُ الصَّوَارِمِ^١

^١ . الإصابة، ج ١، ص ١٥٠؛ وقعة صفين، أنصر بن مزاحم، ص ٣٩٣ و الملحوظ في كتاب صفين هو «يزيد» بدل «بريد».

١١. فاتح الحصون؛ براء بن مالك بن أنس الأنصاري

لا...

لا والله...

أَتَخَافُ عَلَيَّ أَنْ أَمُوتَ عَلَيَّ فِرَاشِي وَ
قَدْ تَفَرَّدْتُ بِقَتْلِ مِائَةِ (مِنَ الْمُشْرِكِينَ)؟

سَوَى مَنْ شَارَكَتُ فِيهِ!

لا... والله...

إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ لَا يَفْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ بِي...

مِنْ أَعْقَدِ مَا يُوَاجَهُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ وَالتَّرْبِيَةِ
هُوَ: ذَلِكَ الْفَرْقُ الْمَلْحُوظُ الَّذِي يَظْهَرُ
- أحياناً - فِي السُّلُوكِ وَ الشَّخْصِيَّةِ بَيْنَ
أَخٍ وَ أَخٍ وَ الأبِّ وَ أَحَدٍ وَ الأُمِّ وَ أَحَدَةٍ وَ

العائلة واحدة و الظروف التربويّة و
المعيشيّة واحدة.

فهذا هو واحد من أعقد المسائل في علم
النفس الآن، إلا أنّ الالتفات إلى دقائق
الخلقة الإنسانيّة يكشف لنا - بيّسر - عن
مفتاح هذا السرّ اللغز.

اذ قد يكون بعض القضايا الصغار في
حياة الفرد مثل أن يكون الولدُ أوّلَ أولادِ
أبيه، أو يكون قد أُتيح له أن يقوم برعاية
إخوته الصغار في المحيط العائلي، أو
الاحتكاك بالأشخاص المختلفي الهوية.

كلّ هذه الأمور الصغيرة أو بعضها يمكن أن تصبح يوماً مّا، مفتاح تحوّل بارز و فروقٍ عريضةٍ عجيبةٍ في سلوك المرء و شخصيّته.

و حيث يمكن أن يحظى بعض أفراد العائلة دون بعض فإنّه يكون من الطبيعي ساعتئذٍ أن تظهر ثمة فروق في السلوك و البنية الشخصيّة.

بعد الالتفات إلى هذه الحقيقة لا يبقى مجالٌ للاستغراب اذا واجهنا الفرق الكبير بين أخوين من عائلة واحدة و أبوين لا أكثر، هما:

براء بن مالك و أنس بن مالك...

أخوان و لكن بفارقٍ كبيرٍ في الفكر و
الروح و الضمير.

أجل...

شقيقان و لكن واحداً منهما و هو أنس
ينحرفُ عن أهل بيت النبوة و يُنكرُ بوقاحة
ما يعرفه من فضائل امير المؤمنين عليّ
عليه السلام يوم وقف في الكوفة في جمع
من الصحابة كان أنس من جملتهم و
طلب منهم أن يشهدوا له بحديث يوم
غدير خمّ الذي نصّ فيه رسول الله على
خلافة عليّ من بعده فأقرّ قومٌ و نكص
الأخرون.

و كان أنس و براء بن العازب (الذي سيأتي الحديث عنه) من الذين نكصوا و لم يعترفوا و هما قد حضرا ذلك اليوم و سمعا من الرسول ما قاله و صرّح به في حقّ عليّ و أمر خلافته و لكنّهما أبيا -مع ذلك- أن يعترفا ما قد سمعاه بالأمس من فم الرسول في ذلك اليوم المشهود و لمّا يسألهما الإمام عن سبب النكوص و الإباء، اعتذرا اعتذارَ جدّهما و هو أنس بالنسيان و بالشيخوخة قائلين: كَبُرَتْ سِنِّنا و نَسِينا. فيدعو عليه الإمام بقوله:

«اللهمّ إن كانا كتماها مُعاندةً فأبليهما»^١.

١ . رجال الكشي، ص ٣٠ و بإمكانك مراجعة مصادر هذه القضية بتفصيل أكثر في المجلّد الأوّل من موسوعة الغدير، الصفحة ١٩٢.

و لم يطل الزمان بأنس أن أُصيبَ بِداءِ
عضال في قدميه و برص في رأسه و
وجهه حلف على إثرهما أن لا يكتُم من
فضائل عليٍّ شيئاً و لات حينَ مَندم.^١
أجل...

بينما يكونُ أنس هكذا، نرى أخاه براء
يوالي عليّاً و أهل بيته و تربطه بهم علاقةٌ
من المحبّة و الودّ لا تنفصمُ إلا لتوثقُ و
لا تضطربُ إلا لتعمقُ.^٢

١ . رجال الكشي، ص ٤٤ .

٢ . تنقيح المقال ج ١، ص ١٦٢؛ الدرجات الرفيعه، ص ٤٠٠ .

لا للموت على فراش المرض

مع الفارق الذي ذكرنا كان هنالك فارق آخر بين الشقيقين أنس و براء ابني مالك بن أنس و هو فارق الشجاعة.

فبينما لم تعرف لأنس أيّ مشهد بطولي في الحروب الإسلاميّة، نجد براء بطلاً مغواراً عرفته ميادين الحرب و القتال تماماً كما كان فاضلاً خبيراً بالأمور و عُرفَ بالتدبير النفاذ. يكتبُ ابن عبد البرّ عنه قائلاً: «كان البراء بن مالك أحد الفضلاء و من الأبطال الأشداء، قتل من المشركين مائة رجلٍ مبارزٍ سوى من شارك فيه»^١.

١ . الاستيعاب، ج ١، ص ١٤٢.

و يكتبُ عنه أبو نعيم الأصفهاني قائلاً:

«براء أحدُ الشجعان و الفرسان»^١.

كذلك كان براء على طرف النقيض من أخيه أنس.

و لك أن تعرف مدى الشجاعة الروحية التي كان يتحلّى بها براء من القصة القصيرة التالية.

دخل أنس ذات يوم على أخيه براء و هو يستريح على الفراش متمتماً ببعض الأبيات و كان حسن الصوت فانزعج أنس ممّا رأى من أخيه.

١ . حلية الأولياء، ج ١، ص ٣٥٠.

فاستوى براء جالساً من فوره و قال:
«أ تخافُ عليَّ أن أموتَ على فراشي، و
قد تفردت بقتل مائة (من الكفار) سوى
من شارك فيهِ.
لا واللهِ إنِّي لأرجو أن لا يفعل الله ذلك
بي»^١.

هكذا كان براء حماسةً شبوية لا تخبو و
شوقاً إلى الجهاد ثم الشهادة في سبيل الله
لا يهدأ.

فبهذه الحماسة ذاتها شارك براء في كل
معارك الاسلام في عهد رسول الله إلا
بدر.

١ . الاستيعاب، ج ١، ص ١٤٢؛ حلية الأولياء، ج ١، ص ٣٥٠.

و أظهر للعيون بطولاتٍ لامعةً و ظلَّ
بعد رسول الله صلَّى الله عليه وآله يشتركُ
في أقسى المعارك جنباً إلى جنب...
مع إخوانه المسلمين...

و يُبدي فيها من نفسه شجاعاتٍ تبهرُ
الأنظار و تحبسُ النفوس في الصدور.

بطولة تاريخية

و لعلّ أعظم ما بَدَرَ مِنْ براء كان في
حادث «يوم اليمامة» الرهيب.

فما هو حادث يوم اليمامة؟

و ما هي البطولة التاريخية التي سجّلها
براء هناك؟

بعد رسول الله ارتفع أمر مسيلمة الكذاب
(الذي ادّعى النبوة) في اليمامة و أظلم
ناساً كثيراً بما أوتي من مكر و دهاء و
تضليل.

فوجهت العاصمة حملة عسكرية قوية
لقطع دابر تلك الفتنة التي هوى فيها
كثير.

وتحرّك الجيش الإسلامي صوب اليمامة
و هناك التقى الجمعان و التحما في قتالٍ
عنيفٍ.

تراجَع فيه جيش مسيلمة أمام حملات
جنود الرحمان و كتائب الإسلام و لَجَّؤوا
إلى بستان مسور محصن عظيم و
تترسوا بأسوار الشاهقة المنيعة جداً.

و كان ذلك مفاجأة للمسلمين الذين ما
كانوا يحسبون لهذا حساباً آنذاك، فحاروا
لا يدرون ما يفعلون و لا كيف ينفذون
إلى ذلك الحصن الحصين.

في هذه اللحظات الخطيرة تقدّم براء
باقتراح جريء مبتكر من أجل اقتحام
الحصن ذاك.

وكان الاقتراح يقضي بأن يحتمله الجنود
ليستطيع تسلق جدار الحصن ثم يلقى
بنفسه في داخل الحصن و يفتحُ بابه أمام
المسلمين...

و نفذت الخُطة الجريئة الخطرة...

و احتمل الجنود براءً حتى اذا أشرفَ
على الجدار، ألقى بنفسه داخل صفوف
الأعداء الذين أحاطوه بسُيوفهم ورماحهم
من كلِّ جانب و لكنّه بادر - في شجاعة
نادرة- إلى إيصال نفسه إلى الباب و فتحه
للمسلمين فاقتحموا الحصن.

بيد أنّ هذا النصر لم يكن ليتمّ بلا ثمن،
فقد كلف براءً بضعاً وثمانين جراحةً
نازفةً في جسمه غدى على إثرها طريح
الفراش لتوه.

و لكنّه أتاح للمسلمين عمليّة الاقتحام
الناجحة و القبض على رأس الكفر
مسيّمة الكذاب و القضاء عليه و على
فتنته^١.

١ . أسد الغابة، ج ١، ص ١٧٢؛ الاستيعاب، ج ١، ص ١٤٢؛ قاموس
الرجال، ج ٢، ص ١٥٧.

فتح ششتر

إنّ براء فارس المعمارك و بطل الميادين
لم يكن بالذي تقعدُ به الجراحات الواردة
والضربات مهما جاءت ثقيلة باهضة فهو
سيظلّ فاتح الحصون و رجل المغامرات
مادام تنبضُ فيه عرق حياة.

ثمّ كيف تقعدُ به الجراحات و هو عاشق
الشهادة كما عرفناه؟

لا...

فها هو مرّة أخرى و هو الممتلئ إيماناً
بعقيدته و حُبّاً للتضحية في سبيلها وشوقاً
إلى الشهادة في سبيل الله.

هاهو مرّة أخرى يفتح أبواب النصر أمام
جحافل خيل الله و جنود الإسلام في
مغامرة ثانية بدفع إيمانه الجبار و عقيدته
الشاهقة و ذلك يوم «فتح ششتر»...

ذلك اليوم الذي وضع براء حيّاته على
كفّه و قلبه على رأسه و خاطرَ بنفسه في
أهول عمليّة اقتحام، دفاعاً عن صرح
العقيدة حتى سقط صريعاً - في النهاية -
أخذاً مكانه بين خيار الشهداء على طريق
الإيمان.

لقد وقعت هذه الحادثة عام ٤٠ هجرية و
في عهد خلافة عمر.

فقد بعث عمر جيشاً بقيادة أبي موسى
الأشعري إلى ششتر فكتب أبو موسى
إلى عمر يطلب منه المدد.

فأرسل عمر إليه عمّاراً على رأس جيش
من أهل الكوفة.

فالتحق عمّار بجيش أبي موسى و حاصر
جنود الإسلام مدينة ششتر.

و في الحرب كان براء بن مالك في
ميمة جيش أبي موسى.

تأمل و نظر

يشكك العلامة المحقق التستري، مؤلف قاموس الرجال في ما ذكره الكشي من «أنّ براء بن مالك من الراجعين إلى امير المؤمنين».

حيث احتمل أن يكون الصحيح هو براء بن العازب و ليس براء بن مالك.

مستدلاً لذلك بكون براء بن مالك على ميمنة جيش أبي موسى و براء بن العازب على ميسرة جيش عمّار يوم فتح شستر على أساس أنّ موقف أبي موسى كان موقفاً معادياً مع الإمام عليّ عليه السلام بعكس موقف عمّار.

و لا شكّ أنّ تواجد براء بن مالك في
صفّ أبي موسى يكشف عن وحدة
العقيدة و المسلك.

كما يكشف تواجد براء بن العازب مع
عمّار عن مسلكه الموالي للإمام.

و لكن يجب القول بأنّ احتمال أن يكون
الكشي قد أخطأ في الضبط فوضع براء
بن مالك مكان براء بن العازب، احتمال
غير صحيح و لا موجّه.

اذ لو أنّنا سمحنا لأنفسنا بتقييم الأمور
على أساس الاحتمالات في قضايا
التاريخ لوجب أن ننبت كلّ المراجع دفعة
واحدة، أو أن نعتبر رجال الكشي- على

الأقلّ - غير معتبر بالمرّة لأنّه يخطأ أحياناً
ثمّ إنّ ما هو معتبر في المعارك هو
مجابهة العدوّ المشترك و التقدّم و ليس
التواجد في هذا الصّفّ أو ذاك. فربما
يكون تواجد امرأين متباينَي التفكير في
صّفّ واحد و تحت لواء واحد، مبعث
قوّة و سبباً للنصر و التقدّم و ردع العدو
و دحره.

نعم إنّنا - كذلك - نمتنع من قضايا التاريخ
ما لا يقوم عليه الدليل.

كما تلاحظ كيف أنّنا أعرضنا صفحاً عن
ذكر الأحاديث التي رواها أنس في
فضائل أخيه براء، ممّا ادّعى أنّه سمعها

مِن رَسُولِ اللَّهِ لِأَنَّ رَاوِيَهَا هُوَ أَخُوهُ؛ أَنَسُ
وَهُوَ أَمْرٌ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ. انْتَهَى
كَانَ بَرَاءُ بْنُ الْعَازِبِ فِي مَيْسِرَةِ جَيْشِ
عَمَّارٍ وَالتَّحَمَّ الْجَيْشَانِ فِي قِتَالِ ضَارٍ وَ
عَنيفٍ.

وَكَانَتْ جُنُودُ الْإِسْلَامِ تَتَقَدَّمُ فِي حَمَلَاتِهَا
الشَّدِيدَةِ بِاتِّجَاهِ بَوَابِ الْمَدِينَةِ بِهَدَفٍ فَتَحَهَا
وَاقْتَحَمَهَا.

وَ لَكِنْ لَمْ يَكُنْ فَتْحُ الْبَوَابِ بِالْأَمْرِ الْبَسِيطِ
فَقَدْ اسْتَصْعَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى لَكَانَهَا
عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ فَاتِحِ الْحِصُونِ؛ الْبَرَاءِ بْنِ
مَالِكٍ فِي مَخَاطَرَةٍ أُخْرَى...
مِنْ نَوْعِ مَخَاطَرَةِ يَوْمِ الْيَمَامَةِ...

و كان هذا فعلا...

فقد أوصل براء نفسه إلى وراء البوابة و
وُفق إلى فتحها بعد قتالٍ مع مقاتلي العدو
و سقطت على إثره مدينة ششتر و وقع
في الأسر زعيمها هرمز و عاد المسلمون
به و بأسراهم إلى المدينة إلا براء.

قد استشهد براء في ذلك الحادث الرهيب
صريعاً تضحيته رائدة.

و دُفن هناك ليُعرفَ فيما بعد - على لسان
علماء الرجال - باسم: «شهيد ششتر».

١٢. حدود الولاء لعليّ عليه السلام؛ براء بن العازب

تشيّعهُ لأَمير المؤمنين لم يكن تشيّعاً أعمى
بل كان يعرفُ عن بصيرة.

و هدى أنّه ليس ثمة بعد رسول الله أحدٌ
بأفضل من عليّ بن أبي طالب عليه السلام
من هذا المنطلق كان ينبع تشيّعه...

و عليّ هذا الأساس المتين كان يودُّ عليّاً
غاية الودِّ.. و يُحبُّه غاية الحبِّ.. و يُجلُّه
غاية الإجلال.

وكان يقولُ:

«أنا أتبرّءُ في الدنيا و الآخرة ممّن تقدّم
على عليّ عليه السلام».

كانت يثرب (المدينة) تشهدُ تحوُّلاً كبيراً
و هائلاً.

فها هي أشعةُ الإسلام تعبر أسوار مَكَّة
لتضيءَ مناطق أخرى. و ها هي يثرب
أرض الحروب الأوسية - الخزرجية
الطويلة تلتقي لأول مرة مع أنوار الدين
الجديد، القادمة إليها من أرض مَكَّة.

لم يمض على حلول أول مبلغ إسلامي
(مصعب بن عمير) في ربوعها أكثر من
عام بعدُ، فيما أعداد الداخلين في الإسلام
تتصاعدُ... و يكثرُ الإقبال على اعتناق
الدين

كلّ يوم أتباع جُدُد... و مسلمون جُدُد...

ثمَّ إنَّ مصعبَ الذي أبعثه الرسول إلى
المدينة ليفقه أهلها ويعلمهم معالم الإسلام
قد تصرّف بشكْلِ جعل كلَّ الأنفُس
تتعطّش للقاء الرسول، فتسأل كلَّ مسلمٍ
مهاجرٍ قادمٍ من مكة:

كيف حال رسول الله؟

متى يقدم إلينا رسول الله؟

حقيقة أنّ أنوار الإسلام هذه لم تكتنف
الرجال أو الكبار فحسب بل كانت من
القوّة و التأثير بحيث شملت - كذلك -
النساء و الصبيان في عمر الورود...

حتى الأطفال و النساء تعلّموا القرآن و
راحوا يتلونه بشوق. و قد كان براء بن
العازب الذي كان في ربيعة الثالث عشر
هو أحد الذين تعرفوا على الإسلام قبل
مقدم الرسول إلى المدينة و استوعبوا
أموراً منه.

إسمعه يقول:

ما قدم علينا رسول الله حتى قرأت «سبح
اسم ربك الأعلى» في سورٍ من المفصل
(أي القرآن).^١

^١ . طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٣٦٧.

على جبهات القتال

هكذا من الصغر ترعرع براء بن العازب في أحضان القرآن و كبر في ضوء تربيته و كبرت معه شخصيته ومعنوياته في أحضان القرآن التي تلقى منذ نعومة الأظفار تعاليمه و وعائها...

و عاشها فعشقتها حتى بلغ شغفه بها حدّاً دفعه إلى الإقدام على الاشتراك في معركة بدر دفاعاً عن الإسلام.

وهو آنذاك في ربيعة الخامسة عشر ولكن النبي ردّه و رفاقاً آخرين له استصغاراً لسنّهم و رفاقاً بهم و رحمة^١.

١ . السيرة النبوية، ج ٣، ص ٧٠؛ أسد الغابة، ج ١، ص ١٧٢؛ الاستيعاب، ج ١، ص ١٤٤.

إِلَّا أَنْ بَرَاءَ وَإِنْ كَانَ قَدْ حُرِّمَ الْإِشْتِرَاكُ
فِي هَذِهِ الْمَوْقِعَةِ،

فَإِنَّهُ اشْتَرَكَ فِي خَمْسَةِ عَشْرَةَ مِنْ مَعَارِكِ
الْإِسْلَامِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ غَيْرِ مِتْقَاعَسَ عَنِ
الدِّفَاعِ عَنِ إِسْلَامِهِ الَّذِي عَشَقَهَا مِنْذُ
صَبَاهِ.

ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ فَيَذْهَبُ إِلَى أَنْ بَرَاءَ
إِشْتَرَكَ فِي ١٥ أَوْ ١٨ غَزْوَةً.^١

ثُمَّ هُوَ الَّذِي تَمَّ عَلَى يَدَيْهِ فَتْحُ الرِّيِّ سَنَةَ
أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ.

١ . أسد الغابة، ج ١، ص ١٧٠؛ راجع المجلد ٤، ص ٣٦٧.

تأمل و نظر

بالنسبة إلى مَنْ هو «فاتح الريّ»، ثمّة اختلاف بين كُتّاب السيرة و التاريخ، منهم مَنْ يقول: هو براء بن العازب و منهم مَنْ يقول: هو حذيفة بن اليمان و ثالث يقول: هو أبو موسى الأشعري و رابع يقول: هو قرظة بن كعب.

انتهى

و حيث تقتضي الموضوعية في ترجمة
تاريخية كهذه أن يكون التحقيق و
الدراسة فيها بعيدين كلّ البعد عن أيّ
ميلٍ أو انحياز، فإنّنا لا ندّعي خلوّ حياة
براء هذا عن بعض نقاط الضعف كما لا
ندّعي أنّ صفحاته جمعاء كانت مشرقةً
على الاطلاق.

انّما غاية ما نستطيع قوله - هنا - هو إنّها
كانت تتمتع بنقاط قوّة كثيرة و مشرقة
و جديرة بالاهتمام كذلك.

في ركاب عليّ عليه السلام

منذ البداية كان يحبُّ عليّاً و يكون له
ولاءً عميقاً و لهذا هاجر معه من المدينة
إلى العراق و كان من أنصاره و أقام في
العراق^١ و اشترك في حروبه «صفين»
و «الجمل» و «النهر وان» و كان معه
على جبهات القتال.^٢

لم يكن تشييعه لعلّيّ تشييعاً أعمى بل كان
يعتقُد - على بصيرة واضحة - أنّ عليّاً
أفضل الأمة بعد رسول الله و لذلك كان
يودّ عليّاً و يُعطيهِ في الدنيا و الآخرة
ولائه و بلائه و كان يقول:

١ . طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٣٦٧، أسد الغابة، ج ١، ص ١١٣.

٢ . أسد الغابة، ج ١، ص ١٧٠؛ الاستيعاب، ج ١، ص ١٤٤.

أنا أبرأ ممن تقدم على عليّ عليه السلام.^١
وفي المقابل كان الإمام عليه السلام يعتمدُ
عليه و يثقُ به و يعرفُ إخلاصه حتى
في حربه مع الخوارج بالنهر وان حيث
انتد به للتفاوض مع الخوارج علَّه
يستطيعُ إقناعهم عن طريق المفاوضات
و إرشادهم.

و تحدّث براء مع الخوارج بأمر الإمام
ثلاثة أيّام و لكن حيث إنهم لم يكونوا
بالجماعة التي تفيء إلى الحقّ بسرعة و
كأنّها قُدت من لجاج.

١ . قاموس الرجال، ح ٢، ص ١٥٠.

لذلك عاد براء من الاجتماع المطوّل
ذلك دون أن يحمل معه إلى الإمام أيّة
نتائج.^١ و في حرب صفّين يوم انطلق
قيس بن سعد بن عبادة (و هو آنذاك من
قادة معسكر الإمام و كان يُعدُّ من عقلاء
العرب و علماءها بشؤون السياسة)...

يوم انطلق قيس هذا يكافح بين يدي
الإمام ليس فقط بالسلاح و على جبهات
القتال مقدماً فيها من نفسه الأعاجيب من
التضحيات و البطولات.

بل كذلك بأداة الكلمة التي راح يحاربُ
بها معاوية و عشيره، هاجياً معاوية تارةً
و مبيناً فضائل امير المؤمنين عليّ تارةً

^١ . المصدر السابق.

أخرى و حائثاً في كل ذلك الناس على
نصرة الإمام و دعمه و مؤازرته و جهاد
معاوية و دحره و قتاله.

في ذلك اليوم أنشد قيسٌ أشعاراً صارخةً
هجا فيها معاوية بعنف، و أتى فيها على
كل قبائحه و معايبه و سوابقه و عدا
قبيلته للاسلام في أقوى عملية شعريّة
فاضحة.

فارتبك معاوية و تأثر لذلك تأثراً شديداً
و بعد مشورة مع حليفه الماكر عمرو بن
العاص طلب فريقاً من أصحاب الإمام
الذين كانوا صحابةً لرسول الله ليرجو
منهم أن يتوسطوا عند قيس بن سعد

ليكفّ عن مواصلة هجاءه الذي فضح
فيه معاوية على رؤوس الأشهاد!

و كان براء من الذين اختارهم الإمام
للذهاب إلى معاوية مع الفريق الذي
طلب معاوية اللقاء بهم.

و لا بدّ أنّ علّة انتخاب براء من بين
جماعة الأنصار تكشف عن مدى
إخلاص براء للإمام و مدى اعتماد الإمام
عليه و ثقته به.

لقد كان الإمام عليّ عليه السلام معرفةً كاملةً
بأصحابه و بمدى إخلاصهم له و مدى
معرفتهم بولايته و إيمانهم بقيادته كما
أشرنا إلى ذلك في الصفحات السابقة.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مَدَى حُبِّ بَرَاءٍ وَ
وَلَاءِهِ، بِالْأَمْرِ الْخَفِيِّ عَلَى الْإِمَامِ وَ لَكِنَّهُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ رُبَمَا عَمِدَ إِلَى اسْتِنطَاقِهِ
لِيُطَّلَعَ النَّاسُ عَلَى مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ بِرَاءٍ
مِنْ تَعَلُّقٍ بِالْإِسْلَامِ وَ وَدِّ لِلرَّسُولِ وَ أَهْلِ
بَيْتِهِ الْمَكْرَمِينَ.

فَنَرَاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْأَلُ بَرَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ:

«كَيْفَ وَجَدْتَ هَذَا الدِّينَ؟»

فِيجِيبُ بَرَاءٌ:

«كُنَّا بِمَنْزِلَةِ الْيَهُودِ قَبْلَ أَنْ نَتَّبِعَكَ، تَخِفُّ
عَلَيْنَا الْعِبَادَةُ، فَلَمَّا اتَّبَعْنَاكَ وَ وَقَعَ حَقَائِقُ
الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِنَا وَجَدْنَا الْعِبَادَةَ قَدْ تَنَاقَلَتْ

فِي أَجْسَادِنَا» (أَي لَمَسْنَا تَأْثِيرَهَا وَ بَرَدَهَا
أَمَّا قَبْلُ فَلَا).^١

لَقَدْ كَانَ بَرَاءً يَتَمَتَّعُ فِي ضَوْءِ مَعْرِفَتِهِ
الْعَمِيقَةِ بِمَكَانَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ
بِسَبَبِ جِهَادِهِ الطَّوِيلِ سِوَاءَ مَعَ الرَّسُولِ
أَوْ مَعَ الْإِمَامِ، كَانَ يَتَمَتَّعُ بِمَكَانَةِ خَاصَّةٍ
بَيْنَ أَصْحَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَ بِثِقَلِ خَاصِّ
حَتَّى أَنْ الْبَرَقِي يَقُولُ فِي حَقِّهِ:

«كَانَ بَرَاءً مِنْ أَصْفِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ».^٢

وَ يَقُولُ عَنْهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ:

قَالَ بَرَاءُ بْنُ الْعَازِبِ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ

فَنَزَلْنَا بِبَغْدِيرِ خَمِّ فَنُودِيَ فِينَا:

١ . رجال الكشي، ص ٤٥ .

٢ . قاموس الرجال، ج ٢، ص ١٥٠ .

«الصلاة جامعة»

و كسح لرسول الله بين شجرتين فصلّى
الظهر و أخذ بيدي عليّ و قال:

«اللهمّ من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه».

فلقية عمر بن الخطاب بعد ذلك، فقال:
«هنياً لك يا بن أبي طالب، أصبحت و
أمسيت مولاي و مولى كل مؤمن و
مؤمنة»^١.

من أجل هذا يكونُ براء بن العازب من
رُواة حديث الغدير و لعلّ لهذا السبب
كان موقفه عقيب وفاة الرسول يختلفُ
عن مواقف كثيرٍ من المسلمين، لأنّه كان

١ . تذكرة الخواص، ص ٢٩.

قد شهد يوم الغدير وشهد نصب الرسول
عليّاً لخلافته و إمامة الأمة بعده.

و لذلك كان عليّ حقّاً أن يقلق عليّ
مصير الخلافة بعد رسول الله و يتخوّف
من أن ينصرف الأمر عن امير المؤمنين
عليّ عليه السلام.

فاذا به يكثر التردّد إلى بيت بني هاشم و
بيوت رجال قريش ليرى ماذا سيحدث
أخيراً.

وقد يكون من المناسب هنا أن ننقل نصّ
ما قاله ابن أبي الحديد المعتزلي في هذا
الصدد.

يقولُ ابن أبي الحديد:

قال براء بن العازب: لم أزل لبني هاشم
مُحِبًّا. فلَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ، خَفْتُ أَنْ تَتَمَالَأَ
(تتعاون) قريش على إخراج هذا الأمر
(أمر الخلافة) عنهم.

فأخذني ما يأخذُ الوالدة العجول مع ما
في نفسي من الحزن لوفاة الرسول صَلَّى
الله عليه وآله.

فكنتُ أتردُّ إلى بني هاشم وهم عند النبيِّ
في الحجرة و أتفقُّ وجوه قريش إذ فقدت
أبا بكر و عمر و إذا قائلُ يقول:

«القومُ في سقيفة بني ساعدة».

و إذا قائلٌ آخر يقول: «قد بُويِعَ أبو بكر»

فلم ألبث و إذا أنا بأبي بكر قد أقبل و معه
عمر و أبو عبيدة و جماعة من أصحاب
السقيفة و هم محتجزون بالآزر الصنعائيّة
لا يمرّون على أحدٍ إلاّ خبطوه و قدّموه
و مدّوا يده.

فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه، شاء
ذلك أم أبي!

فأنكرت عقلي و خرجتُ أشتدّ حتّى
انتهيتُ إلى بيت بني هاشم و الباب مغلق.
فضربتُ عليهم الباب ضرباً عنيفاً و قلتُ:
قد بايع الناس لأبي بكر بن أبي قحافة.^١

^١ . قاموس الرجال، ج ٢، ص ١٥٥.

هذه الوثيقة التاريخية، مضافاً إلى أنّها
تكشف عن الكيفيّة غير القانونيّة التي تمّ
بها حلول أبي بكر على مسند الخلافة،
فإنّها تكشف عن مدى عمق الولاء لدى
براء تجاه بني هاشم ونعني عترة الرسول
الأمين واميروالمؤمنين عليّ بن أبي طالب
صلّى الله عليهم اجمعين.

الزّلة الكبيرة

كان ذلك في نهاية عام ٣٥ هجرية أي بعد مقتل عثمان يوم تسلّم الإمام عليّ بن أبي طالب زمام الخلافة و أصبح حاكماً مطلقاً على كلّ أقطار العالم الإسلامي و لم يخالفه أحدٌ سوى معاوية الذي رفع لواء المعارضة للإمام عليّ و رفض أن يخضع للحكم الالهي الذي كان يمثّله الإمام عليّ عليه السلام.

الأمر الذي دفع بالإمام - حرصاً على كرامة البلاد الإسلامية من اعتداءات أعوان معاوية - دفع بالإمام إلى أن ينتقل مضطراً من المدينة و يجعل العراق

عاصمة حكمه حيث المكان الأنسب فيها
و هو الكوفة.

و حيث إنّ أهل الكوفة لم يدركوا عهد
الرسالة و لم يكونوا على معرفة كاملة
بموقف النبيّ الكريم من الإمام عليّ و
الذي يرتكز على تقديم عليّ عليه السلام
على غيره. فإنّ الإمام راح يستفيد من
الفرص المختلفة لتعريف أهل الكوفة
على مزاياه و مكانته عند الرسول.

فهو أنشد جمعاً من صحابة الرسول يوم
كان في الرحبة في إحدى الاجتماعات
الكبرى.

رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ:

أَخْبَرَنَا أَبُو مَرْزِيمٍ الْأَنْصَارِيُّ، عَنِ الْمِنْهَالِ
بْنِ عَمْرٍو، عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: خَرَجَ
عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْقَصْرِ
فَاسْتَقْبَلَهُ رُكْبَانٌ مُتَقَلِّدُونَ بِالسُّيُوفِ عَلَيْهِمُ
الْعَمَائِمُ، فَقَالُوا:

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً
اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مَوْلَانَا.

فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«مَنْ هُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ؟»

فَقَامَ خَالِدُ بْنُ زَيْدٍ أَبُو أَيُّوبَ، وَخُزَيْمَةُ بْنُ
ثَابِتٍ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ
عُبَادَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ فَشَهِدُوا

جَمِيعاً أَنَّهُمْ سَمِعُوا رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ يَوْمَ
غَدِيرِ خُمٍّ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»
فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ، وَ
بِرَاءِ بْنِ الْعَازِبِ:

«مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تَقُومَا فَتَشْهَدَا فَقَدْ سَمِعْتُمَا
كَمَا سَمِعَ الْقَوْمُ»؟
ثُمَّ قَالَ:

«اللَّهُمَّ إِنْ كَانَا كَتَمَاهَا مُعَانِدَةً فَاِبْتَلِيهِمَا»،
فَعَمِيَ بِرَاءُ بْنُ الْعَازِبِ، وَ بَرِصَ قَدَمَا
أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ.

فَحَلَفَ أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ أَنْ لَا يَكْتُمَ مَنْقَبَةَ
لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَ لَا فَضْلًا أَبَدًا.

وَ أَمَّا بَرَاءُ بْنُ الْعَازِبِ قَدْ أُصِيبَ بِالْعَمَى
فَكَانَ يَسْأَلُ عَنْ مَنْزِلِهِ، فَيُقَالُ: فِي مَوْضِعِ
كَذَا وَ كَذَا فَيَقُولُ: كَيْفَ يَرُشِدُ مَنْ أَصَابَتْهُ
الدَّعْوَةُ.

و قد نقل هذه القصة كثير من محدثي
الشيعة ومورّخيهم منهم الكشي في رجاله
و مؤلف «تنقيح المقال» و هو من الناحية
التاريخية أمر مسلم به.^١

يبقى أن نعرف أن زلة براء و أنس
لا يمكن الغضّ عنهما،

بيد أنه لا بد من الالتفات إلى هذه الحقيقة
- كذلك - و هي أنه ليس من الضروري

١ . رجال الكشي، ص ٤٤؛ قاموس الرجال، ج ٢، ص ١٥١ و هو من
الناحية التاريخية أمر مسلم به.

أن يكون معنى أن المرء شيعياً هو ذلك الذي لا تصدر منه في حياته زلّة من الزلل مطلقاً وأن يكون أبداً قاهراً لهواه ملجماً لنزواته أو شهواته فذلك لا يمكن أن يحدث في مجال الطبيعة البشريّة.

هذا مضافاً إلى أننا نجهل -بالفعل- أسباب هذا الكتمان من جانب براء - شخصية حديثنا هنا - في ذلك الاجتماع، في حين كان براء نفسه -كما سبق- أحد من الذين رَووا حديث الغدير كما رواه المؤرّخون الإسلاميّون عنه بأسناد متعدّدة.

ثمّ هو ذلك كان بلغت به محبّته للإمام
عليّ و وُدّه لشخصه حدّاً لا يقبل شكّاً،
كأية حقيقة تاريخية ثابتة.^١

و مهما يكن فقد ترك براء المدينة ليلازم
عليّاً امير المؤمنين في سفره إلى العراق،
حيث نقل اليه الإمام عاصمة حكمه - كما
أسلفنا -.

وهناك في الكوفة أقام براء...

و شارك مع الإمام في حروبه الثلاث و
في عام ٧٢ من الهجرة أيّام حكم مصعب
بن الزبير التحق براء بالرقيق الأعلى.^٢

١ . للتوسّع الأكثر راجع الجزء ١ من موسوعة الغدير للأميني، ص ١٨.

٢ . الاستيعاب، ج ١، ص ١٤٥؛ طبقات ابن سعد، ج ٤، ص ٣٦٨.

١٣. مؤذن الرسول؛ بلال بن رباح الحبشي

كثرت الضغوط على بلال في عهد خلافة أبي بكر لحملة على أن يؤذن للخليفة كما كان يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وآله حتى أن أبا بكر نفسه طلب من بلال هذا الأمر قائلاً: أذن!

ولكن يجبره أبو بكر على الأذان و ذكره بعثته له يوم كان بلال رقيقاً لرجل من قريش يعذبه.

وأجابته بلال بالقول: «إن كنت أعتقتني لله فخذني و من أعتقتني له و إن كنت إنما أعتقتني لأن أكون معك و لتأخذ منفعتي في الدنيا، أقمْتُ حتى أخدمك...

إِعْلَمُ أَنِّي لَا أُؤَدِّنُ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ».

كَانَ بِلَالٌ شَابًّا أَسْوَدَ الْبَشْرَةَ نَحِيفَ الْجِسْمِ طَوِيلَهُ. أَتَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى مَكَّةَ وَ بَعْدَ رَحْلَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ اسْتَقَرَّ عَبْدًا عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ قَرِيْشٍ كَانَ فِي الْقِسْوَةِ - كَمَا كَانَ فِي الْعِدَاءِ لِلْإِسْلَامِ - مُضْرِبَ الْمَثَلِ.

إِنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يَتَمَتَّعُ بِوَجْهِ جَذَابٍ وَ طَلْعَةٍ مَغْرِبِيَّةٍ بَلْ كَانَ كَغَيْرِهِ مِنْ أَبْنَاءِ جَلْدَتِهِ مَغْضُوبًا عَلَيْهِ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْقَاسِيَةِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَنْطَوِي عَلَى قَلْبٍ مَشْرِقِيٍّ... وَ فِكْرٍ أَكْثَرَ إِشْرَاقًا. ذَلِكَ هُوَ بِلَالُ الْحَبَشِيِّ الَّذِي آمَنَ بِالرَّسُولِ وَ أَقْبَلَ عَلَى الْإِسْلَامِ بِشَوْقٍ

وَرَغْبَةٍ شَدِيدَيْنِ يَوْمَ لَمْ تَكُنْ أَشْعَةَ الْإِسْلَامِ
قَدْ تَجَاوَزَتْ أَسْوَارَ مَكَّةَ بَعْدُ.

أَمِنَ بِالْإِسْلَامِ وَانضَوَى تَحْتَ رَايَةِ التَّوْحِيدِ
وَ رَاحَ يُظْهِرُ اسْتِيَاءَهُ مِنْ أَصْنَامِ الْعَرَبِ
وَ مَا كَانَتْ تَظَنَّ أَنَّهَا مَعْبُودَاتُهَا حَقًّا.

عَلَى أَنْ شَهَامَتَهُ تَكْمُنُ فِي أَنَّهُ فَعَلَ - وَ
ظَلَّ يَفْعَلُ - كُلَّ ذَلِكَ وَ هُوَ عَبْدٌ لِرَجُلٍ
يُدْعَى أُمِيَّةَ بِنِ خَلْفِ الَّذِي كَانَ أَحَدَ أَقْطَابِ
قُرَيْشٍ وَ وَاحِدًا مِنْ أَعْدَى أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ
وَ خُصُومِ الرَّسُولِ.

أُمِيَّةَ ذَلِكَ الْمُشْرِكِ الْأَرَعْنَ الَّذِي كَانَ لَا
يَفْتَأُ عَنِ الْكَيْدِ بِالْإِسْلَامِ الْحَنِيفِ لِمَحْوِ
مَعَالِمِ التَّوْحِيدِ الَّذِي رَاحَ يَتَهَدَّدُ أَصْنَامَهُ وَ
إِنَّكَ لَتَسْتَطِيعُ بِيُسْرٍ أَنْ تَحْدِسَ كَمَا سَتَحْمَلُ

مِنَ الْعَذَابِ وَ الْأَذَى غَلامٌ يُؤْمِنُ بِالْإِسْلامِ
هَذَا سَيِّدُهُ .

وَ إِنَّكَ لَتَسْتَطِيعُ - كَذَلِكَ - أَنْ تَخْمَنَ كَيْفَ
سَيَكُونُ هَذَا الْعَذَابِ وَ كَمْ سَيَكُونُ قَاسِيًا،
مَرَهَقًا، ضَارِيًا .

وَ كَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ مَعَ بِلَالٍ ...

فَقَدْ اسْتَخْدَمَ سَيِّدُهُ أُمِّيَّةً مَعَهُ لِإِرْجَاعِهِ عَنِ
الْإِسْلامِ، تَعْذِيبًا وَحَشِيًّا جَدًّا يَشْبَهُ إِلَى حَدِّ
كَبِيرٍ بِمَا كَانَ يَقَعُ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى
بِأُرُوبَا . وَإِلَيْكَ فِيمَا يَلِي نُمُودَجِينَ مِنْ ذَلِكَ
التَّعْذِيبِ الْقَاسِيِ :

١ . وَ كَانَ «أُمِّيَّةً» يَخْرُجُ بِلَالًا إِذَا حَمَتِ
الظُّهْرَةَ، وَ رَمَضَاءَ مَكَّةَ تَلْتَهَبُ نَارًا، وَ
حَصْبَاؤَهَا تَنْضِجُ الْأَقْدَامَ وَ تَشْوِي اللَّحُومَ

فيطرحه على ظهره في تلك الأرض
المتقدة حرارةً ثم يأمر بالصخرة أو
الشجرة العظيمة فتوضع على صدره أو
ظهره، ثم يقول له:

«لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر
بمحمّدٍ و تعبد اللات و العزّى».

فيقول بلال - و كلماته تقطر صموداً -
و هو في ذلك البلاء: «أحدُ أحدٌ»^١

و هو يعني: لا... لا... لن أركع لألهتكم
و لن أعترف إلا بالله الأحد الواحد، فهو
معبودنا الحقيقي و إلها لا سواه من هذه
الأصنام الثلاثمائة و الستين التي أنتم لها
عاكفون.

١ . السيرة النبويّة، ج ١، ص ٣٤٠.

٢ . كان يعمدُ أميَّة - لإرعاب بلال و تخويلفه - إلى وسيلة أخرى هي: أن يلقي عليه جلد بقرة حتى ليكاد يختنقُ بلال تحته و هم يقولون: ربك اللات و العزى وهو يجيبهم في صمود غريب: أَحَدًا حَذُّ^١ .
حقاً كان صمود ذلك الشابّ الحبشي مُثيراً للدهشة، للجميع.

فها هو ورقة بن نوفل (و هو من حكماء العرب في مكّة و علماءها، قرأ الإنجيل فاعتنق المسيحيّة) يندهشُ لذلك الصمود الذي تراه عيناه من ذلك الغلام الحبشي الشابّ. و هو يتعجّبُ بشدّه من ثباته على عقيدته، رغم التعذيب المروع ذاك الذي

١ . طبقات ابن سعد، ج ٣، ص ٢٣٢.

قَلَّ إِن يَطِيقَهُ بَشَرٌ مِّثْلَهُ. حَتَّى أَنَّنَا نَجِدُهُ
يَسْتَنْكِرُ عَلَى أُمِّيَّةٍ وَحَشِيَّتِهِ وَقَسْوَتِهِ وَ
يَقُولُ: «أَحْلَفُ بِاللَّهِ لئن قَتَلْتُمُوهُ عَلَى هَذَا
الْحَالِ لَأَتَّخِذَنَّهُ حَنَانًا» (أَي لَأَتَّخِذَ قَبْرَهُ
مَزَارًا وَ مَتَبَرِّكًا أَحْنَّ إِلَيْهِ).^١

و هي كلماتٌ-كما تبدو-تنبئُ عن إعجاب
ورقة العميق بتلك الصلابة الشامخة في
إيمان بلال و ذلك الصمود الهائل إزاء
ذاك التعذيب الأكثر هولاً.

حقيقة أن بلالاً لن يكن هو وحده الذي
كان يواجه تلك المحنة بالصمود الغلاب،
بل كان شأن كل تلاميذ الرسول و أتباعه
مِن الرعيّل الأوّل.

١ . السيرة النبويّة، ج ١، ص ٣١٨.

كان شأنهم و موقفهم تجاه جميع أنواع التعذيب و الأذى القاسية الرعية.

فلطالما لَجَبَّتْ قريش إلى «إلباس» أولئك المستضعفين من المسلمين دروعاً حديديةً ثقيلةً وترَكهم تحت هجير الشمس اللافحة أو ألقتهم في أحواض من الماء ثم عمدت إلى تغطيتها و إغلافها حتى يكاد من فيها يختنق و يفقد حياته.

و ذات مرّة - و بعد أن ملّ أمية تعذيب غلامه بلال- جعل في عنقه حبلاً ثم أمر صبيان مكّة أن يشتدّوا به و يركصوه بين جبّلين في مكّة!^١

^١ . طبقات ابن سعد، ج ٣، ص ٢٣٣.

بلال يتحرّر

ظلّ بلال أَيْاماً و شهوراً يتحمّل من قريش و من سيّده بالذات الأذى البالغ و التعذيب القاسي الذي ما كان ليُحمّل، حتى أعتقه أبوبكر في عمليّة مقايضة دفع فيها إلى أميّة غلامه المشرك و ابتاع بلالاً و أعتقه.

وكان هذا الإعتاق هو الحقّ الوحيد الذي كان لأبي بكر على بلال.

و لكننا يجب أن ننتظر لنرى ما كان يتوقّعه أبوبكر من بلال إزاء هذا الحقّ الذي كان له على بلال.

على أن عتق بلال على يدي أبي بكر
أمرٌ لا يرقى إليه شكّ.

و لكن مؤلف «قاموس الرجال» شكك
في ذلك، حيث نقل عن كتاب «النقض
العثمانيّة» تأليف الإسكافي:

«إنّ بلالاً كان عتيق رسول الله».

و لكن يمكن أن تكون هذه النسبة مبنية
على أن إعتاق أبي بكر لبلال تمّ بطلب
من الرسول الكريم و لذلك أمكن اعتباره
عتيق رسول الله بهذا المعنى.

إلا أن مؤلف القاموس لا يقتصر على
هذا الحدّ بل ينسب هذا الرأي (أنّ بلال
عتيق رسول الله حقيقةً لا مجازاً وادّعاءً)

إلى محمّد بن اسحاق و طبقات الواقدي
أيضاً.

ولكن السيرة النبويّة التي هي في حقيقتها
تلخيص لسيرة ابن اسحاق و الطبقات
الكبرى لابن سعد التي نظّمها مؤلفها في
الحقيقة من طبقات استاذه الواقدي.

هذان المصدران يذهبان إلى أنّ بلال
كان عتيق أبي بكر،

لا كما ذهب إليه مؤلف قاموس الرجال.
ثمّ إنّ ثمة قرائن كثيرة تدلّ على الرأي
الأوّل.^١

١ . السيرة النبويّة، ج ١، ص ٣١٨؛ طبقات ابن سعد، ج ٣، ص ٢٣٢ و
ج ٧، ص ٣٨٦.

بلال يقتل أمية

و لكن حيث إنّ أعمال المرء و مآثمه لا
يمكن أن تمرّ بلا مردود طبيعي (وضعي)
هنا في الحياة قبل الآخرة.

و حيث إنّ هذا المرردود لا يمكن أن
يضمحلّ أو يبقى قيد الكتمان أبداً.

بل لا بدّ أن يظهر في يومٍ من الأيام
فيصيبُ صاحبه و ينال كلّ مرءٍ جزاء
ما كسب.

أتى ذهب؟

في السماء سعد أو في أعماق الأرض
اختبأ أو غاص في البحر؟

حيث إنّ هذه هي سُنّة الحياة منذ أنشأت،
فإنّ أميّة لم يكن بالمستثنى منها.

فقد شاءت المقادير أيضاً أن يقع أميّة و
ابنه أسيرين في أيدي المسلمين يوم بدر،
و في المسلمين من كان لا يحبّ قتلها.

وتشاء المقادير أيضاً أن يقع عليهما عينا
بلال و يتذكّر عذاباته و مِحَنَهُ على يد
أميّة القاسي فيصرخُ طالباً من المسلمين
النصرة لقتل أميّة:

«يا أنصار الله! رأسُ الكفر أميّة بن خلف
لا نجوتُ إن نجا».

و يؤثر استنصاره في نفوس المسلمين
على مُعذِّبه و عدوّه؛ أميّة و ولده الذين

طالما آذياه و عذّباه و كوّياه.. و يُقتلُ أميّة
و ولده على يدي بلال.

و ينال الظالمون جزاء ظلمهم هنا في
الدنيا و لعذاب الله أكبر لو كانوا يعلمون.
و لعلك تستغربُ كيف لم ينسَ بلال
خواطره و ذكرياته الأليمة؟

و كيف ينسى و قد تحمّل من العذاب ما
لا يطيقه بشرٌ؟

إنّ قصة واحدة تصوّر لك ما ظلّ يعانيه
بلال من ألم نفسيّ ممّا لقيه من عذاب
مروع:

أصيب بلال بالحمى -في طريق الهجرة-
على اثر انتقاله من مكّة إلى المدينة، كما

أُصِيبَ غَيْرُهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ جَمْعٌ كَبِيرٌ
بِالْوَبَاءِ وَالْحُمَى.

إِلَّا أَنْ بَلَائاً كُلَّمَا تَذَكَرَ مَا لَقِيَهِ مِنْ عَذَابٍ
وَأَذَى كَانَتْ الْحُمَى تَعَاوَدُهُ...

و تَعَاوَدَهُ الرَّعْدَةُ...

فَانْطَلَقَ يَلْعَنُ-فِي غَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْهُ-أَقْطَابَ
قَرِيْشٍ قَائِلاً:

«اللَّهُمَّ الْعَنْ عَثْبَةَ بَنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَ أُمَيَّةَ
بَنِ خَلْفٍ كَمَا أَخْرَجُونَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ»

ثُمَّ يَنْشُدُ أَيْبَاتاً مِنَ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ يَعْبرُ بِهَا
عَنْ شَوْقِهِ إِلَى رَبِوعِ مَكَّةَ وَ عَنْ أَسَاهِ
لِمُهَاجَرَتِهَا.

يقولُ فيها:

• ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً

بِوَادٍ وِ حَوْلِي إِذْخُرُّ وِ جَلِيلُ

• و هل أَرَدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْنَّةٍ

و هل يَبْدُون لِي شَامَةٌ وِ طَفِيلُ^١

فهل ترى يمكن أن ينسى بلال ذكرياته
والحال هذه وهل ما يدعو إلى الاستغراب
إذا ما استعدى بلال المسلمين على معذبه
أمية الذي ذاق على يده الأمرين؛ الأذى
و الغربية.

^١ . الدرجات الرفيعة، ص ٣٦٣. و «مجنة» مكان بمكة و «شامة» و «طفيل» جبلان بها.

بلال يمدحُ الرسول

إِلَّا أَنْ كَلَّ هَذَا الَّذِي لَقِيَهُ بِلَالٌ مِنَ الْمَرَارَةِ
وَالْمَحَنَةِ لَمْ يَكُنْ بِشَيْءٍ فِي قِبَالِ مَشَاعِرِ
بِلَالِ الطَّاعِيَةِ نَحْوِ رَسُولِ اللَّهِ وَنَحْوِ دِينِهِ
الْعَظِيمِ.

تلك المشاعر التي كان يعبر عنها بلال
تارةً بصمود و تارةً بمديحة للرسول
الكريم.

ها هو يدخل على رسول الله ذات يوم و
هو جالس بين صحبه فيمدحُ النبيَّ بلسان
الحبشة بمديح يكرس نظرتَه إلى الرسول
و حبه و ولائه فيقول:

اره بره كنگره كرا كرى مندره

فيقولُ الرسولُ لحسانَ بنِ ثابتٍ شاعرُ
الإسلامِ المفلقِ: «إِجْعَلْهُ عَرَبِيًّا».

فيقولُ حسانُ بالعربيةِ مترجماً ما قاله
بلالٌ بالحبشيَّة:

إِذَا الْمَكَارِمُ فِي آفَاقِنَا ذُكِرَتْ
فَإِنَّمَا بِكَ فِينَا يُضْرَبُ الْمَثَلُ^١

^١ . مجمع البحرين، مادة بلال.

رحمتها يا بلال، رحمك الله

كانت العادة أن يلتقي بلال بالرسول في وقت معين ولكنه قد تأخر الآن و يجيء بلال و يستفسر منه الرسول عن سبب تأخره: ما حبسك يا بلال؟

و يعتذر بلال قائلاً: يا رسول الله، إني اجتزت بفاطمة وهي تطحن واضعة ابنها الحسن عند الرحى و هي تبكي.

فقلتُ لها: أيما أحب اليك؟... إن شئتِ كفيئكِ ابني و إن شئتِ كفيئكِ الرحى؟

فقالت: أنا ارفق بابني و أخذتُ الرحى فطحنْتُ، فذاك الذي حبسني.

فقال النبي: رَحِمَتَهَا يَا بِلَالُ، رَحِمَكَ اللَّهُ.^١

١ . الدرجات الرفيعة، ص ٣٦٤.

الرسول يعلم بلالاً الأذان

لقد نال بلال شهرته الكبرى بين المسلمين منذ علمه رسول الله صلى الله عليه وآله الأذان و الإقامة^١.

فبعد أن هبط جبرئيل على النبي بالأذان و الإقامة أرسل علياً خلف بلال يستدعيه و تشرّف بلال بخدمة الرسول...

فعلّمه رسول الله الأذان كاملاً و أمره أن يؤدّن له أوقات الصلاة بصوت عالٍ رفيع. و هكذا كان بلال أوّل من تبوأ في الإسلام ذاك المقام الرفيع، إذ كان أوّل مؤدّن عرفه المسلمون.

١ . كتاب من لا يحضره الفقيه، باب الأذان، الحديث رقم ٢.

جعفر الهادي:

قد لا يكون من نافلة القول اذا قلنا: بأن اختيار النبي صلى الله عليه و آله بلالاً لهذا المقام الإسلامي الرفيع بجعله مؤذناً للنبي (هذا بعد أن نقف على عظمة مقام المؤذن في الإسلام طبعاً) من بين صحابته الفضلاء من العرب الفصحاء لم يكن إلا «موقفاً عملياً» من الإسلام لنبذ خرافة «اختلاف الأجناس البشرية» و تحطيم أسطورة «التفرقة العنصرية» التي ظلت عقول البشر ترزخ تحته منذ زمانٍ طويل و حتى هذا اليوم بين شعوب تدّعي لنفسها التقدم و المدنية و التحرر الفكري.

إنّ اختيار الرسول الكريم العظيم؛ مفجّر
أكبر حضارة على وجه الأرض -هذا-
لبلال؛ العبد الحبشي الأسود (الذي كان
يلحن في كلامه) فوق أنّه يكشف عن قدر
ذلك المسلم الحبشي الصامد، إن هو إلاّ
صفعة قويّة في وجه كلّ متشرّقين بالتقدّم
الذين يقتلون الآلاف من السود هناك في
امريكا وهناك في فريقيا شمالها وجنوبها
لا لشيء إلاّ لأنّهم زنوج و لأنّهم سود
ليسوا بيض البشرة زرق الدماء!

ما أتعس حضارة القرن العشرين...

و ما أعظم حضارة الإسلام...

انتهى

وإذا كانت أصحاب الأديان-غير الإسلام-
أرادت أن تدعو أبناءها إلى معابدها و
تعلن عن مواعيد طقوسها، توسلت
بالنواقيس و غيرها.

فإنّ الإسلام قد جعل الأذان -الذي لخص
فيه روح العقيدة و لبابها - علامةً للتجمّع
تجمّع المسلمين في بيوت الله و مساجده
و شعاراً يخبر عن مواعيد الصلاة و
مواقيت الجماعة و الاجتماع.

و ما أكبر الفرق بين الوسيلتين...

وما أعظم الآثار لو أعطينا الأذان بعض
التأمل!

ثمَّ إنّ الرسول الكريم لم يكتفِ بتعليم بلال، ألفاظ الأذان و فصوله، بل فهِمَهُ كذلك بمواقيت الصلاة و كان صَلَّى الله عليه وآله يقول للناس:

«إنّ ابن أمّ مكتوم يؤذّن بليلاً فإذا سمعتم أذانه، فكلّوا و اشربوا حتى تسمعوا أذان بلال». ^١

أجل، هذا هو بالضبط ما قاله الرسول صَلَّى الله عليه وآله في حقّ أذان بلال إلا أنّ الأيدي المغرضة قلبت الأمر تماماً في وقاحة و لم يكن هذا التحريف لينال من بلال إلا لأنّه كان يشايغُ عليّاً و يوالي عترته الطاهرة.

١ . وسائل الشيعة، أبواب الأذان، باب ٨، حديث ١ .

حقيقة أنّ بلالاً ليس هو الوحيد الذي
تتعرّضُ قضايا لمثل هذا التعريف البشع
فهناك آخرون تطاولتهم أيدي التحريف
للسبب ذاته.

يوم فتح الرسول «مكة» و اكتسح من
الكعبة المقدّسة كلّ الأصنام و الأوثان،
أمر بلالاً أن يصعد فوق البيت و يؤذّن
لصلاة الظهر.

فصعد بلال فوق البيت وأذّن بصوتٍ عالٍ
الله اكبر...

اشهد أن لا اله الا الله...

اشهد أنّ محمّداً رسول الله...

سمعه كلّ مشرّكي مكّة من الكبير و
الصغير و انتصبت على أبدانهم الشعور
و ارتجت القلوب رهبةً، اذ لم يكونوا
يصدّقون أن يكتسح الإسلام - المطرودُ
بالأمس - قلعةً و ثنيّتهم...

و لكنّه أمرٌ كان قد قدر...

فهذا صوت التوحيد يعلو من فوق البيت
و تعود الكعبة المشرفة - التي لوئثّتها
أرجاس الأوثان - مرّة أخرى أقدس مكان
لعبادة الله لاسواه و أقدس منارة للتوحيد
على وجه الأرض.

كلّ هذا كان شديد الوطأة على نفوس
المشركين قطعاً و لذلك نرى أحدهم وهو

خالد بن سعيد بن العاص وكان آنذاك من
المشركين يقول:

«الحمد لله الذي أكرمَ أبي فلم يدرك هذا
اليوم»

و يقول آخر و هو الحارث بن هشام:
«وا تكلاه، ليتني متُّ قبل هذا اليوم، قبل
أن أسمع بلالاً ينهقُ فوقَ الكعبة».

و يقول ثالث و هو الحَكَم بن ابي العاص:
«هذا والله الحدث العظيم، ان عبد بنى
جمح يصيح بما يصيح به على بيته».^١
يقول الحلبي في سيرته:

١ . الدرجات الرفيعة، ص ٣٦٥.

«إِنَّ دَخُولَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) دَاخِلَ الْكَعْبَةِ وَ أَذَانَ بِلَالٍ فَوْقَ ظَهْرِهَا، كَانَ فِي عَمْرَةِ الْقِضَاءِ (و هِيَ الْعَمْرَةُ الَّتِي سَمَحَتْ قَرِيْشٌ لِلرَّسُولِ أَنْ يَأْتِيَهَا وَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، قِضَاءً عَنِ الْعَمْرَةِ الَّتِي فَاتَهُمْ فِي السَّنَةِ السَّابِقَةِ عَلَى إِثْرِ صَلْحِ الْحَدِيبِيَّةِ وَ سَمَحَتْ لَهُمْ بِالْبَقَاءِ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ) وَ فِيهَا قَالَ خَالِدٌ وَ حَارِثٌ مَا قَالَا، خِلَافَ الْمَشْهُورِ، إِذِ الْمَشْهُورُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي يَوْمِ الْفَتْحِ»^١.

عَلَى أَنْ مَا يَلْفَتُ النَّظْرَ فِي أَمْرِ بِلَالٍ هُوَ اخْتِيَارُهُ لِلْأَذَانِ وَ هُوَ يَلْحَنُ فِي كَلَامِهِ، بِيَدِ أَنْ بِلَالاً وَ إِنْ كَانَ يَلْحَنُ فِي كَلَامِهِ

١ . السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٧٥.

و يجعل الشينَ سيناَ أبدأً، إلا أنه
لسوابقه المضيئة في تاريخ الدعوة
المحمّديّة و لما كان ينطوي عليه من
فؤاد ظهور اختاره الرسول مؤدّناً
ومَنَحَه تلك المنزلة الجليّة و ظلّ يقول
في حقّه:

«سينُ بلالُ شينٌ عند الله»

و قد كان البعض يعترضُ على الرسول
اختياره لبلال و هو ما هو عليه من
اللحون وفي الصحابة من هو أفصحُ منه
و أصلحُ للأذان و...

فكان النبي يقولُ عنه مدافعاً:

«ماذا يضرّ بلالاً لحنه في كلامه اذا كانت أفعاله مقومةً أحسن تقويم و مهذّبةً أحسن تهذيب؟»^١

و الجدير بالذكر أنّ بلالاً لم يتلقّ من رسول الله عتاباً مدّة صحبته الطويلة، إلاّ مرّة واحدة و تلك يوم فتح خيبر، بعد أن فتحت حصونها، فأتى بلال بصفية بنت حبي بن أخطب، فمرّ بها على قتلى من قتلاها. فلما رأتهم صاحت و جرّعت فعاتب النبيّ بلالاً على فعلته و قال:

«أ نُرِعتُ منك الرحمةُ يا بلال حين تمرُّ بامرأة على قتلى رجالها؟»^٢.

١ . الدرجات الرفيعة، ص ٣٦٣

٢ . السيرة النبويّة، ج ٣، ص ٣٥١.

بلال و الخلافة

إنّها حقيقةٌ لا تُناقشُ أنّ تغيّر الظروف و تبدّل الأوضاع هو شرط أساسي من شروط التعرّف الكامل على نفسيّة الأفراد و سلوكهم الحقيقي و معرفة مدى ثباتهم و استقامتهم على درب العقيدة و الإيمان.

ذلك لأنّ العيش في ظرف واحد و وضع واحد و مكان واحد لا يمكن أن يعكس بحالٍ ما ينطوي عليه الفرد من نوايا و خلق و شخصيّة و نفسيّة، إذ قد لا يكون الفرد قادراً على إبراز ما ينطوي عليه في ذلك المكان أو الظرف المعين.

أما حينما تتغيّر الظروف و الأمكنة، و تتواتى الفرص التي تتيح للغرائز المحبوسة و النوايا المكتومة بعض المُنْتَفَس و فرصة الإنطلاق.

أقول: حينما تتوفرُ المقتضيات الطبيعية لبروز كلّ تلك المكنونات من غريزة الذات إلى حبّ الجاه، و إلى حبّ الشهرة و إلى حبّ الارتقاء في المناصب الشكلية هذه المقتضيات التي طالما تتيح للغرائز إمكانية التوثّب و هي تجدُ فرصتها المناسبة فيما هي لا تظهر و لا تتوثّب اذا بقيت في ظرفٍ آخر و مكانٍ آخر و وضعٍ آخر و الموانع قائمة و عوامل الإيقاظ مفقودة.

أقول حينما يكونُ كلُّ هذا، فإنَّ المسئلة
سيكون لها وجهٌ آخر... ساعتئذٍ...

حينذاك سيُرى - كما هو المألوف - كيف
أنَّ الإيمان يتراجعُ تحت مطارق الغريزة
الفلتانة و كيف أنَّ الاعتقاد بالآخرة
و العقاب الالهي يختفي وراء دُخان
الشهوات الطليقة من سجونها.

هذه حقيقة تكادُ سُنّة من سنن الحياة و
الطبيعة البشريّة فلنرى فكيف كانت مع
بلال.

لقد كانت البيئة الإسلاميّة بعد وفات
رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم مسرحاً
لتغيّراتٍ عظيمةٍ كانت لبلال - ولأمثاله -
من ذوي المراكز الحسّاسة في العهد

النبي، أفضل فرصة للاستفادة من سوابقه و مركزه السابق للحصول على أفضل الامتيازات في جهاز الخلافة التي توأجت بعد غيبة الرسول صلى الله عليه وآله و وفاته الأليم.

كان يكفي لبلال أن يُسعف الخلافة بأذانه ليثبت به قواعد و يضيف عليها الشرعية كان يكفي لبلال أن يؤذن بضع مرّات لا أكثر ليجد الدنيا و مغانمها مصبوبةً بين يديه و نعيمها متاحاً له.

ولكنّ بلالاً حيث لم يكن بالذي يبحث عن الفرص و المغانم على حساب عقيدته كأبي انتهازيّ نعرف من الانتهازيين أو أيّ مصلحيّ من المصلحيين.

هذا بلالٌ لم يكن بالذي يدوس على
عقيدته فيصرف ضدّ ما يعتقد.

و لذا نجده يمتنع من تأييد خلافة الخلفاء
فلا هو يبايع و لا هو يؤذّن.

و هكذا لم يترك تغيير الظروف أيّ أثرٍ
في نفس بلال الصمود و الثبات و لا أيّ
منعطف...

و إليك مفصل القصة

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه و آله
كانت «مسئلة الخلافة» أوّل أمرٍ انقسم
بسببه المسلمون إلى قسمين؛

فريق ... مؤيّد و

فريق ... مخالف

و راح المؤيّدون يسعون لتوطيد دعائم
ما أوجدوه من الخلافة الانتخابيّة و غير
المشروعة التي أتت بأبي بكر و إسباغ
رداء الشرعيّة عليها بكلّ وسيلة ممكنة
تثبت أنّ الأمر كان طبيعياً يُمليه الواقع و
ليس شذوذاً في مسير القيادة الإسلاميّة.

و لهذا كان أذان بلال من إحدى هذه
الوسائل (التي بإمكانها إسباغ الشرعية
على تلك الخلافة).

إذ أيّ شكّ يمكن أن يحوم حول شرعية
خليفة يكون فيها المؤذن نفس مؤذن
رسول الله؟

ثمّ أيّ شكّ يمكن أن يبقى في هذا المجال
و هذا مؤذن الرسول ... يبايع الخليفة
المنتخب؟

من أجل كلّ هذه الاعتبارات طلبت
أجهزة الخلافة من بلال أن يؤذن و يبايع
فقابل عمر بلالاً - الذي أبى أن يبايع
أبابكر - و قال له بشيء من العنف:

يا بلال! أهذا جزاء أبي بكر منك، أنه
أعتقك فلا تجيء تبايعه؟

فأجابه بلال:

«إن كان أبو بكر أعتقني لله فليدعني له
و إن كان أعتقني لغير ذلك فما أنا ذا، و
أما بيعته، فما كنت أبايع أحداً لم يستخلفه
رسول الله (صلى الله عليه وآله) و إن بيعة
ابن عمّه عليّ بن أبي طالب يوم الغدير
في أعناقنا الى يوم القيامة، فأينا يستطيع
أن يبايع عليّ مولاة؟»

فغضب عمر من بلال لهذه الإجابة
الرافضة المنطقية فقال له:

«لا أمّ لك، لا تُقم معنا»

فارتحل بلالٌ الى الشام و قال في ذلك شعراً، هو:

• بالله لا بأبي بكرٍ نجوتُ و لو

لا الله قامت على أوصالي الضبُعُ

• الله بوّأني خيراً و أكرمني

و انما الخير عند الله مُتَّبِعُ

بيد أنّ ضغوط جهاز الخلافة لم تتوقف

عند هذا الحدّ بل راح أعوانه يُلحّون عليه

أيما إلحاح، ليؤدّن بلال لأبي بكر حتماً

حتى أنّ الخليفة نفسه تدخل في الأمر و

قال لبلال: أدن!

و ممّا يبدو من إجابة بلال أنّ أبا بكر قد
ذكره بعثته لبلال لمزيد من الضغط عليه
فقد قال بلال في جواب أبي بكر لمّا قال
له: «أذِن»، إن كنتَ أعتقتني لله، فخلّني
و من أعتقتني له و إن كنت انما أعتقتني
لأن أكون معك و لتأخذ منفعتي في الدنيا
أقمتُ معك حتى أخدمك أعلم أنّي لا أؤذّن
لأحدٍ بعدَ رسول الله»^١.

على أنّ ما يبدو للملاحظة من التاريخ
أنّ ضغوط الخليفة و أعوانه لم تتوقف
عند هذا الحدّ أيضاً.

^١ . طبقات ابن سعد، ج ٣، ص ٢٣٦.

فاذا ما تركه الخليفة نفسه فإنّ أَعوانه لم
يتركوه بل ظلّوا يُصرون عليه كي يؤدّن
و يبائع الخليفة حتى اذا كان يوماً من
أيام الجمعة و الخليفة على المنبر و بلال
حاضر في المسجد، انفجر بلال معترضاً
قائلاً: أَعْتَقْتَنِي اللهُ أَوْ لِنَفْسِكَ؟
قال أبو بكر: اللهُ.

قال بلال: فَأَذِنَ لِي حَتَّى أَعَزَّوْا فِي سَبِيلِ
الله.^١

هذه الشواهد التاريخية تدلّ بوضوح و
قوة على أنّ بلالاً لم يُعِن الخليفة أبداً و
أنّه لم يكن يدر بخلده سوى الشوق إلى
الجهاد و أنّه إستفاد من هذه الرغبة

١ . المصدر السابق، ص ٢٣٧.

للفرار من جهاز الخلافة و ضُغوطها
حيث لم تكن له وسيلة أخرى.

إذ أنه لو بقي في المدينة و لم يبايع و لم
يُعن الخلافة، لكان امتناعه أكبر ضربة
للخلافة و هي في مهدها و هي ضربة لم
تكن بالبسيط للخلافة آنذاك.

من أجل هذا الموقف الصامد النبيل قال
عنه الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ بِلَالاً كَانَ عَبْدًا صَالِحًا فَقَالَ لَا أُؤَدِّنُ
لأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
فَتُرِكَ يَوْمَئِذٍ حَيًّا عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ»^١.

^١ . كتاب من لا يحضره الفقيه، كتاب الصلاة، باب ٤٤، حديث ٩.

كم مرّة أُذّن بلالٌ بعد وفاة رسول الله؟

كما قلنا، امتنع بلال من الأذان بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

بيد أنّه - رغم ذلك - أُذّن بعض المرّات، فكم من مرّة و لماذا أُذّن بلال بعد وفاة الرسول؟

الواقع أنّ بلال ظلّ على امتناعه ذلك و لكنّه أُذّن - رغم امتناعه - مرّتين:

إحداهما يوم بنت الرسول الطاهرة فاطمة الزهراء إلى بلال طالبةً منه أن يؤذّن لها لتجدّد بذلك ذكرى والدها العظيم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

و لبى بلال طلب الزهراء الحزينة على
أبيها أشدّ الحزن.

صعد المأذنة المخصّصة له...

و على عادته أيّام الرسول و لكنّه بناءً
لطلب الزهراء هذه المرّة.

أذن بلال و ارتفع صوته: «الله اكبر»

يكسر به لأوّل مرّة بعد وفاة رسول الله
طوق الصمت و تذكر أهل المدينة
- رجالاً و نساءً، كباراً و صغاراً - أيّام
الرسول ليتذكّروا معه رحمته و حنانه،
رفقه و إشفاقه.

و اذا بالمدينة تضجّ بالبكاء ضجّةً واحدةً
يعلو النشيج من الجميع ليرزع في كلّ
مكان إعلام الحزن و الكآبة.

غير أنّ فاطمة بنت الرسول كانت أكثر
بكاءً وأشدّ حزناً لأنّها كانت أكثر تذكّراً
لوالدها العطوف.

فساعة بلغ بلال في أذانه إلى الشهادة
الثانية: «أشهد أنّ محمّداً رسول الله»
شهقت فاطمة الزهراء و غُشيَ عليها.
و لمّا أخبر بلال بالحال أمسك و لم يُتمّ
أذانه.^١

كانت هذه هي المرّة الأولى... و أمّا:

١ . المصدر السابق، حديث ٤٤.

ثانيتها يوم هاجر بلال من المدينة - تحت
ضغوط الخلافة - إلى الشام كما عرفنا.
و فيما هو بأرض الشام رأى النبيّ صَلَّى
الله عليه وآله في منامه و هو يعاتبه قائلاً
له: «ما هذه الجفوة يا بلال! ما آن لك أن
تزورنا»؟

فانتبه بلال حزيناً من منامه و بعزم على
زيارة قبر رسول الله بالمدينة و زيارة
أهل بيته المطهرين، فركب إلى المدينة
فأتى قبر النبيّ صَلَّى الله عليه وآله وسلم
و جعل يبكي عنده و يتمرّغ عليه.

فأقبل الحسن والحسين - سبطي النبيّ -
فجعل يقبلهما و يضمّهما، فقالا لبلال:
«نشتهي أن تؤدّن في السحر».

فيعلو بلال سطح المسجد و يرفع صوته
بالأذان - وهو الذي امتنع من الأذان لأبي
بكر و قال: لا أوذن لأحد بعد رسول الله -
فلما قال: «الله أكبر» ارتجت المدينة على
صوته.

فلما قال: «أشهد أن لا اله إلا الله» زادت
رجتها.

فلما قال: «أشهد أن محمداً رسول الله»
خرج النساء من خدورهن و خرج
الرجال باكين معولين.

فما رُوي يوم أكثر باكياً و باكيةً من ذلك
اليوم.^١

١ . أسد الغابة، ج ١، ص ٢٠٨.

إنّ هذه القطعة التاريخيّة التي ينقلها
الجزري في كتابه لتكشفُ بعمقٍ عن
معنى الحكومة الحقيقي.

و أيّ حكومة يمكن أن تضاهي مثل هذه
الحكومة على القلوب و نعني تأثير اسم
الرسول العظيم في القلوب.

ذلك الاسم الذي ما إن يذكره مؤدّبُهُ إلا
و تغرق القلوب - من الرجال و النساء -
له في أسى عميق و حزن ما له حدود.
قُلْ أية حكومة تكون هذه؟

و هل وجدتها مثيلتها في التاريخ و بين ما
عرفت من الحكومات؟

و أخيراً بلال...

و يظلّ بلال أخيراً...

هو ذلك المسلم الصامد، الشجاع القلب،
الثابت الجنان كما كان أولاً...

و يظلّ كذلك المؤمن الذي لا يرهبه في
طريق الإيمان شيءٌ و لا يخيفه تهديدٌ.

فهو اذا رأى منكراً، عارضه بعنف غير
وَجِلٍ و هو اذا رأى أمراً يتطلّب شجاعة
فعله غير هَيَّابٍ.

فلنسمع ما فعله مع خالد بن الوليد، كما
يرويه صاحب المنار و هو يقول:

«و من العبرِ في هذا المقام تنفيذُ بلالِ
الحبشيِّ العتيقِ لأمرِ عمرَ بن الخطّابِ

(مع موقفه المعارض للخلافة) بِمُحَاسَبَةِ
خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ بَعْدَ تَبْلِيغِهِ عَزْلَهُ عَنْ قِيَادَةِ
الْجَيْشِ بِالشَّامِ.

و مُجْمَلِ الْقِصَّةِ:

وَهِيَ أَنَّ عُمَرَ كَتَبَ -عِنْدَمَا وَلِيَ الْخِلاَفَةَ-
إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ وَ هُوَ فِي جَيْشٍ عَلَى الشَّامِ
يُؤَلِّيهِ إِمَارَةَ الْجَيْشِ الْعَامَّةِ وَ يَعْزِلُ خَالِدًا
عَنْهَا، وَ كَانَ الْجَيْشُ عَلَى حِصَارِ دِمَشْقَ
(أَوْ فِي الْيَزْمُوكِ؛ رِوَايَتَانِ) فَكَتَمَ أَبُو عُبَيْدَةَ
الْأَمْرَ وَ كَبَّرَ عَلَيْهِ أَنْ يُظْهِرَهُ (خَوْفًا مِنْ
سَطْوَةِ خَالِدِ) قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ لَهُمُ النَّصْرُ وَ لَمَّا
أَبْطَأَ عَلَى عُمَرَ الْجَوَابَ، كَتَبَ إِلَى أَبِي
عُبَيْدَةَ ثَانِيَةً يَأْمُرُهُ فِيهِ بِأَنْ يَقْرَأَهُ عَلَى مَلَأٍ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَ فِيهِ الْإِذْنُ بِأَنْ يُعْتَقَلَ خَالِدٌ

بِعِمَامَتِهِ وَ يُحَاسِبَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ فِي
إِمَارَتِهِ، فَهَابَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ لِشَرَفِهِ وَ شَجَاعَتِهِ
وَ بَلَائِهِ فِي الْحَرْبِ وَ حُبِّ الْجَيْشِ لَهُ، وَ
لِكِنَّةِ لَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ، قَامَ بِلَالُ الْحَبَشِيُّ وَ
حَلَّ عِمَامَةَ خَالِدٍ وَ اعْتَقَلَهُ بِهَا فَحَاسَبَهُ
عَلَى أَعْيُنِ الْمَلَأِ الَّذِينَ كَانَ خَالِدٌ أَمِيرَهُمْ
وَ قَائِدَهُمْ فَخَضَعَ خَالِدٌ وَ أَجَابَ»^١.

و بذلك سجّل بلالٌ موقفاً آخر في سِجَلِ
بطولاته على طريق الإيمان و سطرأً
آخر من سطور شجاعته العملاقة.

ثمّ إنّ هذه القصة التاريخية لتكشف - في
حدّ ذاته - عن حرّية لاسابقة لها في تاريخ
العلم.

^١ . تفسير المنار، الجزء الرابع، ص ٣٧.

حريةً يعتقلُ بموجبها مسلم حبشيّ عتيق
أكبر قادة الجيش و يحاسبُه على ما فعل
و يخضعُ هذا القائد بين يدي ذلك المسلم
الحبشي العتيق و يجيبُ على أسئلته و هو
مَنْ هو مِنَ القوّة و البطش و المركز في
حينه.

ثمّ هي لتكشفُ مرّة أخرى كيف أنّ بلال
المسلم الحبشي - الغلام في مطلع حياته -
لا تقعد به الشيخوخة عن القيام بأثقل
المسئوليات و أشدّها وطأةً.

فاذا هو يقدمُ بشهامة شامخة على استلام
زمام المبادرة في أمر خالد...

دون أن يرهبَ أو يهابَ أو يتخوّفَ من
كلّ الإعتبارات التي كانت يتمنّعُ بها خالد

يكون بطشه و غضبه في مقدماتها، بينما
ينكص أبو عبيدة و يهاب.

يبقى أن نعرف أن بلالاً روى رواية
مفصلة حول فضل المؤذن و أجره،
نقلها الشيخ الصدوق رحمه الله:

رُويَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ:

حَمَلْتُ مَتَاعِي مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى مِصْرَ
فَقَدِمْتُهَا فَبَيْنَمَا أَنَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ إِذَا
أَنَا بِشَيْخٍ طَوِيلٍ، شَدِيدِ الْأُذْمَةِ، أَبْيَضِ
الرَّأْسِ وَ اللَّحْيَةِ، عَلَيْهِ طِمْرَانٍ، أَحَدُهُمَا
أَسْوَدٌ وَ الْآخَرُ أَبْيَضٌ.

فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟

فَقَالُوا: هَذَا بِلَالٌ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

فَأَخَذْتُ الْوَاحَاً فَأَتَيْتُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ.

فَقَالَ: وَ عَلَيْكَ السَّلَامُ.

قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ تَعَالَى، حَدَّثَنِي بِمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

فَقَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ مَنْ أَنَا؟

فَقُلْتُ: أَنْتَ بِلَالٌ مُؤَدِّنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

قَالَ الرَّاوِي: فَبَكَى بِلَالٌ وَ بَكَيتُ حَتَّى اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ نَبْكِي.

ثُمَّ قَالَ بِلَالٌ: يَا غُلَامُ مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ؟
قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ.

قَالَ: بَخْ بَخْ، ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ:
اُكْتُبْ يَا أَخَا أَهْلِ الْعِرَاقِ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ:
«الْمُؤَدَّبُونَ أَمْنَاءُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ
وَ صَوْمِهِمْ وَ لِحُومِهِمْ وَ دِمَائِهِمْ، لَا يَسْأَلُونَ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ
فِي شَيْءٍ إِلَّا شَفَعُوا».

قُلْتُ: زِدْنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ.

قَالَ: أَكْتُبُ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ:
«مَنْ أَدَّنَ أَرْبَعِينَ عَامًا مُحْتَسِبًا، بَعَثَهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَهُ عَمَلٌ أَرْبَعِينَ
صِدِّيقًا عَمَلًا مَبْرُورًا مُتَقَبَّلًا».

قُلْتُ: زِدْنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ.

قَالَ: أَكْتُبُ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ:
«مَنْ أَدَّنَ عِشْرِينَ عَامًا بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَهُ مِنَ النُّورِ مِثْلُ زِينَةِ السَّمَاءِ
قُلْتُ: زِدْنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ.

قَالَ: أَكْتُبُ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ:
«مَنْ أَدَّنَ عَشْرَ سِنِينَ أَسْكَنَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
مَعَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قُبَّتِهِ
أَوْ فِي دَرَجَتِهِ».

قُلْتُ: زِدْنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ: أَكْتُبُ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ:
«مَنْ أَدَّنَ سَنَةً وَاحِدَةً بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ كُلُّهَا بِالْغَةِ»

مَا بَلَغَتْ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زُنَّةِ جَبَلِ أُحُدٍ». .
قُلْتُ: زِدْنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ.

قَالَ: نَعَمْ، فَاحْفَظْ وَاعْمَلْ وَاخْتَسِبْ. .
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ:
«مَنْ أَدَّنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَلَاةً وَاحِدَةً إِيْمَانًا
وَإِحْتِسَابًا وَتَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ غُفِرَ
لَهُ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَنْ عَلِيهِ
بِالْعِصْمَةِ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ وَجَمَعَ بَيْنَهُ
وَ بَيْنَ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ».

قُلْتُ: زِدْنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ، حَدِّثْنِي بِأَحْسَنِ
مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. .
قَالَ: وَيْحَكَ يَا غُلَامُ قَطَعْتَ أَنْيَاطَ قَلْبِي، وَ
بَكَى بِلَالٌ وَ بَكَيتُ حَتَّى إِنِّي وَاللَّهِ لَرَحِمْتُهُ
ثُمَّ قَالَ: أَكْتُبُ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ:
«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَجَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
إِلَى الْمُؤَدِّينَ بِمَلَائِكَةٍ مِنْ نُورٍ وَ مَعَهُمْ
أَلْوِيَّةٌ وَ أَعْلَامٌ مِنْ نُورٍ يَقُودُونَ جَنَائِبَ
أَرْمَتْهَا زَبْرَجْدٌ أَخْضَرُ وَ حَقَائِبُهَا الْمِسْكُ
الْأَذْفَرُ يَرْكَبُهَا الْمُؤَدِّونَ فَيَقُومُونَ عَلَيْهَا
فِياماً تَقُودُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يُنَادُونَ بِأَعْلَى
صَوْتِهِمْ بِالْأَذَانِ».

ثُمَّ بَكَى بِلَالٌ بُكَاءً شَدِيداً حَتَّى انْتَحَبَتْ وَ
بَكَيْتُ، فَلَمَّا سَكَتَ قُلْتُ: مِمَّ بُكَاءُكَ؟

فَقَالَ: وَيْحَكَ ذَكَرْتَنِي أَشْيَاءَ سَمِعْتُ حَبِيبِي
وَ صَفِيِّي عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ:

«وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ نَبِيًّا إِنَّهُمْ لَيَمُرُّونَ
عَلَى الْخَلْقِ قِيَامًا عَلَى النَّجَائِبِ، فَيَقُولُونَ
اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ سَمِعْتُ
لِأُمَّتِي ضَجِيجًا».

فَسَأَلَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ عَنِ ذَلِكَ الضَّجِيجِ مَا
هُوَ؟

قَالَ: «الضَّجِيجُ التَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَالتَّهْلِيلُ
فَإِذَا قَالُوا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَتْ:
أُمَّتِي نَعَمْ إِيَّاهُ كُنَّا نَعْبُدُ فِي الدُّنْيَا.
فَيُقَالُ: صَدَقْتُمْ».

فَإِذَا قَالُوا: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَالَتْ
أُمَّتِي هَذَا الَّذِي أَتَانَا بِرِسَالَةِ رَبِّنَا جَلَّ جَلَالُهُ
وَآمَنَّا بِهِ وَ لَمْ نَرَهُ فَيُقَالُ لَهُمْ صَدَقْتُمْ هَذَا
الَّذِي أَدَّى إِلَيْكُمْ الرِّسَالَةَ مِنْ رَبِّكُمْ وَ كُنْتُمْ

بِهِ مُؤْمِنِينَ فَحَقِيقٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ
يَجْمَعَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ نَبِيِّكُمْ فَيُنْتَهِيَ بِهِمْ إِلَى
مَنَازِلِهِمْ وَ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَ لَا أُذُنٌ
سَمِعَتْ وَ لَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَقَالَ: إِنْ اسْتَطَعْتَ - وَ لَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ - أَنْ لَا تَمُوتَ إِلَّا وَ أَنْتَ مُؤَدِّبٌ
فَافْعَلْ.

فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، تَفَضَّلْ عَلَيَّ وَ أَخْبِرْنِي
فَإِنِّي فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ وَ أَدِّ إِلَيَّ مَا سَمِعْتَ مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ فَإِنَّكَ قَدْ رَأَيْتَهُ
وَ لَمْ أَرَهُ وَ صِفْ لِي كَيْفَ وَصَفَ لَكَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ بِنَاءَ الْجَنَّةِ؟

فَقَالَ: أَكْتُبُ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ:
«إِنَّ سُورَةَ الْجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَ لَبِنَةٌ مِنْ
فِضَّةٍ وَ لَبِنَةٌ مِنْ يَاقُوتٍ وَ مِلَاطُهَا الْمِسْكُ
الْأَذْفَرُ وَ شَرْفُهَا الْيَاقُوتُ الْأَحْمَرُ وَ الْأَخْضَرُ
وَ الْأَصْفَرُ».

قُلْتُ: فَمَا أَبْوَابُهَا؟

قَالَ: «إِنَّ أَبْوَابَهَا مُخْتَلِفَةٌ بَابُ الرَّحْمَةِ مِنْ
يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ».

قُلْتُ: فَمَا حَاقَتُهُ؟

فَقَالَ: وَ كُفَّ عَنِّي، فَقَدْ كَلَّفْتَنِي شَطَطًا!
قُلْتُ: مَا أَنَا بِكَافٍ عَنكَ حَتَّى تُؤَدِّيَ إِلَيَّ
مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
قَالَ: أَكْتُبُ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

أَمَّا بَابُ الصَّبْرِ فَبَابٌ صَغِيرٌ مِصْرَاعٌ
وَاحِدٌ، مِنْ يَأْفُوتَةٌ حَمْرَاءٌ، لَا حَلْقَ لَهُ.
وَ أَمَّا بَابُ الشُّكْرِ فَإِنَّهُ مِنْ يَأْفُوتَةٌ بِيضَاءٍ
لَهَا مِصْرَاعَانِ، مَسِيرَةٌ مَا بَيْنَهُمَا مَسِيرَةٌ
خَمْسِمِائَةَ عَامٍ، لَهُ ضَجِيجٌ وَ حَنِينٌ يَقُولُ:
«اللَّهُمَّ جِنِّي بِأَهْلِي».

قُلْتُ: هَلْ يَتَكَلَّمُ الْبَابُ؟

قَالَ: نَعَمْ، يُنْطِقُهُ اللهُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ،
وَ أَمَّا بَابُ الْبَلَاءِ...

قُلْتُ: أَلَيْسَ بَابُ الْبَلَاءِ هُوَ بَابُ الصَّبْرِ؟
قَالَ: لَا.

قُلْتُ: فَمَا الْبَلَاءُ؟

قَالَ: الْمَصَائِبُ وَالْأَسْقَامُ وَالْأَمْرَاضُ وَالْجُذَامُ وَ هُوَ بَابٌ مِنْ يَأْقُوتَةٌ صَفْرَاءُ
مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ. مَا أَقَلَّ مَنْ يَدْخُلُ فِيهِ.

قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، زِدْنِي وَ تَفَضَّلْ عَلَيَّ
فَإِنِّي فَقِيرٌ.

فَقَالَ: يَا غُلَامُ، لَقَدْ كَلَّفْتَنِي شَطَطًا!

أَمَّا الْبَابُ الْأَعْظَمُ فَيَدْخُلُ مِنْهُ الْعِبَادُ
الصَّالِحُونَ وَ هُمْ أَهْلُ الزُّهْدِ وَ الْوَرَعِ وَ
الرَّاغِبُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْتَأْنِسُونَ بِهِ.
قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ فَمَا
ذَا يَصْنَعُونَ؟

قَالَ: يَسِيرُونَ عَلَى نَهْرَيْنِ فِي مَاءٍ صَافٍ
فِي سُنَنِ الْيَاقُوتِ مَجَازِيْفُهَا اللَّوْلُؤُ، فِيهَا
مَلَائِكَةٌ مِنْ نُورٍ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ خَضِرٌ شَدِيدَةٌ
خَضِرَتْهَا.

قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، هَلْ يَكُونُ مِنَ النُّورِ
أَخْضَرٌ؟

قَالَ: إِنَّ الثِّيَابَ هِيَ خَضِرٌ وَلَكِنْ فِيهَا نُورٌ
مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَلَّ جَلَالُهُ لِيَسِيرُوا
عَلَى حَافَتَيْ ذَلِكَ النَّهْرِ.

قُلْتُ: فَمَا اسْمُ ذَلِكَ النَّهْرِ؟

قَالَ: جَنَّةُ الْمَأْوَى.

قُلْتُ هَلْ وَسَطُهَا غَيْرُهَا؟

قَالَ: نَعَمْ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهِيَ فِي وَسَطِ الْجَنَانِ
وَ أَمَّا جَنَّةُ عَدْنٍ فَسُورُهَا يَأْقُوتٌ أَحْمَرٌ وَ
حَصَاهَا اللُّؤْلُؤُ.

فَقُلْتُ: وَ هَلْ فِيهَا غَيْرُهَا؟

قَالَ: نَعَمْ، جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ.

قُلْتُ: فَكَيْفَ سُورُهَا؟

قَالَ: وَيْحَكَ كُفَّ عَنِّي جَرَحْتَ عَلَيَّ قَلْبِي.

قُلْتُ: بَلْ أَنْتَ الْفَاعِلُ بِي ذَلِكَ.

مَا أَنَا بِكَافٍ عَنكَ حَتَّى تُتِمَّ لِي الصِّفَّةَ وَ
تُخْبِرَنِي عَنْ سُورِهَا.

قَالَ: سُورُهَا نُورٌ.

قُلْتُ: مَا الْغُرْفُ الَّتِي فِيهَا؟

قَالَ: هِيَ مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ.

قُلْتُ: زِدْنِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ.

قَالَ: وَيْحَكَ، إِلَى هَذَا انْتَهَى بِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، طُوبَى لَكَ إِنْ أَنْتَ وَصَلْتَ إِلَى مَا لَهُ هَذِهِ الصِّفَةُ وَطُوبَى لِمَنْ يُؤْمِنُ بِهَذَا.

قُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، أَنَا وَاللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا.

قَالَ: وَيْحَكَ، إِنَّهُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذَا أَوْ يُصَدِّقُ
بِهَذَا الْحَقِّ وَالْمِنْهَاجِ لَمْ يَرْغَبْ فِي الدُّنْيَا
وَلَا فِي زِينَتِهَا وَحَاسَبَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ.
قُلْتُ: أَنَا مُؤْمِنٌ بِهَذَا.

قَالَ: صَدَقْتَ وَلَكِنْ قَارِبٌ وَسَدِيدٌ وَلَا تَيَأْسُ
وَاعْمَلْ وَلَا تُفْرِطْ وَارْجُ وَخَفْ وَاحْذَرْ
ثُمَّ بَكَى وَشَهَقَ ثَلَاثَ شَهَقَاتٍ فَظَنْنَا أَنَّهُ قَدْ
مَاتَ.

ثُمَّ قَالَ: فِدَاكُمْ أَبِي وَ أُمِّي، لَوْ رَأَيْتُمْ مُحَمَّدًا
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَقَرَّتْ عَيْنُهُ حِينَ
تَسْأَلُونَ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ.

ثُمَّ قَالَ: النَّجَاءُ النَّجَاءُ، الْوَحَا الْوَحَا
الرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، الْعَمَلُ الْعَمَلُ
إِيَّاكُمْ وَ التَّفْرِيطَ ، إِيَّاكُمْ وَ التَّفْرِيطَ

ثُمَّ قَالَ: وَيَحْكُمُ، اجْعَلُونِي فِي حِلِّ مِمَّا قَدْ
فَرَّطْتُ.

فَقُلْتُ لَهُ: أَنْتَ فِي حِلِّ مِمَّا قَدْ فَرَّطْتَ
جَزَاكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ كَمَا أَدَّيْتَ وَفَعَلْتَ الَّذِي
يَجِبُ عَلَيْكَ.

ثُمَّ وَدَّعَنِي وَ قَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَ أَدِّ إِلَى أُمَّةِ
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَا أَدَّيْتُ إِلَيْكَ.
فَقُلْتُ لَهُ: أَفَعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قَالَ: أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَ أَمَانَتَكَ وَ زَوَّدَكَ
التَّقْوَى وَ أَعَانَكَ عَلَى طَاعَتِهِ بِمَشِيئَتِهِ.^١

^١ . كتاب من لا يحضره الفقيه، كتاب الصلاة، باب ٤٤، حديث ٤٤.

و أخيراً...

يتوفى بلال سيّد المؤذنين الحبشي
الذي اختاره الرسول لذلك المقام العليّ
كخطوةٍ على:

طريق محو «التمييز العنصري» يتوفى
بلال في العام العشرين من الهجرة-على
المشهور - و يُدفن عند الباب الصغير
بدمشق...

و يغيب بلال...

و لكن صموده و ثباته لن يغيبا...

١٤. وليد الأمجاد؛ تمام بن العباس بن عبدالمطلب

كان امرءً شهماً شجاعاً شجاعاً فائقةً و
كانت شهامته وشجاعته هاتان هما اللتان
دفعتا بعليّ امير المؤمنين أيام خلافته، أن
يختاره لإمارة المدينة بعد أن عزل منها
سهل بن حنيف. هذا اذا عرفنا ماذا كانت
تعنى إمارة المدينة بالذات؟

لا شكّ أنّ الانتداب الإمام له لهذه الإمارة
كان دليل صدقه و نزاهته و فضله و
صلاحه ليس إلاّ إذ ليس من المعقول أن
يعطيّ عليّ أيّ منصب لأيّ شخص كان
فهو ليس ممّن يضع الرجل غير المناسب
في المكان غير المناسب.

كان العباسُ؛ عمُّ النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله
مِن الذين كانوا يحملون حَبًّا عَظِيمًا لابن
عمِّ الرسولِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام
بل و كان أحدَ أعمدة التشييع في عهده و
أحدُ أساطينه.

و كذلك كان بنوه كلُّهم مِن رجال الإسلام
العظماء الذين كانت لهم في التشييع أقدام
راسخة، لم تزل و لم تتزعزع.

كان للعباس عشرة بنين أصغرهم كان
«تمّام»؛ هذا الذي نتحدّثُ عنه هنا.

و لعلّ لأنّه أتمّ بميلاده عدد إخوته عشراً
أسماء أبوه تماماً... لعلّ...

على أنّ من جميل ما صنّعه المقادير مع
العَبَّاس أنّ كلّ أبناءه وُلِدوا في عهد
النبوة العظيم، أيّام كان رسول الله حيّاً بين
أظهر المسلمين، فسعدوا برويته.

غير أنّ ثلاثاً من بنيه فقط و هم فضل و
عبدالله و عبيدالله سمعوا من النبيّ الكريم
وَ نقلوا أحاديثه و كلماته.

أميراً للمدينة

مَنْ يعرف موقع «المدينة» الاستراتيجي على الخارطة الإسلامية - في قرون الإسلام الأولى - يدركُ ما ذا تعني إمارة المدينة؟

فالمدينة كانت - و ظلت لفترة طويلة و حتى ربح من أيام الخلافة العلوية - عاصمة الإسلام و مُلتقى الوفود القادمة من شتى أقطار الإسلام ومطمح الأنظار بين مناطق الرقعة الإسلامية الطويلة العريضة.

ثم هي فوق ذلك كانت موطن جمع كبير من صحابة الرسول؛ من الأنصار و

المهاجرين، بعد أن كانت مُهاجِرَ نبيّ
الإسلام و بلدَه الثاني و أخيراً مَثَواه
المبارك.

فالمدينة إذن-بكلّ هذه الاعتبارات- كانت
أهمّ قاعدةٍ من قواعد الإشعاع الإسلامي
و واحداً من أهمّ مراكزه.

لهذه الاعتبارات، ندرك بجلاء أنّ اختيار
الإمام عليّ عليه السلام لتّمّام بن العباس؛
ذلك الرجل الشجاع و البطل الشهم، كان
و لا شكّ يستندُ إلى ما كان يتمتّع به تّمّام
من نبيل و شهامة و شجاعة فائقة.

أجل، لهذه المزايا في تّمّام، نصبه الإمام
أميراً من جانبه على المدينة بعد أن عزّل
عنها سهل بن حنيف و أخذه معه.

فبقي تَمَّام والياً عليها من جانب الإمام
عليّ عليه السلام مدّة من الزمن.
حتى عزله امير المؤمنين و نصب مكانه
أباأيوب الأنصاري.^١

ولا شك أنّ اختيار الإمام عليه السلام
لتَمَّام لإمارة المدينة كان دليل نراهته و
فضله و صلاحه و سداده.

فهذا هو ما يُمليه الواقع، و لكن مؤلّف
قاموس الرجال يكتب قائلاً:

«إن صحَّ أنّ استعمال امير المؤمنين
عليه السلام تَمَّاماً على المدينة - بعد سهل
بن حنيف - يدلّ على وثاقته أقول: ولكن
يهدمُ مبناه أنّه اتّفق أهل التاريخ على:

١ . الاستيعاب، ج ١، ص ١٨٨؛ الإصابة، ج ١، ص ١٨٨.

استعماله عليه السلام عبيدالله بن العباس
(أخا تمام) على اليمن مع تخليه (تخلي
عبيدالله كما نعلم) عن معسكر الإمام
الحسن عليه السلام و لحوقه بمعاوية^١.

و هكذا لا يرى صاحب قاموس الرجال
تنصيب الإمام تماماً لإمارة المدينة دليلاً
على صلاح تمام و إنما يعتبر أن المعيار
الصحيح هو استقامة المرء مع الإمام
حتى آخر اللحظات.

و يستدلُّ لقوله بقضية عبيدالله حيث يقول
ما معناه و كيف يكون الاختيار للإمارة
دليل صلاح و هذا عبيدالله اختاره الإمام

^١ . قاموس الرجال، ج ٢، ص ٢٥٤.

عليّ لإمارة اليمن يلحقُ بمعاوية و يخذلُ
الإمام الحسن عليه السلام.

فلا بدّ أن نقول إذن: إنّ الأمور تُعرَف
بخواتيمها.

بيد أنّنا نقول:

إنّ اختيار الامام عليه السلام لشخصٍ مّا
لمثل ذلك المقام الخطير انّما يكشفُ عن
أنّ المرء ذاك كان موضع ثقة الامام في
ذلك الحين فقط، لا أنّه دليلٌ على صلاح
الرجل حتى آخر عمره.

اذ ما أكثر الرجال الذين كانوا صلحاء
أبرار في مطلع حياتهم و لكنّهم انحرفوا
في الأخير، تاركين الحقّ إلى الضلال و
ما بعد الحقّ إلا الضلال.

حقيقة أنّه ليس من المنطقي و الجائز أن
نسى الظنّ بأحدٍ أوتي تلك المنزلة (أي
الإمارة من قبل الإمام التي لا بدّ أن
تكشف عن صلاح الرجل) مادام لم يصدر
منه مثل ما صدر من عبيدالله بن العباس
خاصّة ونحن نعرف من عليّ عليه السلام
دقّته في اختيار وُلاته و عنفه العادل في
محاسبتهم.

فلا بدّ اذن أن نُقيم على حسن الظنّ، حتى
يثبت خلافه.

العناية بالأسنان في نظر الإسلام برواية هامة لتمام

يعتني إنسان العصر الحاضر - في جملة ما يعطيه عنايته الهامة - بصحة الفم و الأسنان عنايةً لا سبيل إلى إنكارها.

و الإنسان الحديث على حق في ذلك، فكلنا يعلم أنّ عدم العناية بصحة الأسنان و الفم (و هو المدخل الطبيعي إلى جهاز الهضم) يتسبب - بدون جدل - في أمراض مختلفة و آلام مشهودة للجسد لا تحتاج إلى دليل. و من حسن الحظّ أن يكون الإسلام قد سبق هذا العصر المتقدّم في هذه الناحية.

فمن يلقي نظرة شاملة إلى النصوص
الإسلامية يجد اهتماماً بالغاً من الرسول
و أئمة الدين عليهم السلام بقضية «العناية
بصحة الأسنان» و وقايتها.

فالرسول العظيم نفسه كان يحرصُ على
الاستياك (وهو تنظيف الأسنان بما يسمّى
بالسواك) حرصاً كبيراً حتى أنّه كان
يستاك في اليوم عدّة مرّات و حتى أنّه و
هو على فراش المرض في آخر لحظاتٍ
من حياته طلب مسواكه و راح يستاك به
منظّفاً أسنانه. و هو - كما يبدو - اهتمام
بالغ بصحة الأسنان.

على أنّ ممّا نقل اليّنا تمام من أحاديث
سمعها عن الرسول صلى الله عليه وآله

تصلحُ أن تكون للمسلمين أفضل درس
حياتي و هو قول النبي: « لا تدخلوا عليَّ
قُلْحاً (أي متسخة الأسنان صفرها) استاكوا
(أي نظّفوا أسنانكم بالسواك) لولا أشقّ
على أمّتي لفرضتُ عليهم السواك»^١.

و أخيراً فهذه زاوية من حياة ذلك الرجل
الطاهر وليد الأمجاد و سليل الطيّبين
تمّام بن العباس بن عبدالمطلب، مجرد
زاوية و لكنّها زاوية تكفي لأن تلقى
الضوء على شخصيّته بنحو مقنع-نسبيّاً-
و إن كان التاريخ لم يسجّل كلّ تفاصيل
حياته و منها تاريخ ميلاده و وفاته.

١ . الاستيعاب، ج ١، ص ١١٨، في حاشية الإصابة.

١٥. شهيدُ صفين؛ ثابت بن عبيد الأنصاري

الاشتراك في معركة بدر الكبرى كان و ظلَّ «وسامَ الشرف» كان يحملُه فريق من المسلمين على الأكتاف و به يُعرفون و على ضوئه يُقدَّرون، لأنَّ هذه المعركة لم تكن بالمعركة العابرة العادية.

بل كانت معركةً فاصلةً حدث فيها أوّل صدام عسكري بين المسلمين (وهم قلة) و المشركين (وهم كثرة).

وحمل هؤلاء المسلمين «وسامَ الشرف» لأنَّهم اشتركوا في تلك المعركة الفاصلة وناضلوا فيها أعداء الله ببسالة دفاعاً عن الإسلام.

في تاريخ الإسلام كان الذين اشتركوا في معركة بدر (أولى معارك الإسلام مع المشركين) يحظون بتقديرٍ و احترامٍ كبيرين عند المسلمين تشهدُ بهما صفحاتُ السيرة على العموم.

ولهذا نرى مؤرّخي السيرة المسلمين اذا كتبوا عن الصحابة ميّزوا أصحاب بدر من بين الأسماء و الصحابة، كما فعل محمد بن سعد في كتابه المعروف الطبقات الكبرى حيث جعل أسماء هذا الطراز من الصحابة في عمودٍ خاصّ.

و سرُّ الاحترام و التقدير لهذا الفريق من المسلمين انّما يعودُ و ينبعُ من أنّ هؤلاء اشتركوا في أوّل صدام عسكري خطير

بين المسلمين وأعداءهم المشركين و
جاهدَ في تلك الحرب ببسالةٍ و تضحيةٍ و
استمالةٍ دفاعاً عن الإسلام الذي كان
أنئذٍ يعاني من قلة العدد و ضعف العمد
و يحتاجُ - بشدةٍ - إلى نصر الناصرين،
و جهاد المجاهدين و أخيراً إلى دفاع
المخلصين.

من أجل هذه المشاركة النبيلة في تلك
المعركة، نال فريق من المسلمين «وسام
الشرف» و بقوا يحظّون بتقدير الأمة و
احترامها لهم، بعد أن باتوا يُعرَفون
بالبدريين.

جعفر الهادي

يجب أن لا ننسى أن بدرية المرء
لا يمكن أن يكون شارة دائمة تدلّ على
صلاح الرجل صاحب الوصف ذاك إلا
إذا لم يقم على خلافه دليل.

أما حين يُلحِقُ الرجلُ بهذا الموقف المَجيد
مواقفَ تتناقضُ و روحَ الاسلام.

فإنّه لا و لن يبقى مجالٌ بعد ذلك للتمسك
ببدرية للتدليل على صلاحه و سداده.

انتهى

كان معسكر الإمام عليّ يتمتّع بمعنويّة
أفضل وأضخم من جيش معاوية - أيام
الصراع- بسبب ما كان يضمّه المعسكر
العلويّ من مجموعة كبيرة من البدريين
الذين قُدِّرَ لهم أن يطول بهم العمر حتى
ذلك الحين فيسيروا في ركاب الإمام عليّ
عليه السلام و يُحاربوا بين يديه.

الأمر الذي كان مبعث قوّة لجانب الإمام
و دليلاً آخر على سلامة منهجه وصواب
سبيله و لهذا أيضاً نجد أصحاب الإمام
يُشيرون إلى هذه الناحية بل و يركّزون
عليها عند الاحتجاج مع معاوية وأعوانه
كما نلاحظ ذلك في حوار قيس بن سعد مع
نعمان بن البشير.

و مجمل القصة هو...

إنّ قيس بن سعد الذي كان من خيار
أنصار الإمام علي عليه السلام و صفوة
أصحابه و قصلائهم الأوفياء الشجعان و
كان من جماعة الأنصار.

إنّ قيساً هذا خَطَبَ ذات يوم في صفّين
خطاباً حماسياً مُثيراً عَدَدَ فيه مساوئ
معاوية و عيوبه وانتقده بشدّة على فعّاله
و نزاعه مع الإمام، انتقاداً لاذعاً و قوياً
أزعج معاوية به و دفعه إلى أن ينال من
جماعة الأنصار ويسئ اليهم في محضر
اثنين منهم.

هما نعمان بن البشير و مسلمة بن مخلد
كانا في جيشه.^١

فيثير استيائهما... هما الآخران...

و ذات يوم طلب معاوية من نعمان بن
البشير أن يخرج إلى قيس و يحاجّه و
يردّ عليه و يؤنّبه على انتقاداته لمعاوية
و يصرفه عنها.

خرج نعمان إلى قيس و أسمعه كلاماً و
قال قيس في جوابه:

«مَا كُنْتُ أَرَاكَ يَا نُعْمَانُ تَجْتَرِي عَلَى
هَذِهِ الْمَقَالَةِ، إِنَّهُ لَا يَنْصَحُ أَخَاهُ مَنْ غَشَّ
نَفْسَهُ وَ أَنْتَ وَاللَّهِ الْغَاشُّ الضَّالُّ الْمُضِلُّ.»

١ . الاستيعاب، ج ١، ص ١١٩.

أَمَّا ذِكْرُكَ عُثْمَانَ، فَإِنْ كَانَتْ الْأَخْبَارُ
تَكْفِيكَ، فَخُذْهَا مِنِّي وَاحِدَةً.

قَتَلَ عُثْمَانَ مَنْ لَسْتُ خَيْرًا مِنْهُ وَ خَذَلَهُ
مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ.

وَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَمَلِ فَقَاتَلْنَاهُمْ عَلَى النَّكَثِ
وَ أَمَّا مُعَاوِيَةُ، فَوَاللَّهِ أَنْ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ
الْعَرَبُ قَاطِبَةً لَقَاتَلَتْهُ الْأَنْصَارُ.

وَ أَمَّا قَوْلُكَ إِنَّا لَسْنَا كَالنَّاسِ فَخُنُّ فِي هَذِهِ
الْحَرْبِ كَمَا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ نَتَّقِي
السُّيُوفَ بِوُجُوهِنَا وَ الرِّمَّاحَ بِنُحُورِنَا
حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ
كَارِهُونَ.

وَ لَكِنْ انظُرْ يَا نُعْمَانُ!

هَلْ تَرَى مَعَ مُعَاوِيَةَ إِلَّا طَلِيقاً أَوْ أَعْرَابِيّاً
أَوْ يَمَانِيّاً مُسْتَدْرِجاً بَغْرُورٍ؟

أَنْظُرْ أَيَّنَ الْمُهَاجِرُونَ وَ الْأَنْصَارُ وَ
التَّابِعُونَ بِإِحْسَانِ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟
ثُمَّ انْظُرْ! هَلْ تَرَى مَعَ مُعَاوِيَةَ غَيْرَكَ وَ
صُويحِبَكَ وَ لَسْتُمَا وَ اللَّهِ بِبَدْرِيِّينَ وَ لَا
عَقَبِيِّينَ وَ لَا أُحُدِيِّينَ وَ لَا لَكُمْ سَابِقَةٌ فِي
الإِسْلَامِ وَ لَا آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ؟»^١

أجل هكذا و إلى هذا الحدّ كان الاشتراك
في غزوة بدر دليلاً على الصّلاح و باعناً
على الاحترام و معياراً يعرفُ به الرجال
و يقاسُ به منازلهم.

١ . وقعة صفين، ص ٤٤٩ .

و لقد كان ثابت ممّن حمل هذا الوسام و
حظي بهذه المنزلة، لأنّه كان من جملة
من الشخصيات الأنصاريّة الكبيرة التي
اشتركت في غزوة بدر و دافعت عن
الإسلام في ذلك اليوم العصيب.

و كان ثابت -بعد هذا- من أنصار الامام
عليّ عليه السلام الأوفياء شارك في حرب
صفين في ركابه و نال الشهادة في سبيل
الله بين يديه.^١

و يا لهما من فخرين ما أعظمهما:

فخر الجهاد في بدر

فخر الشهادة بين يدي إمام المتّقين...

١ . الاستيعاب، ج ١، ص ١١٩ و ١٩٥.

١٦. قائدٌ لائق؛ ثابت بن قيس بن خطيم

هو من أحد المسلمين الشجعان الأبطال
و من مجاهدي الإسلام و فدائييه.

جاهد في بدر و رغم أنه كان يحمل على
جسمه اثنتي عشرة جراحة نازفة لم يكف
عن مواصلة القتال في ساحة المعركة
بين يدي رسول الله.

و بعد الرسول لم يقطع اتّصاله مع عليّ
وصيّ الرسول بل ظلّ يشترك معه
- بفدائيّة فائقة - في معاركه و حروبه.

و من أجل كلّ هذا نَقَمَ عليه معاوية حتى
آخر حياته.

قيس بن الخطيم (أبو ثابت) كان من كبار شعراء الجاهلية و فحولها.

سافر ذات مرة إلى مكة و هناك التقى بالرسول العظيم، فدعاه إلى الإسلام فاستمهله ريثما يعود إلى المدينة و من ثم يرى رأيه بعد أن يفكر في الأمر.

و لكن قيساً لم يحظّ بلقاء الرسول بعد ذلك اللقاء. فقد قُتل قبل أن يقدم رسول الله إلى المدينة في إحدى حروب القبيلتين أي الأوس و الخزرج و مات مشركاً!

بيد أن ولده ثابت -بطل حديثنا هنا- ليس تشرف باعتناق الإسلام فحسب و إنما كان من المسلمين الشجعان و من مجاهدي الإسلام الفدائيين.

المشاركة في حرب بدر

و رغم أنّه تعرّض في تلك المعركة الضارية لاثنتي عشرة جراحة نازفة لم يكفّ عن القتال و لم يتوقّف عن الضرب و الجلاء، بل مضى - دون أن يلوي على جراحه أو يكثر بها - يقاتل بصلابيّة و استماتة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، على أنّه لم يشترك في بدر وحدها، فقط بل اشترك في كلّ معارك في صدر الإسلام جندياً مجاهداً عن دينه و فدائياً منافحاً عن عقيدته.

والياً على المدائن

و بعد وفاة رسول الله لم يقطع ثابت صلته
بالامام عليّ وصيّ الرسول و خليفته
الحقّ بل اشترك معه في حروبه الثلاث؛
صفّين و الجمل و النهروان و لسوابقه
المضيئة و لنبله و صلاحه نصبه الإمام
والياً من جانبه على المدائن.

و ظلّ يواصل ولايته على المدائن حتى
بعد مصرع الإمام عليّ عليه السلام حتى
اذا استولى معاوية على العراق و نصب
المغيرة لإمارة الكوفة و عزل المغيرة
ثابتاً و انتهت بذلك ولايته للمدائن.

ثمّ هو لموقفه الصريح مع الإمام ضدّ
معاوية ظلّ منقوماً عليه من جانبه حتى
آخر حياته لأنّه شهد مع عليّ عليه السلام
كلّ معاركه ضدّ معاوية مضافاً إلى أنّه
يوم أراد جمعُ من الأنصار أن يكتبوا
إلى معاوية يستفسرون منه عن سبب
حبسه لرواتبهم و حقوقهم التي كانت
تجري عليهم من بيت المال.

اقترح ثابت على الأنصار أن يكتب
الكتابَ شخصاً واحداً منهم لئلا يقع في
جوابه ما يكرهون.

و كان في ذلك ما يسئ إلى معاوية حتماً
و لذلك نَقِمَ عليه معاوية و ظلّ يكرهه،
لموقفه مع الامام عليّ عليه السلام و
اقتراحه على الأنصار هذا الرأي المتين
- في حقيقته - لمعاوية.

و لقد توفيّ ثابت - في عهد معاوية - و
خلف من الأبناء ثلاثاً، هم محمّد و عمر
و يزيد و قد قُتِلوا جميعاً في موقعة الحرّة
الأليمة يوم أباح يزيد بن معاوية لجنوده
مدينة الرسول أياماً ثلاث و كانت فاجعةً
لا و لن تنساها ذاكرةُ التاريخ.^١

١ . الاستيعاب، ج ٢، ص ٢٠٠؛ الإصابة، ج ١، ص ١٩٦؛ أسد الغابة،
ج ١، ص ٢٢٩.

المصادر

- القرآن الكريم

- نهج البلاغة

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن،

السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦ق

- الإحتجاج، أبو منصور احمد بن علي الطبرسي، النجف

الأشرف، دارالنعمان، ١٣٨٦ ق.

- الأخبار الطوال، ابن قتيبة الدينوري، بيروت، داراحياء

الكتب العربي، ١٩٦٠م.

- الإرشاد، محمد بن محمد نعمان الشيخ المفيد، قم، مكتبة

بصيرتي.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبرّ، يوسف

بن عبدالله، دارالكتب العلميّة، بيروت.

- أسدالغابه في معرفة الصحابة، عزّالدين محمد بن عبد

الكريم الشيباني (ابن اثير)، بيروت، داراحياء التراث

العربي.

- الإصابة في تمييز الصحابة، احمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤١٥ ق.
- أصول الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني، طهران، دار الكتب الاسلاميّة، ١٣٤٨ ش.
- أضواء على السنّة المحمديّة، محمود أبورية، مطبعة الصور الحديثة، ١٣٨٣ ق
- الإقبال بالأعمال، السيد بن طاووس، عليّ بن موسى، مكتب الإعلام الإسلامي قم، ١٤١٦ ق.
- أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين العاملي، بيروت، دارالتعارف للمطبوعات ١٤٠٣ ق.
- الأغاني، ابوالفرج الإصفهاني، بيروت، داراحياء التراث العربي، ١٣٨٣ ق.
- الإمامة و السياسة، ابن قتيبة الدينوري، قم، نشر الشريف الرضي، ١٤١٢ ق.
- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، بغداد، مكتبة المثنى.
- البداية و النهاية، ابن كثير دمشقي، عمادالدين اسماعيل، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧ م.

- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمّد باقر المجلسي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٦ق.
- بشارة المصطفى، ابو جعفر محمّد بن ابى القاسم محمّد الطبري الشيعي، النجف الأشرف، مكتبة الحيدريّة، ١٣٨٣ق.
- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، منصور علي ناصف، بيروت، دار احياء الكتب العربيّة.
- تاريخ الإسلام، السيد صدر الدين الصدر.
- تاريخ بغداد، أبوبكر أحمد بن عليّ البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي.
- تاريخ مدينة دمشق، ابو القاسم عليّ بن الحسن، ابن عساكر، دار الفكر، بيروت.
- تاريخ الطبري، محمّد بن جرير الطبري، بيروت، نشر الأعلمي، ١٤٠٩ق.
- تاريخ القرآن، ابو عبدالله الزنجاني، منظمّة الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤٠٤ق.
- تاريخ اليعقوبي، ابن واضح اليعقوبي، النجف الأشرف المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤ق

- ترتيب المسند، نعمان بن ثابت، ابوحنيفه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٧٠ق.
- تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد الذهبي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩ ق.
- تذكرة الخواصّ، سبط ابن الجوزي، النجف الأشرف، مكتبة الحيدرية، ١٣٨٣ق.
- تفسير الصافي، الملا محسن فيض الكاشاني، بيروت، مؤسسة الأعلمي للطبوعات، ١٣٩٩ ق.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دارالمعرفة، ١٤٠٢ق
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، القاهرة، دار المنار، ١٣٧٣ ق.
- تفسير نورالثقلين، عبد علي بن جمعة الحويزي، قم، مطبعة الحكمه، ١٣٨٣ ق.
- تنقيح المقال في علم الرجال، عبدالله المامقاني، طهران نشر جهان، ١٣٥٢ش.
- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، بيروت، دارالفكر ١٤٠٤ ق.

- تهذيب تاريخ دمشق، شيخ عبدالقادر البدران، بيروت دار احياء التراث العربي.
- حلية الأولياء، أبونعيم الإصفهاني، بيروت، دارالكتاب العربي، ١٤٠٧ ق.
- حياة الصحابة، محمّد يوسف كاندهلوي، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٤٠٦ ق
- الدرّ المنثور في تفسير بالمأثور، السيوطي، بيروت، دارالكفر، ١٤٠٣ ق.
- الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة، السيّد علي خان المدني الشيرازي، قم، مكتبة بصيرتي، ١٣٩٧ ق.
- رجال حول الرسول، خالد محمّد خالد، دارالكتاب العربي، بيروت.
- رجال الكشي، أبوجعفر محمّد بن حسن الطوسي، مشهد، ١٣٤٨ ش.
- رجال النجاشي، أبوالعبّاس النجاشي، قم، مكتبة الداوري.
- سفينة البحار، الشيخ عبّاس القمي، طهران، مكتبة سنائي.

- السنن الكبرى، أحمد بن حسين البيهقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، دار الفكر، بيروت.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٥ ق.
- السيرة الحلبية، عليّ الحلبّي، بيروت، دار المعرفة.
- السيرة النبوية، ابن هشام، القاهرة، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٣٥٥ ق.
- شرح نهج البلاغه، ابن ابي الحديد المعتزلي، بيروت، دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١ م.
- شهسوار اسلام، گابريل أنگری، ترجمه كاظم عمادی مؤسّسه مطبوعاتی امیرکبیر، طهران، ١٣٤١ ش.
- صحيح البخاري، محمّد بن اسماعيل البخاري، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٤ ق.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٨٠ ق.
- العقد الفريد، ابن عبد ربّه، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣ ق.

- **علل الشرائع**، محمّد بن علي بن بابويه (الصدوق)، قم، نشر الشريف الرضي، ١٣٨٣ ش.
- **الغارات**، ابراهيم بن محمّد الثقفي الكوفي الاصفهاني.
- **غاية المرام**، السيّد هاشم البحراني، بيروت مؤسّسة التاريخ العربي ١٤٢٢ ق.
- **الغدير**، الشيخ عبدالحسين الأميني، دارالكتاب العربي، بيروت ١٣٩٧ ق.
- **الفتنة الكبرى**، طه حسين، دارالمعارف، القاهرة، ١٩٥٦ م.
- **فتوح البلدان**، بيروت، دارالكتب العلميّة ١٤٠٤ ق.
- **الفصول المهمّة**، ابن صباغ المالكي، النجف، مكتبة دارالكتب التجاريّة.
- **الفهرست**، ابو جعفر الطوسي، مشهد، ١٣٥١ ش.
- **قاموس الرجال**، محمّدتقي التستري، قم، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٢ ق.
- **الكامل في التاريخ**، عزّ الدين محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ابن اثير)، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦ ق.

- كمال الدين و تمام النعمة، محمّد بن علي بن بابويه (الصدوق)، قم، مؤسسة النشر الاسلامي، ١٣٦٣ ق.
- كنز العمال، المتقي الهندي القندوزي، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٥ ق.
- لؤلؤ و مرجان، الميرزا حسين النوري، نشر عابدي، اصفهان.
- لغتنامه دهخدا، علي اكبر دهخدا، نشر سيروس، طهران.
- مجمع البحرين و مطلع النيرين، فخر الدين بن محمّد الطريحي، ١٤١٤ ق.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الإسلام فضل بن حسن الطبرسي، المعارف الاسلاميّة، ١٣٣٩ ش.
- مروج الذهب و معادن الجواهر، أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعودي، قم، دار الهجره، ١٤٠٤ ق.
- المزار الكبير، ابن المشهدى، محمّد بن جعفر، دفتر انتشارات اسلامي، قم.
- المستدرک على الصحيحين، الحاكم النيشابوري، بيروت، مكتبة العصريّة، ١٤٢٠ ق.

- مسند أحمد، أحمد بن الحنبل، بيروت، دار الكفر، ١٤٢٤ ق.
- المعارف، ابن قتيبة، قم، نشر الشريف الرضي ٣٧٣ ش.
- معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري، طهران، مجمع العلمي الإسلامي، ١٤١٣ ق.
- المغازي، محمد بن عمر بن الواقدي، طهران، نشر دانش اسلامي، ١٤٠٥ ق.
- مقاتل الطالبين، ابو الفرج الاصفهاني، النجف الأشرف المكتبة الحيدرية، ١٩٦٥ م.
- المنجد في اللغة، لوئيس معلوف، دار المشرق، بيروت، ١٣٧٣ ق.
- منظومة، الملا هادي السبزواري، نشر علمية إسلامية، طهران.
- من لا يحضره الفقيه، محمد بن علي بن بابويه (الشيخ الصدوق) قم، نشر جماعة مدرسين الحوزة، ٣٦٣ ش.
- الوسائل إلى معرفة الأوائل، جلال الدين السيوطي، الخانجي، القاهرة

- وسائل الشيعة إلى تفصيل مسائل الشريعة، محمّد بن حسن حرّ العاملي، بيروت، دار احياء التراث.
- وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، القاهرة، نشر المؤسسة العربيّة، ١٣٨٢ق.